STORIES | قصص

@ketab_n
Follow Me
3.6.2015

خوليو كورتاثار

الجولة الأخيرة

ترجمة محمد أبو العطا

قصص | STORIES

• ••• •• • ••••••••

الجولة الأخيرة

@ketab_n

ترجمة : محمد أبو العطا

تأويلة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجولة الأخيرة

الجولة الأخيرة
خوليو كورتاثار (كاتب من الأرجنتين)

الطبعة الثانية : أزمنة 2015
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.com info@azminah.net
Website:http://www.azminah.com

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)
لوحة الغلاف : Henrik Shimoda (هولندا)
الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور ، نسرين العجو)
تاريخ الصدور : كانون ثاني/يناير 2015

Twitter: @ketab_n

الفهرس

1 . سيلفيا 7

2.الرحلة 23

3. شارع هومبولدت 41

4. رسالة إلى آنسة في باريس 53

5. اتصال الحدائق 65

6. لا ذنب لأحد 67

7. الصديقان 73

8. لقاء 77

9. الآنسة كورا 95

10. كل النيران، النار 121

11. هناك لكن أين، كيف؟ 137

12. تغيير الأضواء 149

13. وأنتِ استلقيتِ إلى جانبكَ 161

14. لقاء في دائرة حمراء 175

15. نظرة القطط 185

16. أسقط وأنهض 191

خاتمة 195

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيلفيـــــا

من يدري كيف كان سينتهي أمر لم تكن له بداية حتى، أمر حدث في منتصفه وتوقف بلا ملمح محدد، متلاشياً عند ضباب آخر، على أية حال يجب البدء بقول إن الكثير من أهل الأرجنتين يقضي جزءاً من الصيف في وديان لوبيرون، المخضرمون من أهل المنطقة نسمع كثيراً أصواتهم العالية التي تبدو وكأنها تستحضر حيزاً مفتوحاً أكبر، وإلى جانب الآباء يأتي الأطفال وهذا يعني سيلفيا أيضاً، أحواض الزرع بعد أن دهستها الأقدام، الغداء واللحم البقري في شوكة الطعام وعلى الخد، عويل رهيب متبوع بمصالحات ذات سمة إيطالية غالبة، أي ما يسمى عطلة أسرية. وهم قليلاً ما يزعجونني لما عرف عني حقاً من فظاظتي، فلا يكاد الصمام ينفتح إلا ليسمح بمرور راؤول ونورا مايير، وبالطبع أيضاً صديقيهما خابيير وماجدا، وهو ما يشمل الأولاد وسيلفيا، الشواء في منزل راؤول منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، شيء لم تكن له بداية حتى ومع ذلك هو أولاً سيلفيا، هذا الغياب الذي يعمر الآن منزل رجل وحيد، يلمس وسادتي بميدوزاه الذهبية، يجبرني على كتابة ما أكتب بأمل عبثي في أن أتخلص منه، أن يكون «غوليم» عذباً من الكلمات. على أية حال ينبغي أن نضيف أيضاً جون بوريل الذي يعلِّم أدب بلادنا في جامعة في أوكسيتانيا بجنوب فرنسا وامرأته ليليان والصغير رونو

Twitter: @ketab_n

الذي يتراكم داخله عامان صاخبان من الحياة. ما أكثر الأشخاص من أجل شواء في حديقة منزل راؤول ونورا، تحت شجرة زيزفون رحيبة لم يبدُ أن لها أثراً مهدئاً (رغم أنها يصنع من أوراقها شراباً مهدئاً) وقت شجار الأطفال أو ساعة النقاش الأدبي. وصلت ومعي زجاجات نبيذ وشمس استلقت عند السفوح، وجّه راؤول ونورا الدعوة إلي لأن جون بوريل كان له زمن وهو يريد التعرف إلي ولا يجرؤ على ذلك وحده؛ في تلك الأيام كان خابيير وماجدا يقيمان هما أيضاً في المنزل. كانت الحديقة ميدان معركة بين الهنود السيوكس وبين الغال الرومان، محاربون يلبسون الريش كانوا يقاتلون بصيحات سوبرانو وكرات من الطين، غراثيبلا ولوليتا متحالفتان ضد ألبارو، ووسط الوطيس رونو المسكين يتأرجح بسراويله المحشوة بقطن رءوم وبميله طوال الوقت إلى الانتقال من فريق إلى آخر، خائن بريء ومستهجن لا أحد يهتم بأمره سوى سيلفيا. أعلم أني كدست الأسماء، ولكن الترتيب وشجرة كل عائلة تأخرا أيضاً في الوصول إليّ، أتذكر أني هبطت من السيارة والزجاجات تحت إبطي وعلى مسافة عدة أمتار رأيت عصابة رأس «الثور الذي لا يقهر» تطل من بين الشجيرات، إيماءة فمه ترتاب في هذا «الوجه الشاحب» الجديد، المعركة من أجل الحصن والرهائن كانت تدور رحاها حول خيمة صغيرة خضراء يبدو أنها مقر قيادة «الثور الذي لا يقهر». غراثيبلا تركت على نحو غير مسؤول هجوماً قد يكون حاسماً وألقت بذخيرتها اللزجة وانتهت إلى مسح يديها في عنقي. بعد ذلك جلست على نحو لا ينمحي على ركبتي وشرحت لي أن راؤول ونورا في الطابق الأعلى مع الكبار الآخرين وأنهم آتون، تفاصيل بلا أهمية مقارنة بمعركة الحديقة الضارية.

Twitter: @ketab_n

غراثييلا شعرت دائماً بأن من واجبها أن تفسر لي كل شيء، من مبدأ أنها تعتبرني أحمق. فعلى سبيل المثال، هذا المساء لا يمكن عمل أي حساب لطفل آل بوريل، ألم تنتبه إلى أن رونو في الثانية من العمر، مازال يتبرز في سرواله، حدث له ذلك منذ لحظة وأنا ذهبت لأخبر والدته لأن رونو كان يبكي، لكن سيلفيا حملته إلى جانب حوض الماء ونظفت مؤخرته وغيرت له ملابسه. ليليان لم تعلم شيئاً لأنها ـ أتدري؟ـ تغضب بشدة وتضربه على مؤخرته، حينئذ يبكي رونو من جديد ويضايقنا طوال اليوم ولا يدعنا نلعب.

ـ والآخران؟ الأكبر منه؟

ـ هما ابنا خابيير وماجدا، أنت لا تفهم يا أحمق. ألبارو هو «الثور الذي لا يقهر» ، هو في السابعة، يكبرني بشهرين وهو أكبرنا. لوليتا في السادسة لكنها تلعب معنا، وهي أسيرة «الثور الذي لا يقهر» . وأنا «ملكة الغابة» ولوليتا صديقتي، أي علي أن أنقذها، لكننا سنكمل غداً لأنهم الآن نادونا كي نستحم. أصيب ألبارو بجرح في قدمه، سيلفيا ضمدته له. أطلق سراحي فيجب أن أذهب.

لم يكن أحد يمسك بها، لكن غراثييلا تميل دائماً إلى تأكيد حريتها. نهضت كي أحيي آل بوريل وكانا يهبطان من المنزل مع راؤول ونورا. أحدهم، أعتقد أنه خابيير، قدم لنا أول «باستي» [شراب الأنيسون الفرنسي]. بدأ الحديث مع هبوط الليل، والمعركة تبدلت من حيث طبيعتها وفئتها العمرية، تحولت إلى تحرٍ باسم بين أشخاص تعارفوا في التو، كان الأطفال يستحمون، لم يكن هنالك أحد من الغال أو هنود السيوكس في الحديقة، بوريل أراد أن يعرف لمَ لا أعود إلى وطني، راؤول وخابيير كانا يبتسمان ابتسامة تأييد أبناء الوطن الواحد. أما النساء الثلاث

Twitter: @ketab_n

فأولين اهتمامهن إلى المائدة، من الطريف أنهن كن متشابهات. نورا وماجدا توحدهما لكنة بوينس أيرس فيما تقع إسبانية ليليان على الجانب الآخر من جبال البرانس. دعوناهن لاحتساء الباستي، اكتشفت أن بشرة ليليان أشد سمرة من بشرة نورا وماجدا لكنهن مازلن متشابهات، ضرب من الإيقاع المشترك يوحدهن. في تلك اللحظة كان الحديث يدور حول شعر محدد، جماعة مجلة «إبداع» Invençéo؛ نشأ بيني وبين بوريل رافد مشترك، إريك دولفي، الكأس الثانية أضاءت البسمات بين خابيير وماجدا، أما الزيجتان الأخريان فكانتا تستعيدان زمناً كان فيه الحديث الجماعي يحررنا من الخصومات وينشر في الهواء الاختلافات التي يكتمها المرء في نفسه. جن الليل تقريباً حين بدأ الأولاد في الظهور في غاية النظافة والضجر؛ أولاً، ابنا خابيير يختصمان في أمر بعض العملات، ألبارو معانداً ولوليتا في صلف، ثم غراثيلا تمسك بيد رونو الذي اتسخ وجهه ثانيةً. اجتمعوا عند الخيمة الصغيرة الخضراء؛ نحن كنا نتناقش بشأن جون بيير فاي وفيليب سولير، اخترع الليل نار الشواء التي كانت حتى اللحظة شبه مختفية بين الشجر، تلطخه بانعكاسات ذهبية ومتغيرة تصبغ جذوع الشجر وتتناءى بتخوم الحديقة؛ أعتقد أنني حينئذ رأيت سيلفيا لأول مرة، كنت جالساً بين بوريل وراؤول، وحول المائدة المستديرة تحت شجرة الزيزفون يتناوب خابيير وماجدا وليليان؛ نورا تذهب وتجيء بالأطباق وأدوات المائدة. مسألة ألا يقدموني إلى سيلفيا لاحت غريبة، لكنها كانت في بداية الشباب وربما شاءت أن تظل على الهامش، وعيت صمت راؤول أو نورا، من البديهي أن سيلفيا في مرحلة سنية صعبة وتأبى دخول لعبة الكبار، تفضل فرض سلطتها ومكانتها بين الصغار المجتمعين إلى جانب الخيمة الخضراء. تمكنت من

Twitter: @ketab_n

رؤية أقل القليل من سيلفيا، كانت النار تضيء بشدة جانب الخيمة وهي كانت منحنية هناك إلى جانب رونو تنظف وجهه بمنديل أو بقطعة من القماش؛ رأيت ساقيها المصقولتين، ساقان رهيفتان ومحددتان في ذات الوقت على طريقة فرانسيس بونج الذي كان يحدثني عنه بوريل، السمانتان بقيتا في الظل مثل جذعها ووجهها، ومع ذلك كان شعرها الطويل يضيء بغتة مع حركة ألسنة اللهب، شعر هو أيضاً من الذهب القديم، بدت سيلفيا كلها متآلفة مع النار، بدت من البرونز الكثيف؛ التنورة القصيرة تكشف عن فخذيها إلى أقصى حد، وفرانسيس بونج كان قد أغفل بلا وجه حق من جانب الشعراء الفرنسيين إلى أن جاء الوقت الآن للاعتراف بمكانته رائداً بفضل جماعة Tel Quel، من المستحيل سؤال من هي سيلفيا، لماذا لاتجلس معنا، إلى جانب أن النار خادعة، قد يكون جسدها سابقاً سنها وأن هنود السيوكس مازالوا يقطنون موطنهم الطبيعي.

كان راؤول مهتماً بشعر جون تارديو، واضطررنا أن نشرح لخابيير من هو وماذا يكتب؛ حين أحضرت لي نورا ثالث باستي لم أتمكن من سؤالها عن سيلفيا، كان النقاش حامياً جداً وكان بوريل يشرب كلماتي كأنها بالغة القيمة. رأيتهم يحملون مائدة منخفضة إلى جانب الخيمة، تحضيرات واجبة كي يتناول الصغار عشاءهم على حدة. سيلفيا لم تكن هناك، لكن الظلال كانت تمحو الخيمة وربما جلست هي وراءها أو هي تتجول بين الأشجار. مجبراً على عرض آرائي حول عمق تجارب جاك روبو، لم أكد أفاجأ باهتمامي بسيلفيا وبأن غيابها المباغت يثير قلقي على نحو غامض، وفيما كنت أنتهي من حديثي إلى راؤول حول أفكاري عن روبو، أمست النار مرة أخرى هي سيلفيا، رأيتها تمر إلى جانب

Twitter: @ketab_n

الخيمة ممسكة بيدي لوليتا وألبارو وخلفهم غراثييلا ورونو يتقافزان ويرقصان في محنة أخيرة لهنود السيوكس؛ بالطبع سقط رونو على وجهه وأرعبت صرخته الأولى ليليان وبوريل. من بين الجماعة ارتفع صوت غراثييلا: «لا شيء هنالك، مر الأمر بسلام!» ، وعاد الأبوان إلى الحوار بتلك الطلاقة التي تسمح بها الرتابة اليومية المتمثلة فيما يتعرض له هنود السيوكس من خبطات؛ والآن كان الأمر يختص بإيجاد معنى لتجارب زيناكيس المغامرة والتي أبدى بها خابيير اهتماماً لاح لبوريل مبالغاً فيه. بين زوجي نورا وماجدا كنت أرى عن بعد ظل سيلفيا، جالسة مرة أخرى إلى جانب رونو تريه دمية ما كي تسري عنه، كانت النار تكشف عن ساقيها وملامح وجهها الجانبية، خمنت أنفاً دقيقاً وقلقاً وشفتين لتمثال قديم (ولكن ألم يسألني بوريل من توه شيئاً عن تمثال صغير من «السيكلادا» وجعلني مسؤولاً عنه؟ ألم تكن إشارة خابيير إلى زيناكيس قد حولت مجرى الحديث على نحو أفضل؟) شعرت بأنني إذا كنت أرغب في معرفة شيء في تلك اللحظة فعن سيلفيا، معرفتها عن قرب ودون خدع النار، إعادتها إلى الابتذال المحتمل لصبية خجول أو التأكد من هذا الظل البالغ الجمال والحياة بحيث لا تقف فقط عند حد الفرجة؛ كم وددت أن أبوح بذلك إلى نورا التي تربطني بها صلة قديمة، لكن نورا كانت تعد المائدة وتضع مناديل ورقية دون أن تنسى مطالبة راؤول بشراء بعض أسطوانات زيناكيس في الحال. من أراضي سيلفيا، غير المرئية مرة أخرى، جاءت غراثييلا الغزال الصغير، العليمة بكل شيء، أظهرت لها الابتسامة القديمة، وقدمت لها اليدين اللتين ساعدتاها على الجلوس على ركبتي؛ أفدت مما تحمله من أنباء مهمة حول خنفساء

Twitter: @ketab_n

مشعرة لأنسحب من الحديث دون أن يعتبرني بوريل غير مهذب، تمكنت بصعوبة من سؤالها هل أصيب رونو بضرر.

ـ كلا يا أحمق، لم يكن شيئاً، هو دائم السقوط، له من العمر عامان فقط، ألا تلتفت إلى ذلك. غسلت سيلفيا مكان الخبطة بالماء.

ـ من هي سيلفيا يا غراثييلا؟

نظرت إليّ كمن بوغت.

ـ صديقة لنا.

ـ ولكن هل هي ابنة أحد هؤلاء السادة؟

قالت غراثييلا بتعقل:

ـ أنت مجنون. سيلفيا صديقتنا. أليس كذلك يا ماما، أليست سيلفيا صديقتنا؟

تنهدت نورا وهي تضع آخر منديل ورقي إلى جانب طبقي.

ـ لمَ لا تعودين إلى الأولاد وتتركين فرناندو وشأنه؟ إذا جعلت تحدثك عن سيلفيا فلن ينتهي الأمر.

ـ لمَ يا نورا؟

قال خابيير:

ـ لأنهم منذ أن اخترعوها أصابونا بصداع صديقتهم سيلفيا.

قالت غراثييلا وهي تمسك بوجهي بكلتا يديها لتنتزعني من بين الكبار:

Twitter: @ketab_n

ـ نحن لم نخترعها. سل لوليتا وألبارو وسترى.

كررت:

ـ ولكن من هي سيلفيا؟

نورا كانت ابتعدت بما يكفي بحيث لا تسمعنا، وبوريل كان يناقش خابيير وراؤول. كانت عينا غراثييلا مثبتتين في عينيَّ ويصنع فمها «زلومة» صغيرة بين هازئة وعليمة.

ـ كما قلت لك، يا أحمق، إنها صديقتنا. تلهو معنا حين تريد، ولكنها لا تلعب معنا لعبة الهنود الحمر لأنها لا تعجبها. فهي كبيرة جداً، أتفهم، لذا يلقى رونو منها هذه العناية فهو لم يزل في الثانية من عمره ويتبرز في سرواله.

سألت بصوت خفيض:

ـ أأتت مع السيد بوريل أم مع خابيير وماجدا؟

ـ لم تأتِ مع أحد، اسأل لوليتا وألبارو وسترى. ولا تسأل رونو لأنه مازال صغيراً جداً ولا يفهم. دعني فيجب أن أذهب.

وراؤول، الذي يبدو دائماً كأنما يعاونه جهاز رادار، انتزع نفسه من عرض أفكاره عن حركة استخدام حروف الكتابة في الفن التشكيلي ليومئ لي إيماءة شفقة:

ـ نورا حذرتك، إذا استمعت لهم سيصيبونك بالخبل بصديقتهم سيلفيا.

ـ إنه ألبارو، ـ أردفت ماجدا ـ ابني يعشق الأساطير ويصيب الجميع بالعدوى.

Twitter: @ketab_n

لبث راؤول وماجدا ينظران إليّ، مر عشر ثانية كان بوسعي أن أقول فيه: «لا أفهم»، من أجل حثهم على التوضيح، أو أن أقول مباشرة: «لكن سيلفيا هنا، لقد رأيتها في التو». والآن وقد أصبح لدي من الوقت ما يكفي ويزيد لأفكر في الأمر، لا أرى أن تدخل بوريل الشارد قد منعني من قول ذلك. كان بوريل قد سألني شيئاً عن رواية «المنزل الأخضر» لماريو بارغس يوسا؛ طفقت أتحدث دون أن أعي ما أقول، لكنني على أية حال كنت قد توقفت عن توجيه حديثي إلى راؤول وماجدا. رأيت ليليان وهي تقترب من منضدة الأطفال وتجلسهم على كراس منخفضة وصناديق قديمة؛ كانت النار تضيؤهم كما في صور روايات هكتور مالو وديكنز، أغصان الزيزفون تمر في بعض اللحظات بين وجه وذراع مرفوعة وتسمع ضحكات واحتجاجات. وأنا كنت أتحدث عن فوشيا مع بوريل، أترك نفسي مع التيار في طوف الذاكرة ذاك الذي كان فيه فوشيا حياً على نحو جد رهيب. حين أحضرت نورا لي طبقاً من اللحم همست في أذنها: «لم أفهم جيداً ما يقوله الأولاد».

قالت نورا وهي تلقي بنظرة شفقة على الآخرين:

ـ انتهى الأمر، هأنت أيضاً قد سقطت. من حسن الحظ أنهم فيما بعد سيؤون إلى فراشهم لأنك «ضحية» مثالي يا فرناندو.

ـ لا تسمع لهم ـ تدخل راؤول ـ، من الواضح أنك لست خبيراً في هذا الأمر، تأخذ على محمل الجد كلام الصبية. ينبغي أن تنصت إليهم كمن ينصت لهطول المطر، يا عزيزي، فدون ذلك الجنون.

قد أكون، في تلك اللحظة، قد فقدت اتصالي المحتمل بعالم سيلفيا، لن أدرك مطلقاً لماذا قبلت فرض أن تكون دعابة، أن الأصدقاء

Twitter: @ketab_n

يسخرون مني (بوريل لا، بوريل كان يواصل طريقه الذي كان قد بلغ «ماكوندو»)، مرة أخرى رأيت سيلفيا التي أطلت في التو من الظلمة وتنحني بين غراثييلا وألبارو كأنما لكي تساعدهما على قطع اللحم أو ربما لتأكل قطعة؛ ظل ليليان التي جاءت لتجلس معنا حال بيني وبينها، قدم لي أحدهم نبيذاً؛ وحين نظرت مرة أخرى، بدا جانب وجه سيلفيا كأنما أضاءته الجمرات، ينسدل شعرها فوق كتفها وينساب إلى أن ينصهر في ظل الخصر. كانت من الحسن بحيث إنني شعرت بمهانة الدعابة، عدم اللياقة، أكلت ووجهي إلى طبقي، أستمع متنمراً إلى بوريل الذي كان يدعوني إلى حوارات جامعية؛ وإذا كنت قد قلت له إنني لن أذهب فمبرر ذلك سيلفيا، لاشتراكه بلا قصد في مرح أصدقائي وسخريتهم مني. في تلك الليلة لم أرَ سيلفيا بعد ذلك؛ حين دنت نورا من منضدة الأطفال ومعها جبن وفاكهة قامت هي ولوليتا بإطعام رونو الذي يغالبه النعاس. رحنا نتحدث عن خوان كارلوس أونيتي وعن فيليسبيرتو واحتسينا كماً من النبيذ على شرفه حتى إن رياحاً حربية جديدة بين «السيوكس» و«الشاروا» عصفت بشجرة الزيزفزن؛ أحضروا الأطفال كي يحيونا تحية المساء، ورونو بين ذراعي ليليان. قالت لي غراثييلا برضا كبير:

ـ كان من نصيبي تفاحة بها دودة. مساء الخير يا فرناندو، أنت شرير.

ـ لماذا يا حبيبتي؟

ـ لأنك لم تحضر إلى مائدتنا ولو لمرة واحدة.

ـ هذا صحيح. معذرة. ولكن سيلفيا كانت معكم، أليس كذلك؟

ـ بالطبع، لكن يمكنك أن تأتي أيضاً.

Twitter: @ketab_n

قال راؤول وهو ينظر إلي بشيء قد يكون شفقة:

ـ هذا الرجل ما زال يجاريها. سوف يكلفك ذلك غالياً، انتظر أن يتمكنوا منك وهم في تمام يقظتهم بصديقتهم سيلفيا الشهيرة، ولسوف تندم يا أخي.

رطبت غراثييلا ذقني بقبلة لها رائحة يغورت وتفاح نفاذة. بعد ذلك بوقت طويل، وفي أعقاب حديث مطول بدأ فيه النعاس يحل محل الآراء، دعوتهم للعشاء في منزلي. حضروا السبت الماضي نحو السابعة، في سيارتين، أحضر ألبارو ولوليتا أجزاء طيارة ورقية وبذريعة أنهما سوف يعيدان تركيبها قضيا في الحال على ما لدي من زهور الأقحوان. وأنا تركت النساء يضطلعن بشأن المشروبات، فهمت ألا أحد سيحول بين راؤول وبين إدارة دفة الشواء؛ أريت آل بوريل وماجدا المنزل وأجلستهم في غرفة المعيشة أمام لوحة خوليو سيلبا وشربت معهم بعض الوقت مبدياً أني معهم أستمع إلى حديثهم؛ من النافذة كانت ترى الطيارة الورقية في الهواء ويسمع صياح ألبارو ولوليتا. وحين ظهرت غراثييلا ومعها باقة من زهور البانسيه التي صنعت في أغلب الظن من أفضل حوض زهور لدي، خرجت إلى الحديقة بعد هبوط الليل وساعدت في تحليق الطيارة أكثر علواً. كانت الظلال تلف السفوح في نهاية السهل وتتقدم بين أشجار الكريز والحور لكن بلا سيلفيا. لم يكن ألبارو في حاجة إلى سيلفيا كي تحلق الطيارة في الهواء. قلت له وأنا أجرب الطيارة وأجعلها تبتعد وتقترب:

ـ ما أجمل طيرانها!

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، لكن احذر لأنها أحياناً تهبط رأساً وأشجار الحور هذه عالية جداًـ حذرني ألبارو.

ـ لا تسقط مني مطلقاًـ قالت لوليتا ربما بشيء من الغيرة لوجودي معهما ـ، أنت تشد الخيط أكثر مما يلزم، لا تعرف.

ـ يعرف أكثر منك ـ قال ألبارو في تحالف ذكوري فوري ـ، لمَ لا تذهبين للعب مع غراثييلا؟ ألا ترين أنك تثيرين ضيقاً؟

لبثنا وحدنا نتحكم في خيط الطيارة الورقية. انتظرت الوقت الكافي كي يقبلني ألبارو، كي يدرك أنني قادر مثله على إدارة ذلك التحليق الأخضر والأحمر الآخذ في التلاشي في الضوء الخابي. سألت وأنا أشد الخيط قليلاً:

ـ لمَ لم يحضروا سيلفيا؟

حدجني بنظره بين مباغَت وساخر وأخذ الخيط من يدي وقد حط من منزلتي بأسلوب رفيع. قال وهو يسحب الخيط:

ـ سيلفيا تأتي حين تريد.

ـ حسنٌ، هي لم تأتِ اليوم، فما رأيك؟

ـ وأنت، ما أدراك؟ هي تأتي حين تشاء، أقول لك.

ـ آه، ولمَ تقول والدتك إذاً إنك اخترعتها؟

ـ انظر كيف تتراقص. كم هي رائعة، أفضل طيارة.

ـ لمَ لا تجيبني يا ألبارو؟

ـ تظن ماما أنني تخيلتها. وأنت، لمَ لا تصدقني، هه؟

Twitter: @ketab_n

بغتة، رأيت غراثييلا ولوليتا إلى جانبي، سمعتا العبارات الأخيرة، كانتا هناك تنظران إلي بحدة؛ كانت غراثييلا تهز بين أصابعها ببطء زهرة بانسيه بنفسجية. قلت:

ـ لأنني لست مثلهم، أنا رأيتها، أتعلمون؟

تبادل ألبارو ولوليتا نظرة طويلة وغراثييلا دنت مني ووضعت زهرة البانسيه في راحة يدي. فجأة شُد خيط الطيارة وحاول ألبارو السيطرة عليه ثم رأيناها تختفي في الضوء الكابي. قالت غراثييلا:

ـ هم لا يصدقون لأنهم حمقى. أرني أين الحمّام وتعال معي كي أتبوّل.

ـ اصطحبتها إلى السلم الخارجي وأريتها مكان الحمّام وسألتها هل تعرف طريق العودة. على باب الحمّام، وبتعبير يشوبه ما يشبه الامتنان ابتسمت لي غراثييلا. قالت:

ـ اذهب أنت، سيلفيا سوف تصحبني.

قلت وأنا أقاوم ما لا أدرك كنهه ـ العبث؟ الكابوس؟ التخلف العقلي؟:

ـ آه، حسنٌ، هي حضرت إذاً في نهاية الأمر.

ـ أجل أيها الأحمق، ألا تراها هناك؟

كان باب غرفة نومي مفتوحاً وساقا سيلفيا العاريتان ترتسمان فوق غطاء الفراش الأحمر. دلفت غراثييلا إلى الحمّام وسمعتها وهي تغلق الرتاج. اقتربت من غرفة النوم، رأيت سيلفيا نائمة في فراشي، شعرها ميدوزا ذهبية فوق الوسادة. واربت الباب خلفي، اقتربت لا أدري

Twitter: @ketab_n

كيف، هنا ثمة ثقوب وسياط، ماء ينساب على وجهي يعمي ويعض، صوت كأنه من أعماق صاخبة، لحظة بلا زمن، بهية على نحو يصعب احتماله. لا أدري أكانت سيلفيا عارية، أخالني رأيتها كشجرة حَوَر من البرونز والحلم، أخالني قد رأيتها عارية لكنني فيما بعد عدلت عن ذلك، ربما تخيلتها كذلك تحت ما كانت ترتديه، خط سمانتي ساقيها وفخذيها يرسمها من جانبها فوق غطاء الفراش الأحمر؛ تابعت الانحناء الرقيق للصهوة المهملة عند نهاية إحدى الساقين، ظل الخصر الناحل، النهدين الصغيرين الشامخين الأشقرين. «سيلفيا» ، فكرت غير قادر على أية كلمة، «سيلفيا، سيلفيا، ولكن هذا يعني...» . اندلع صوت غرائييلا من خلال بابين كأنها تصرخ في أذني: «سيلفيا، تعالي وخذيني!» . فتحت سيلفيا عينيها، جلست على حافة السرير؛ كانت ترتدي تنورة الليلة الأولى نفسها وبلوزة مفتوحة وصندلاً أسود. مرت من جانبي دون أن تنظر إلي وفتحت الباب. عندما خرجت كانت غرائييلا تهبط الدرج ركضاً والتقت بليليان ورونو بين ذراعيها وهي في طريقها إلى الحمّام وإلى زجاجة المركيوروكروم لعلاج خبطة السابعة والنصف. عاونت في التهدئة وفي العلاج. صعد بوريل قلقاً بسبب صراخ طفله، احتج احتجاجاً باسماً لغيابي، هبطنا إلى غرفة المعيشة لنحتسي كأساً، كانوا جميعاً يخوضون في فن الرسام غراهام ساذرلاند، هراء من هذا القبيل، نظريات وحماس يتلاشى في الهواء مع دخان التبغ. ماجدا ونورا جمعتا الأطفال استراتيجياً كي يأكلوا على حدة؛ بوريل أعطاني عنوانه مصراً على أن أرسل له المشاركة التي وعدته بها لتنشر في مجلة في بواتييه، قال لي إنهم سيرحلون في اليوم التالي وإنهم سيصحبون معهم خابيير وماجدا كي يزورا المنطقة. «سيلفيا سترحل معهم» ، فكرت في كآبة وبحثت

Twitter: @ketab_n

عن صندوق من الفاكهة المحلاة، الذريعة للاقتراب من مائدة الأطفال، للمكث هناك برهة، لم يكن من السهل سؤالهم، كانوا يأكلون كالذئاب وانتزعوا مني الحلوى بأفضل أساليب هنود السيوكس والريويلش. لا أدري لمَ وجهت السؤال إلى لوليتا، وأنا أنتهز الفرصة كي أمسح فمها بالمنديل الورقي. قالت:

ـ وأنا، كيف لي أن أعرف! سل ألبارو!

ـ وأنا كيف أعرف! ـ قالها وهو متحير بين ثمرة كمثرى وثمرة تين ـ هي تفعل ما يعن لها. ربما تذهب إلى أي مكان.

ـ لكن، مع من منكم جاءت؟

ـ لم تحضر مع أحد. ـ هكذا ردت غراثيبلا وهي تعاجلني بأفضل ركلاتها من تحت المنضدة ـ هي كانت هنا، والآن من يدري؟ ألبارو ولوليتا سيعودان إلى الأرجنتين، وهي لن تمكث هنا مع رونو لأنك تعلم أنه لم يزل صغيراً جداً، هذا المساء بلع زنبوراً، ياللقرف!

ـ هي تفعل ما تشاء، مثلنا ـ أردفت لوليتا.

عدت إلى مائدتي، رأيت الأمسية تنتهي في ضباب من الكونياك والدخان. خابيير وماجدا عائدان إلى بوينس أيرس (ألبارو ولوليتا عائدان إلى بوينس أيرس) وأسرة بوريل ستنتقل العام المقبل إلى إيطاليا (رونو سينتقل العام المقبل إلى إيطاليا). قال راؤول:

ـ هنا سنمكث نحن الأكبر سناً. (أي أن غراثيبلا ستبقى لكن سيلفيا كانت الأربعة معاً، سيلفيا كانت حين كان أربعتهم وكنت أعلم أنهم لن يلتقوا أبداً مرة أخرى).

Twitter: @ketab_n

ما زال راؤول ونورا هنا، في وادينا، وادي لوبيرون، ليلة أمس ذهبت لزيارتهما وتحدثنا مرة أخرى تحت شجرة الزيزفون؛ أهدتني غراثييلا منديلاً انتهت من تطريزه بغرزة الصليب، وأبلغت بتحيات خابيير وماجدا وأسرة بوريل لي. تناولنا العشاء في الحديقة. أبت غراثييلا أن تأوي إلى فراشها مبكراً، تبادلنا الأحجيات. في لحظة مكثنا وحدنا، كانت غراثييلا تبحث عن حل لأحجية عن القمر، كانت تخطئ فتعاني كبرياؤها. داعبت شعرها وسألتها:

ـ وسيلفيا؟

ـ انظر كم أنت أحمق! أكنت تتخيل أنها ستأتي هذه الليلة من أجلي أنا وحدي؟

قالت نورا وهي تخرج من منطقة الظل:

ـ من حسن الحظ! من حسن الحظ أنها لن تأتي من أجلك وحدك، فقد أرهقونا بتلك القصة.

ـ القمر ـ قالت غراثييلا ـ ما أحمقها من أحجية!

Twitter: @ketab_n

الرحلـــة

قد يحدث في لاريوخا، في مقاطعة قد تسمى لاريوخا، على أية حال يحدث مساءً، عند مقدم الليل تقريباً على الرغم من أنه بدأ قبل ذلك في فناء منزل ريفي حين قال الرجل إن الرحلة مرهقة لكنه سيستريح في النهاية، هو في نهاية الأمر في طريقه إلى الراحة لأنهم قد نصحوه بذلك وإنه ذاهب لقضاء خمسة عشر يوماً هادئاً في ميرثيديس. رافقته امرأته إلى البلدة حيث ينبغي أن يبتاع التذاكر، فقد أخبروه أيضاً بأن من الأفضل أن يقطع التذاكر في محطة البلدة وأن يتأكد كذلك من أن المواعيد لم تتغير. ففي الضيعة، في ظل تلك الحياة التي يحيونها، هناك انطباع بأن المواعيد وأموراً أخرى عديدة تتبدل بكثرة في البلدة، وهذا صحيح في كثير من الأحيان. من الخير إخراج السيارة ونزول البلدة مع أن الوقت قد لا يكفي للحاق بالقطار في تشابيس.

حين يصلان محطة القطارات تكون الساعة قد جاوزت الخامسة فيتركان السيارة في الساحة المغبرة، وسط عربات اليد وأخرى تجرها الدواب محملة بالطرود والبراميل. لم يتبادلا الحديث كثيراً في السيارة، على أن الرجل سأل عن قمصان له فأخبرته المرأة بأن الحقيبة معدة

Twitter: @ketab_n

ولم يبق سوى وضع الأوراق وبعض الكتب في حافظة الأوراق. قال الرجل:

ـ خوارث على علم بالمواعيد. شرح لي كيف أسافر إلى مرثيديس، قال إن من الأفضل قطع التذاكر في البلدة والتأكد من مواعيد القطارات.

ـ أجل. قلت لي ذلك من قبل.

ـ من الضيعة حتى تشابيس هنالك ستون كيلومتراً على الأقل بالسيارة. يبدو أن القطار الذاهب إلى بيولكو يمر بمحطة تشابيس في التاسعة وعدة دقائق.

ـ السيارة تتركانها لناظر المحطة.ـ قالت المرأة في نبرة تجمع بين التساؤل والتقرير.

ـ أجل. يصل قطار تشابيس إلى بيولكو بعد منتصف الليل، لكن يبدو أن بالفندق غرفاً بحمّام شاغرة دائماً. العيب هو قلة الوقت المتاح للراحة لأن القطار الآخر يقلع نحو الخامسة صباحاً، علينا أن نسأل الآن. فيما بعد ثمة رحلة طويلة إلى أن نصل إلى مرثيديس.

ـ هي بعيدة عن هنا، أجل.

لا يوجد أشخاص كثيرون في المحطة، فقط بعض الأهالي يشترون تبغاً من الكشك أو ينتظرون على الرصيف. شباك قطع التذاكر في نهاية الرصيف، تقريباً عند بداية تشعب القضبان. قاعة بها طاولة متسخة وحوائط مكتظة بالإعلانات والخرائط تنتهي بمكتبين والخزينة الحديدية. رجل يرتدي قميصاً يستقبل العملاء وتجلس فتاة إلى جهاز التلغراف على أحد المكتبين. جن الليل تقريباً لكنهم لم يوقدوا الضوء،

Twitter: @ketab_n

يستغلون إلى النهاية الشعاع البني الذي يمر وئيداً من النافذة التي في آخر القاعة. يقول الرجل:

ـ لابد أن نسرع في العودة إلى الضيعة. مازال أمامنا حزم الحقائب ولا أدري هل بالسيارة ما يكفي من الوقود.

ـ اقطع التذاكر ونذهب. ـ تقول المرأة وهي تتأخر عنه خطوة.

ـ أجل. دعيني أفكر. سأذهب أولاً إذاً إلى بيولكو. كلا، أعني أنني يجب أن أستخرج تذكرة من المحطة التي حددها خوارِث، لا أذكر جيداً.

تقول المرأة بتلك الطريقة في توجيه الأسئلة التي هي ليست أسئلة تماماً أبداً:

ـ لا تتذكر.

يقول هو بابتسامة ضيق:

ـ يحدث دائماً مع الأسماء. تتطير منك ما إن يتم ذكرها. ثم تذكرة أخرى من بيولكو إلى مرثيديس.

ـ ولكن لماذا تذكرتان مختلفتان؟

ـ ذكر لي خوارِث أنهما شركتان مختلفتان لذا يلزم قطع تذكرتين، ومع ذلك يبيعون لك التذكرتين في أية محطة قطار بلا مشاكل، هو أمر من أمور الإنجليز.

ـ لم يعد هنالك إنجليز.

صبي أسمر دخل القاعة ويسأل عن شيء. تقترب المرأة وترتفق الطاولة، وهي شقراء وجهها مرهق وجميل كأنه تائه في شعر ذهبي

Twitter: @ketab_n

مستعار يضيء ملامحها بهالة واهية. ينظر موظف قطع التذاكر إليها برهة لكنها لا تقول شيئاً، كأنها تنتظر أن يقترب زوجها ويشتري التذاكر. لا أحد يحيي الآخر عند شباك قطع التذاكر، أمسى الظلام دامساً ولا حاجة إلى ذلك.

يقول الرجل متجهاً نحو الحائط الأيسر:

ـ هنا في هذه الخريطة لا بد أن يظهر. انظري، ينبغي أن يكون هكذا، نحن موجودون...

تقترب المرأة وتنظر إلى الإصبع المترددة فوق الخارطة الرأسية تبحث عن نقطة تحط عندها. يقول الرجل:

ـ هذه هي المقاطعة. انتظري، موقعنا نحن هنا. كلا، لابد أن نكون نحو الجنوب قليلاً، وأنا يجب أن أتجه إلى هناك، هذا هو الاتجاه، أترين. والآن، نحن هنا، هذا ما يبدو لي.

يخطو خطوة إلى الخلف وينظر إلى الخارطة، ينظر إليها طويلاً.

ـ هذه هي المقاطعة، أليس كذلك؟

ـ هذا ما يبدو. وتقول إن موقعنا هنا.

ـ هنا بالطبع. لابد أن هذا هو الطريق. ستون كيلومتراً حتى هذه المحطة، كما قال خوارِث، لابد أن القطار يقلع من هناك. لا أرى مكاناً آخر.

ـ حسن، استخرج التذكرة إذاً.

ينظر الرجل إلى الخارطة للحظة أخرى ثم يقترب من موظف قطع التذاكر. تتبعه زوجه وترتفق ثانيةً الطاولة كأنها تستعد لانتظار طويل.

Twitter: @ketab_n

ينتهي الصبي من حديثه إلى موظف قطع التذاكر ويتجه نحو الحائط ليراجع جدول المواعيد. ضوء أزرق يوقد على مكتب موظفة التلغراف. أخرج الرجل حافظة نقوده ويبحث عن النقود. يختار عدة عملات ورقية.

ـ يجب أن أذهب إلى...

يلتفت إلى امرأته التي تنظر إلى رسم على الطاولة، إلى ما يشبه ساعداً مرسوماً بالحبر الأحمر.

ـ ما اسم المدينة التي سأذهب إليها؟ يضيع الاسم مني. كلا، الأخرى، أعني الأولى. سأذهب بالسيارة إلى الأولى.

ترفع المرأة عينيها وتنظر في اتجاه الخارطة. يظهر الرجل تعبيراً بنفاد صبره لأن الخارطة بعيدة عنهما ولن تفيد في شيء. ارتفق موظف قطع التذاكر الطاولة وينتظر دون أن يقول شيئاً. يلبس نظارة خضراء وتنفر من ياقة قميصه المفتوح كتلة من الشعر النحاسي. تقول المرأة:

ـ أنت قلت أيندي، أعتقد.

ـ كلا. لم أقل أيندي.

ـ لم أكن حاضرة حين شرح لك خوارِث الرحلة.

ـ أخبرني خوارِث بمواعيد القطارات وبمراحل الرحلة لكنني كررت أمامك أسماء المحطات ونحن في السيارة.

ـ لا توجد أية محطة قطارات باسم أيندي. ـ لاحظ موظف قطع التذاكر.

ـ بالطبع لا توجد... ـ يرد الرجل.

Twitter: @ketab_n

تنظر المرأة مرة أخرى إلى الساعد المرسوم باللون الأحمر الذي هو ليس ساعداً، هي الآن متأكدة.

ـ انظر، أريد تذكرة درجة أولى إلى... أعلم أن علي الذهاب بالسيارة ، إلى شمال الضيعة. أنتِ لا تتذكرين إذاً؟

يقول الموظف:

ـ مازال لديكما وقت، فكرا في هدوء.

ـ ليس لدي كثير من الوقت. يجب أن أذهب في الحال بالسيارة إلى... أنا محتاج تحديداً إلى تذكرة من هناك إلى محطة أخرى أغير فيها القطار إلى أيندي. والآن تقول إنها ليست أيندي. كيف لا تتذكرين أنتِ؟

يقترب من امرأته. يسألها وفي نظرته تعبير مفاجأة مستهجِن. للحظة، بدا على وشك العودة إلى الخارطة والبحث لكنه يقلع عن الفكرة وينتظر منحنياً قليلاً فوق امرأته التي تمر بإصبعها مرةً وأخرى فوق الطاولة. يردد موظف قطع التذاكر:

ـ لديكما وقت.

ـ إذاً... إذاً، أنتِ...

تقول المرأة كأنها تسأل:

ـ كان من قبيل «موراغوا» .

ينظر الرجل ناحية الخارطة بيد أنه يرى موظف قطع التذاكر وهو يهز رأسه بالنفي. يقول:

ـ كلا. من غير المعقول ألا نتذكر. خاصة وأننا في طريقنا إلى هنا...

Twitter: @ketab_n

ـ يحدث هذا دائماً ـ يقول موظف قطع التذاكر ـ ، من الأفضل أن ننسى الأمر ونتحدث في أمر آخر وفجأة يأتيك الاسم كأنه طائر يسقط أمامك، هذا ما قلته اليوم تحديداً لأحد السادة كان يريد السفر إلى رامايو.

يردد الرجل:

ـ إلى رامايو. كلا، ليس إلى رامايو، ولكن لو أننا راجعنا قائمة بأسماء المحطات...

يجيبه موظف قطع التذاكر مشيراً إلى جدول المواعيد المعلق على الحائط:

ـ إنها هناك. ولكن هنالك نحو ثلاثمائة. ثمة الكثير من نقاط النزول فقط والكثير من محطات شحن البضائع لكنها تظهر بأسمائها جميعاً، ألا ترى ذلك.

يدنو الرجل من جدول المواعيد ويستند بإصبعه إلى أول عمود. الموظف ينتظر ويأخذ سيجارة كان يضعها في أذنه ويبلل طرفها قبل أن يشعلها وينظر إلى المرأة التي لم تزل ترتفق الطاولة. في الظلمة يساوره انطباع بأنها تبتسم لكن الرؤية متعذرة. يقول الموظف:

ـ هلا أشعلت شيئاً من الضوء يا خوانا.

فتمد موظفة التلغراف ذراعها إلى مفتاح الضوء بالحائط فتضيء لمبة بالسقف الحائل اللون. بلغ الرجل منتصف العمود الثاني. تتوقف إصبعه وتعود إلى أعلى ثم تهبط إلى أسفل ثانيةً ثم تبتعد. الآن تبتسم المرأة بشكل صريح، رآها موظف التذاكر في ضوء المصباح وهو الآن متأكد، هو أيضاً يبتسم دون أن يعي السبب إلى أن يلتفت الرجل فجأةً ويعود

Twitter: @ketab_n

إلى الطاولة. جلس الصبي الأسمر على مقعد إلى جوار الباب وهو ليس إلا شخصاً آخر هناك، زوجاً من العيون ينتقل من وجه إلى وجه. يقول الرجل:

ـ سوف أتأخر. لو أنكِ أنت على الأقل تتذكرين... لأن الأسماء تفر مني. تعلمين حالي.

ـ شرح لك خوارِث كل شيء.

ـ دعي خوارِث لشأنه، أنا أسألك أنتِ.

ـ يجب أن تأخذ قطارين. أولاً: تذهب بالسيارة إلى محطة، أذكر أنك قلت إنك ستترك السيارة لناظر المحطة.

ـ لا يعني هذا شيئاً.

ـ لأن لكل محطة ناظراً ـ أردف موظف التذاكر.

ينظر الرجل إليه لكن من المرجح أنه لم يسمعه حتى. ينتظر أن تتذكر امرأته، كأنما أمسى كل شيء رهينها، رهين أن تتذكر. لم يعد لديه وقت، عليه أن يعود إلى الضيعة ويحزم الحقائب ويخرج في اتجاه الشمال. بغتة يصير التعب مثل ذلك الاسم الذي لا يتذكره، خواءً يثقله كلما تقدم الوقت. لم يرَ زوجته وهي تبتسم، موظف قطع التذاكر وحده رآها. مازال ينتظر منها أن تتذكر، يساعدها بسكونه، يريح يديه على الطاولة، قريباً جداً من إصبع امرأته التي لم تزل تداعب رسم الساعد الأحمر وتمر عليه في عذوبة الآن وهي تعلم أنه ليس ساعداً. يقول وهو ينظر إلى موظف شباك التذاكر:

ـ هو على حق. عندما يفكر المرء كثيراً تفر منه الأشياء، لكنك أنتِ، ربما...

Twitter: @ketab_n

تقوس المرأة شفتيها كأنها سوف تمتص شيئاً، تقول:

ـ ربما أتذكر. في السيارة قلنا إنك ذاهب أولاً إلى... لم تكن أيندي، أليس كذلك؟ الاسم إذاً شبيه بـ«أيندي» . انتبه مرة أخرى إلى حرفي «أ» و«ب» . إن تشأ أراجعهما أنا.

ـ كلا، لم يكن هذا الاسم. وصف لي خوارث أفضل طريقة... لأن هناك طريقة أخرى لكنني حينئذٍ سأضطر إلى تغيير القطار ثلاث مرات.

ـ وذلك كثير! ـ لاحظ موظف شباك التذاكر ـ يكفي أن تغير القطار مرتين مع كل المسافة التي تقطعها في عربة القطار، ودون الحديث عن الحر.

يأتي الرجل بإيماءة صبر نافد ويستدبر موظف المحطة، يقف بينه وبين امرأته. يتمكن من رؤية الصبي من جانبه وهو ينظر إليهم من مقعده فيستدير أكثر كي لا يرى الموظف ولا الصبي، كي يظل وحيداً تماماً أمام امرأته التي رفعت إصبعها عن الرسم وتنظر الآن إلى ظفرها المطلي. يقول الرجل بصوت جد خفيض:

ـ أنا لا أتذكر. أنا لا أتذكر أي شيء وأنتِ تعلمين ذلك. لكنكِ أنتِ تتذكرين، فكري لحظة وسترين أنكِ تتذكرين. أنا متأكد.

تعود المرأة فتقوس شفتيها. ترمش مرتين، ثلاثاً. يد الرجل تحيط برسغها وتضغطه. وهي تنظر إليه الآن من غير أن تحرك رمشاً. تقول:

ـ لاس لوماس، ربما كانت محطة لاس لوماس.

ـ كلا. غير معقول ألا تتذكري.

Twitter: @ketab_n

ـ رامايو إذاً. كلا، جربت هذا الاسم من قبل. لو لم تكن أيندي فهي إذاً لاس لوماس. إن شئت أعود مجدداً إلى الخارطة.

تترك يده رسغها فتفرك المرأة الأثر الذي خلفته في الجلد وتنفخ رهيفاً عليها. طأطأ الرجل رأسه ويتنفس بصعوبة. يقول موظف المحطة:

ـ كما أنه لا توجد محطة في لاس لوماس.

تنظر إليه المرأة من فوق الرجل الذي زاد انحناؤه فوق الطاولة. دون عجلة، وكأنه يتحسس الوضع، يكاد الموظف أن يرسم لها ابتسامة. يقول الرجل فجأة:

ـ بيولكو، الآن أتذكر. كان اسم المحطة بيولكو، أليس كذلك؟

ـ ممكن. ربما تكون بيولكو، لكنني لا أتذكره كثيراً.

ـ لو كنت ستذهب إلى بيولكو بالسيارة فالطريق أمامك طويل. ـ قال موظف المحطة.

ـ ألا تعتقدين أن اسم المحطة بيولكو؟

ـ لا أعلم. أنت كنت تتذكره منذ برهة وأنا لم التفت جيداً. قد تكون بيولكو.

ـ خوارث قال بيولكو، أنا متأكد. من الضيعة إلى المحطة هنالك نحو ستين كيلومتراً.

يقول موظف قطع التذاكر:

ـ هنالك أكثر من هذا بكثير. ليس من مصلحتك أن تذهب بالسيارة إلى بيولكو. وحين تصل إلى هناك، إلى أين ستتجه؟

ـ كيف إلى أين سأتجه؟

Twitter: @ketab_n

ـ أقول ذلك لأن بيولكو ليست إلا محطة لتغيير القطارات. ثلاثة منازل وحيدة وفندق المحطة. يذهب الناس إلى بيولكو ليأخذوا قطاراً آخر. أما إذا كنت ستقضي مصلحة هناك فذاك أمر آخر.

تقول المرأة:

ـ لا يمكن أن تكون بعيدة إلى هذا الحد. تحدث خوارِث عن ستين كيلومتراً، أي أنها لا يمكن أن تكون بيولكو.

يتأخر الرجل في الرد، يريح يداً على إذنه كأنما يسمع نفسه من الداخل. لم يرفع عينيه عن المرأة وينتظر. هو غير متيقن من أنها ابتسمت له وهي تتحدث. يقول الرجل:

ـ بل يجب أن تكون بيولكو. أما إذا كانت بعيدة إلى هذا الحد فلأنها لابد أن تكون محطتي الثانية. يجب أن أقطع تذكرة إلى بيولكو وانتظار القطار الآخر. لقد ذكرتَ أنها محطة تبديل قطارات وأن بها فندقاً. هي بيولكو إذاً.

يرد موظف قطع التذاكر:

ـ ولكنها ليست على بعد ستين كيلومتراً من هنا...

تجيبه المرأة وهي تعتدل وترفع صوتها قليلاً:

ـ كلا بالطبع، لأن بيولكو هي المحطة الثانية، أما المحطة التي لا يتذكر زوجي اسمها فهي المحطة الأولى وهذه على بعد ستين كيلومتراً من هنا، هذا ما قاله خوارِث لك، أعتقد.

يقول موظف قطع التذاكر:

Twitter: @ketab_n

ـ آهٍ، حسن، في هذه الحالة ينبغي لك أن تذهب أولاً إلى تشابيس وتأخذ القطار إلى بيولكو.

ـ تشابيس ـ يقول الرجل ـ ممكن أن تكون تشابيس، بالطبع.

ـ إذاً، من تشابيس يمكن الذهاب إلى بيولكو ـ تقول المرأة في شكل سؤال تقريباً.

ـ إنها الطريقة الوحيدة للسفر في هذه المنطقة.

يجيب الموظف.

ـ كما ترى، إذا كنت متأكداً من أن المحطة الثانية هي بيولكو...

تقول المرأة.

ـ وأنتِ ألا تتذكرين؟ أنا الآن شبه متأكد لكنك حين ذكرت لاس لوماس فكرت أيضاً في أنها قد تكون المحطة.

ـ أنا لم أقل لاس لوماس، قلت أيندي.

ـ أيندي لا. ألم تقولي لاس لوماس؟

ـ ربما. بدا لي أنك في السيارة تحدثت عن لاس لوماس.

ـ لا توجد محطة بهذا الاسم ـ يقول موظف قطع التذاكر.

ـ إذاً، لابد أنني قلت أيندي لكنني لست متأكداً. ربما كانتا تشابيس وبيولكو كما ترى حضرتك. اقطع تذكرة من تشابيس إلى بيولكو إذاً.

يرد موظف قطع التذاكر وهو يفتح درجاً:

ـ بالطبع. ومن بيولكو إلى... لأنها كما أسلفت ليست سوى محطة تغيير قطارات.

Twitter: @ketab_n

فتش الرجل في حافظة نقوده بحركة سريعة لكنه توقف ويده في الهواء إزاء الكلمات الأخيرة. يستند موظف قطع التذاكر إلى حافة الدرج المفتوح ويعاود الانتظار. يقول الرجل بصوت يتراجع ويشبه يده الممتدة في الهواء بالنقود:

ـ ومن بيولكو أريد تذكرة إلى موراغوا.

ـ لا توجد محطة تسمى موراغوا. ـ يقول الموظف.

ـ كان اسماً شبيهاً. وأنتِ ألا تتذكرين؟

ـ بلى، كان أشبه بذلك. ـ ردت هي.

يقول موظف قطع التذاكر:

ـ يوجد عدد من المحطات التي تبدأ بحرف الميم، أعني التي يذهب إليها من بيولكو. هل تتذكر مدة السفر إليها تقريباً؟

ـ طوال فترة الصباح تقريباً، ست ساعات وربما أقل.

يطالع الموظف خارطة تحت زجاج بطرف الطاولة ويقول:

ـ يمكن أن تكون مالومباه أو ميرثيديس. على هذه المسافة لا أرى إلا هاتين الاثنتين، وربما أموريمبا. أموريمبا بها حرفا ميم، ربما تكون هي.

ـ كلا، ليست واحدة من هذه.

ـ أموريمبا قرية صغيرة لكن ميرثيديس ومالومباه مدينتان. ولا أرى في المنطقة محطات أخرى بأسمائها حرف الميم. لو حضرتك أخذت القطار من بيولكو ينبغي أن يكون إلى واحدة من هذه الثلاث.

Twitter: @ketab_n

ينظر الرجل إلى المرأة وهو يعصر ببطء أوراق النقود في يده التي لم تزل ممدودة والمرأة تقوس شفتيها وتهز منكبيها. تقول:

ـ أنا لا أعلم يا عزيزي. ربما كانت مالومباه، ألا يبدو لك...

ـ مالومباه. تعتقدين إذاً أنها مالومباه.

ـ ليست مسألة ماذا أعتقد. يقول لك السيد إنه لا يُذهب من بيولكو إلا إلى هذه أو إلى ميرثيديس. قد تكون ميرثيديس ولكن...

ـ من بيولكو يجب أن تكون ميرثيديس أو مالومباه. ـ يقول موظف قطع التذاكر.

ـ هأنت ترى. ـ تقول المرأة.

ـ هي ميرثيديس. ـ يقول الرجل ـ مالومباه غير مألوفة لي، بعكس ميرثيديس... أنا ذاهب إلى فندق مونديال، ربما استطعت حضرتك أن تدلني إذا كان في ميرثيديس.

يرد الصبي الجالس على المقعد:

ـ هو هناك. فندق مونديال على مقربة مربعين سكنيين من محطة القطارات.

تنظر المرأة إليه وموظف قطع التذاكر ينتظر هنيهة قبل أن يقرب أنامله من الدرج حيث تصطف التذاكر. انحنى الرجل فوق الطاولة كأنما كي يناوله النقود على نحو أفضل، وفي الوقت نفسه يلتفت إلى الصبي:

ـ شكراً، جزيل الشكر، أيها السيد.

Twitter: @ketab_n

ـ إنها سلسلة فنادق ـ يعلق موظف قطع التذاكر ـ ، معذرة ولكن هنالك فندق مونديال في مالومباه أيضاً، وإذا خضنا في هذا فإن من المؤكد أن أموريمبا بها أيضاً فندق مونديال، على أنني لست متأكداً في هذه الحالة.

ـ إذاً؟

ـ جرب، ففي نهاية الأمر إذا لم تكن ميرثيديس يمكنك دائماً أن تستقل قطاراً إلى مالومباه.

ـ يبدو لي اسم ميرثيديس مألوفاً. لا أدري لِـمَ ولكنه يبدو لي مألوفاً أكثر وأنتِ؟

ـ وأنا أيضاً، خاصة في البداية.

ـ كيف في البداية؟

ـ حين قال لك الصبي ما يخص الفندق. ولكن إذا كان هناك فندق آخر في مالومباه...

ـ إنها ميرثيديس. أنا واثق أنها ميرثيديس.

ـ اقطع التذكرة إذاً. ـ تقول المرأة كأنها تتخلص من الأمر.

ـ من تشابيس إلى بيولكو ومن بيولكو إلى ميرثيديس. ـ يقول الموظف.

الشعر يغطي ملامح المرأة التي تنظر من جديد إلى الرسم الأحمر على الطاولة فلا يستطيع موظف قطع التذاكر رؤية فمها. بيدها ذات الأظافر المطلية تفرك رسغها وئيداً. يرد الرجل بعد لحظة تردد قصيرة:

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، من تشابيس إلى بيولكو ومن هناك إلى ميرثيديس.

يقول موظف قطع التذاكر وهو يختار حافظة تذاكر زرقاء وأخرى خضراء:

ـ ستضطر إلى الإسراع. المسافة من هنا إلى تشابيس تجاوز الستين كيلومتراً ويمر القطار من هناك في التاسعة وخمس دقائق.

يضع الرجل النقود على الطاولة ويشرع موظف قطع التذاكر في إعادة ما تبقى وهو يرقب كيف تفرك المرأة رسغها على مهل. ليس في وسعه التأكد هل تبتسم ولا يهتم لذلك حتى، ولكنه في ذات الوقت ود لو تيقن هل تبتسم خلف كل ذلك الشعر الذهبي الذي يسقط فوق فمها. يقول الصبي:

ـ ليلة أمس هطل المطر غزيراً من ناحية تشابيس. خير لك أن تسرع يا سيدي لأن الطرق ستكون غير واضحة المعالم.

يحفظ الرجل بقية النقود ويضع التذاكر في جيب سترته. بإصبعين تزيح المرأة شعرها إلى الخلف وتنظر إلى موظف قطع التذاكر. شفتاها مضمومتان كأنها تمتص شيئاً. موظف قطع التذاكر يبتسم لها. يقول الرجل:

ـ هيا. ليس لدي فسحة من الوقت.

يجيبه الصبي:

ـ إذا خرجت في الحال فلديك وقت كاف من باب الاحتياط، خذ معك سلاسل للإطارات، قد تحتاج إليها قبل بلوغ تشابيس.

يوافقه الرجل ويرسل بتحية مبهمة بيده إلى ناحية موظف قطع

Twitter: @ketab_n

التذاكر. بعد أن خرج تبدأ المرأة في السير نحو الباب الذي أغلق وحده. يقول موظف قطع التذاكر كأنما يتحدث إلى الصبي:

ـ من المؤسف أن يخطئ في نهاية الأمر، أليس كذلك؟

عند الباب تقريباً تلتفت المرأة وتنظر إليه. لكن الضوء لا يكاد يصل إلى مكانها ومازال من الصعب معرفة إذا كانت تبتسم أو إذا كان الباب لدى إغلاقه قد صفقته هي أم أتها الريح التي تهب دائماً تقريباً مع حلول الليل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

صور زائفة

نحن عائلة غريبة الأطوار. ففي بلدٍ تؤدى فيه الأشياء إما فرضاً أو جعجعة، نحب المشاغل الحرة، المهام لأنها تعني لنا، الصور الزائفة التي لا نفع منها.

يعيبنا أمر: تنقصنا الأصالة. كل ما نقرر فعله مستوحى ـ لنقل صراحة: «منقولاً» ـ من نماذج شهيرة. وإذا أضفنا جديداً يكون دائماً لا مفر منه: المفارقات الزمنية أو المفاجآت، الفضائح. يقول عمي الأكبر إننا مثل نسخة ورق الكربون: مطابقة للأصل فيما عدا أنها ذات لون آخر ومن ورق آخر ولها غاية أخرى. فمثلاً ثالثة أخواتي تقارن نفسها بعندليب أندرسون الآلي، فتبلغ رومنتيكيتها مبلغ الغثيان.

نحن كثيرون ونقطن شارع هومبولدت.

نفعل أشياء، لكن من الصعب حكيها لأن الأهم غائب عنها: التشوق والتوقع المصاحبان لفعل الأشياء، المفاجآت الأهم من النتائج، الفشل الذي تسقط فيه كل العائلة على الأرض كقصر من الرمال فلا

Twitter: @ketab_n

يسمع خلال أيام سوى البكاء أو القهقهة. حكي ما نفعل ليس إلا طريقة لملأ الفراغات التي لا يمكن تجنبها، لأننا أحياناً نكون فقراء أو مسجونين أو مرضى؛ أحياناً يموت أحدنا أو (يؤلمني قول ذلك) يخون أو يستسلم أو يدخل «مصلحة الضرائب» . ولكن لا ينبغي أن نستنتج من ذلك أن أمورنا لا تسير على ما يرام أو أن الكآبة تخيم علينا. نقطن حي باثيفيكو ونصنع أشياء كلما كان ذلك في وسعنا. نحن كثيرون ولدينا أفكار ورغبة فى إنجازها. على سبيل المثال، فكرة سقالة الإعدام، فإلى اليوم لم نتفق على أصل هذه الفكرة، تؤكد خامسة أخواتي أنها فكرة أحد أبناء عمومتنا، فهم أميل إلى الفلسفة، لكن عمي الأكبر يؤكد أنها طرأت أول ما طرأت على باله هو بعد أن قرأ رواية من روايات «العباءة والسيف» . في الواقع، لا يهمنا ذلك في شيء، فالأمر الوحيد المجدي هو عمل أشياء، لذا فأنا أحكيها تقريباً بلا رغبة، وفقط كي لا أشعر بمدى قرب المطر مني في هذا المساء الخاوي.

للبيت حديقة أمامية، أمر نادر ف شارع هومبولدت. ليست أكبر من فناء لكنها أعلى من مستوى الشارع بثلاث درجات سلم، مما ينفحها هيئة متألقة لمنصة: موقع رائع لسقالة إعدام. ولما كان سور المنزل من الحجارة والحديد، يمكننا العمل دون أن يكون المارة ـ بطريقة ما ـ داخل المنزل، يمكنهم الوقوف بالسور والمكوث هناك ساعات، بيد أن هذا لا يضايقنا. أصدر أبي أوامره: «سنبدأ مع اكتمال البدر» . نهاراً، كنا نخرج لنبحث عن الأخشاب والحديد في حظائر طريق خوان ب. خوستو، وتمكث أخواتي فى القاعة ويحاكين عواء الذئاب، بعد أن أكدت عمتي الصغرى أن سقالات الإعدام تجذب الذئاب وتثير عواءها فى ليالى القمر. نهض أبناء عمى بمهمة توفير المسامير والعدد، فيما يضع عمي

Twitter: @ketab_n

الأكبر التصميمات ويناقش أمي وعمي الثاني تنوع أدوات التعذيب وجودتها. أتذكر نتيجة النقاش. في تجهم، اختاروا منصة بالغة الارتفاع تقوم عليها مشنقة وعجلة بمساحة خالية مخصصة للتعذيب أو قطع الرأس، حسب الحالة. بدا هذا الاختيار لعمي الأكبر أكثر تواضعاً وشحاً من الفكرة الأصلية، لكن أبعاد الحديقة الأمامية وتكاليف مواد البناء يحدان دائماً من طموحات العائلة.

شرعنا في البناء مساء يوم أحد، بعد تناول «الرافيولي» . وعلى الرغم من أننا لم يشغلنا قط ما يظنه الجيران، كان واضحاً أن الفضوليين القلائل ظنوا أننا سنرتفع بحجرة أو حجرتين لتوسعة المنزل. أول من فوجئ بذلك كان السيد كريستا، العجوز الذى يسكن أمامنا، فجاء يسألنا لماذا نبني مثل هذه المنصة. اجتمعت أخواتي فى أحد أركان الحديقة وأطلقن بعضاً من عواء الذئب. تزاحم عدد كبير من الناس بيد أننا واصلنا عملنا حتى الليل وانتهينا من بناء المنصة والسلمين (أحدهما للكاهن والآخر للمحكوم عليه، فلا يجب أن يصعدا من نفس السلم).

يوم الاثنين توجه جزء من العائلة إلى عمله ومشاغله، إذ إننا من شيء يجب أن نموت؛ أما الآخرون فقد بدأنا نقيم المشنقة فيما يراجع عمي الأكبر التصميمات القديمة لإقامة العجلة. تلخصت فكرته في وضع العجلة في أقصى ارتفاع ممكن فوق قائم خشبي غير مستو على نحو طفيف، وليكن، على سبيل المثال، فرعاً مشذباً من خشب الحور. لإرضائه ذهب ثاني إخوتي وأولاد عمي في الشاحنة الصغيرة يبحثون عن شجرة حور وفى أثناء ذلك راح عمي الأكبر وأمي يثبتان القوائم فى قبِ العجلة وأنا كنت أعد الحلقة الحديدية. في مثل تلك اللحظات كنا نستشعر متعة عظمى لأن الطرق كان يسمع في كل مكان وأخواتي

Twitter: @ketab_n

يعوين في القاعة والجيران يتزاحمون عند السور ويتبادلون الانطباعات، وبين لوني الغروب الكبريتي والخبازي ترتفع صورة المشنقة، ويرى عمي الأصغر يمتطي العارضة لتثبيت الخطاف وإعداد العقدة المتحركة.

عند ذلك الحد لم يكن بوسع أحد ألا يلتفت إلى ما كنا نفعله، وشجعنا كورس من الاحتجاجات والتهديدات، في بهجة، على إنهاء يوم العمل بإقامة العجلة. حاول بعض المتهورين منع ثاني إخوتي وأبناء عمي من إدخال جذع شجرة الحور الرائع الذي أحضروه في الشاحنة الصغيرة إلى البيت. نجحت الأسرة بأكملها تماماً في محاولة إدخاله بعد ربطه بأربطة، وبجر الجذع بنظام فدخل الحديقة ومعه طفل صغير السن معلقاً بجذوره. قام أبي بإعادة الطفل بنفسه إلى أبويه المغتاظين إذ أَمَرَه على نحو مهذب عبر السور الحديدى، وفيما يتركز الاهتمام في هذه البدائل العاطفية كان عمي الأكبر، بمعاونة أبناء عمومتي، يثبت العجلة في أحد طرفى الجذع ويشرع في إقامته. وصلت الشرطة في لحظة كانت فيها العائلة، المجتمعة على المنصة، تشيد بطيب مظهر سقالة الإعدام. ثالثة أخواتي وحدها كانت تقف إلى جانب الباب وهي التي تحدثت إلى نائب المأمور شخصياً؛ لم يكن صعباً عليها إقناعه بأننا نعمل داخل أملاكنا في بناء شيء لن يكون غير دستوري إلا في حالة استخدامه، وأن أقاويل الجيران هي من بنات البغض وثمرة الحسد. أنقذنا حلول الليل من ضياع آخر للوقت.

على ضوء مصباح غاز تناولنا العشاء فوق المنصة تحت رقابة نحو المئة من الجيران الحقودين؛ لم يعن لنا لحم الخنزير المقدد من قبل لذيذاً إلى هذا الحد؛ ولا أكثر سواداً وحلاوة. نسمة شمالية حركت حبل المشنقة على نحو طفيف، ومرة أو مرتين سمع صرير العجلة، كأنها الغربان

Twitter: @ketab_n

حطت هناك للأكل. بدأ الفضوليون الرحيل يلوكون تهديدات مبهمة؛ وبقي متشبثاً بالسور نحو عشرين أو ثلاثين بدا أنهم ينتظرون شيئاً. بعد تناول القهوة أطفأنا المصباح لنرى القمر الذي كان يرتقي سياج الشرفة. عوت أخواتي وذرع أعمامي وأبناء عمومتي المنصة فى بطء محركين أساسها بخطاهم. فى الصمت الذي تلا ذلك، توقف قرص القمر على ارتفاع العقدة المتحركة ولاح سحابة فضية الأطراف تمددت فوق العجلة؛ نظرنا إليهما في بالغ السعادة حتى إن منظرنا كان بهيجاً، لكن الجيران جعلوا يهمهمون عند السور وكأنهم على حافة الخذلان. أشعلوا سجائرهم وأخذوا يتفرقون، بعضهم يرتدى بيجامة والبعض الآخر يجر قدميه. وبقى الشارع وصافرة حارس بعيدة والحافلة رقم 108 التي تمر كل فترة؛ ونحن كنا ذهبنا إلى النوم ونحلم بأعياد وأفيال وثياب من الحرير.

2

هيئة البريد والبرق ...

ذات مرة بلغ شخص يمت لنا بصلة قرابة بعيدة منصب وزير فتدبرنا الأمر كي يعين عدداً كبيراً من الأسرة في فرع هيئة البريد بشارع سيرّانو. لم نستمر طويلاً، هذه هي الحقيقة. فمن بين الأيام الثلاثة التي دام فيها عملنا قضينا يومين نلبي طلبات الجمهور في سرعة فائقة أسفرت عن زيارة مندهشة لمفتش من البريد المركزي وإفادة مادحة في صحيفة لاراثون. في اليوم الثالث كنا على يقين من شعبيتنا لأن الناس كانوا يحضرون إلينا من أحياء أخرى لإرسال رسائلهم وعمل

Twitter: @ketab_n

حوالات إلى بورماماركا وأماكن أخرى مماثلة فى سُخفها. حينئذ أعطانا عمي الأكبر مطلق الحرية وبدأت العائلة تؤدي عملها وفق مبادئ كل وميوله. في شباك الطوابع والرسوم أهدت ثانية أخواتي كل مشتر بالونةً ملونة. وأول من تلقى بالونة كانت سيدة بدينة تسمرت فى مكانها من المفاجأة وفي إحدى يديها بالونة وفى إصبع يدها الأخرى طابع من فئة البيزو مبللاً وآخذاً فى التقوس. رفض شاب بشعر مسترسل تماماً أن يتلقى بالونته فعنفته أختي بشدة فيما ثارت فى الطابور آراء متقابلة. إلى جوارها، تلقى عدد من سكان الأقاليم المصرين على إرسال جزء من رواتبهم إلى أقاربهم البعيدين، تلقوا بنحو من الدهشة أكواباً من شراب العرق وأحياناً فطيرة محشوة باللحم، كل هذا من جانب أبي الذى راح كذلك يتلو عليهم صارخاً أفضل نصائح بيثكاتشا العجوز. فيما قام أخوتي بقسم الطرود البريدية بطلاء الطرود بالقار ثم وضعها فى دلو به رياش. فيما بعد كانوا يقدمونها لمرسل الطرد المذهول محاولين لفت نظره إلى مدى البهجة التى ستستقبل بها الطرود بعد تحسينها على ذلك النحو. كانوا يقولون له: «دون أن تظهر الدوبارة، دون الشمع المبتذل، وباسم المرسل إليه كأنما حفظ تحت جناح بجعة، انظر إليه» . لم يبد كل العملاء سرورهم، إذا توخينا الأمانة.

عندما غزا الفضوليون والشرطة مكتب البريد، اختتمت أمي الحدث بأجمل طريقة: طيرت فوق الجمهور عدداً كبيراً من السهام الملونة المصنوعة من استمارات التلغراف والحوالات والخطابات المسجلة. أنشدنا السلام الوطني وانسحبنا فى نظام رائع. رأيت طفلة تبكي لأنها كانت الثالثة فى طابور شباك الطوابع والرسوم وتدرك انها جاءت متأخرة كي يعطوها بالونة.

Twitter: @ketab_n

3

سلوك في المآتم

لا نذهب من أجل شراب الأنيسون، ولا لأننا مضطرون إلى ذلك. لابد أنكم خمنتم السبب: نذهب لأننا لا نتحمل صور الرياء المبالغ فيها. تضطلع ابنة عمي الكبرى بمهمة التأكد من طبيعة الحزن، فإذا كان حقيقياً، إذا كانوا يبكون لأن البكاء هو الشيء الوحيد الذى بقي لهؤلاء الرجال والنساء بين أريج الفل ورائحة القهوة، حينئذ نمكث فى المنزل ونشاطرهم الأحزان من بعيد. فى أحسن الأحوال تذهب أمي وهلة وتسلم عليهم باسم العائلة؛ فنحن لا نحب أن نحشر حياتنا الغريبة عن ذلك الحوار مع الظلمة. ولكن إذا أطل من بحث ابنة عمى المتأني ريب من أنه، فى الفناء المغطى أو فى القاعة، نهض الخداع على قوائمه، حينئذ ترتدي عائلتى أفضل ثيابها وتنتظر حتى يكون المأتم على أهبة الاستعداد ثم تتقدم رويداً لكن بغير رحمة.

فى حي باثيفيكو، تحدث الأمور عادة فى فناء به أصص للزهور وموسيقى الراديو. فى مثل هذه المناسبات يغلق الجيران أجهزة الراديو ويبقى فقط الياسمين والأقارب يتبادلون استنادهم إلى الحوائط. ثم نصل نحن واحداً فواحداً أو مثنى، نسلم على أقارب الميت، الذين من السهل تعرفهم لأنهم يجهشون بالبكاء ما إن يروا أحداً يدخل، ثم نذهب وننحني أمام المتوفى فى حماية أحد أقاربه المقربين. بعد ذلك بساعة او بساعتين تكون كل عائلتنا حاضرة فى قاعة المأتم، ولكن على الرغم من أن الجيران يعرفوننا جيداً نتصرف كأن كل واحد منا أتى بمفرده فلا نكاد نتحدث فيما بيننا. منهج دقيق ينظم أفعالنا، يختار المحاورين الذين سنتحدث إليهم فى المطبخ أو تحت شجرة البرتقال أو فى غرفة

Twitter: @ketab_n

النوم أو فى الدهليز؛ ومن حين إلى حين نخرج إلى الفناء أو إلى الشارع لندخن، أو نقوم بجولة حول المربع السكني لتبادل الآراء فى السياسة والرياضة، لا نحتاج إلى وقت طويل لسبر غور مشاعر أقرب الأقارب، فأكواب الجعة وشراب الماتى الحلو و«التفاصيل» الطفيفة هي الجسر السري؛ وقبل منتصف الليل نكون تأكدنا ويمكننا التحرك بلا ندم. فى العادة، تقوم أختي الصغرى بالمناوشة الأولى؛ فى مهارة، تتخذ مكاناً لها عند قدمي التابوت وتغطي عينيها بمنديل بنفسجي وتشرع فى البكاء، فى صمت أولاً، وتبلل منديلها إلى حد تضطر الجارات إلى حملها إلى الفراش المعد لمثل هذه الحالات الطارئة، وجعلها تستنشق كولونيا زهر البرتقال وتعزيتها فيما تهتم جارات أخريات بأقارب المتوفى الذين أصابتهم بغتة عدوى النوبة. وفى لحظة يتكدس الناس على باب حجرة المتوفى، ثم أسئلة وأنباء فى صوت خفيض وهز أكتاف من جانب الجيران. بعد أن يستنفد قواهم مجهود اضطروا إلى بذله حتى النهاية يقلل أقارب الميت من مظاهر حزنهم؛ فى هذه اللحظة نفسها تشرع بنات عمي الثلاث فى البكاء بلا تكلف، بلا صراخ، لكن ببالغ التأثر حتى إن الأقارب والجيران يشعرون بالغيرة ويعون أنهم ليس من المعقول أن يظلوا هكذا يستريحون فيما يشعر بهذا القدر من الحزن غرباء من الشارع الآخر فينضموا من جديد إلى حالة البكاء العام؛ ومرة أخرى، ينبغي إيجاد مكان على الأسرَّة، التهوية على سيدات عجائز، فك حزام مسنين متشنجين. اعتَدت أنا وإخوتي انتظار هذه اللحظة لدخول القاعة الجنائزية واتخاذ أماكننا إلى جانب التابوت. ومهما بدا ذلك غريباً نشعر بالحزن حقاً، فنحن لم نستطع قط سماع بكاء أخواتنا دون أن يملأ صدورنا كرب لا نهائي ويذكرنا بأشياء من الطفولة، حقول قرب فيا

Twitter: @ketab_n

ألبرتينا، ترام يصدر صريراً عند منحنى بشارع الجنرال رودريغيث، فى بانفيلد، أشياء كهذه، حزينة دائماً. وتكفينا رؤية يدي المتوفى المتقاطعتين لكي يهيمن علينا البكاء فجأة ويضطرنا إلى تغطية وجوهنا فى خجل، وها نحن خمسة رجال يبكون بحق فى مأتم فيما يستجمع أقارب الميت أنفاسهم ليساوونا فى البكاء وهم يشعرون بأنهم مهما كلفهم الأمر عليهم ان يثبتوا أن المأتم مأتمهم، وأنهم وحدهم لديهم حق البكاء هكذا فى هذا البيت. لكنهم قليلون ويكذبون (نعلم ذلك من ابنة عمي الكبرى وهو ما يمنحنا قوة)؛ يراكمون سدى فواقهم وإغماءاتهم؛ وعبثاً يساندهم أشد جيرانهم تضامناً معهم، بعزائهم وأفكارهم، يحملونهم ثم يعيدونهم كي يستريحوا ويستأنفوا المعركة. والآن يحل محلنا أبواي وعمي الأكبر، فهناك ما يفرض الاحترام فى حزن هؤلاء العجائز الذين قدموا من شارع هومبولدت، من مسافة خمسة شوارع بحساب أول ناصية، ليسهروا على جثة المتوفى. يبدأ أرشد الجيران في التراجع، يتركون أقارب المتوفي يسقطون، ويذهبون إلى المطبخ لاحتساء شراب العرق ولتبادل الحديث؛ ويغط بعض أقارب المتوفى فى النوم محشرجين بعد أن هدتهم ساعة ونصف الساعة من البكاء المتواصل. ونحن نتناوب فى نظام ولكن دون أن نخلف أي انطباع بأن هنالك شيئاً معداً سلفاً؛ وقبل السادسة صباحاً، نكون نحن سادة المأتم بلا منازع، فأغلب الجيران ذهب لينام فى منزله، وأقارب المتوفى يرقدون فى أوضاع مختلفة ودرجات شتى من التورم. يولد الفجر فى الفناء. فى هذه الساعة تنظم عماتي فى المطبخ مشروبات مجددة للطاقة؛ نشرب قهوة ساخنة وينظر بعضنا إلى بعض فى تألق عندما نلتقي فى الدهليز أو غرف النوم، وعلى نحو ما نشبه النمل جيئة وذهاباً وحين تتلامس قرون استشعارها. حين تصل عربة الموتى

Twitter: @ketab_n

تكون التعليمات قد صدرت: تصحب أخواتي أقارب المتوفى كى يودعوه قبل إغلاق التابوت، يصحبنهم ويرحنهم فيما يتقدم بنات عمي وإخوتي ليزيحوهم ويقصروا مدة الوداع الأخير إلى أن يصبحوا وحدهم إلى جانب المتوفى. مرهقين، تائهين، واعين على نحو مبهم ما يحدث بيد أنهم عاجزون عن المقاومة، يسلم أقاربه أمرهم للآخرين ويحتسون أي شيء يدنا به إلى شفاههم ويردون باحتجاج مبهم وواهٍ على مظاهر رعاية بنات عمي وأخواتي الحانية لهم. وحين تحين ساعة الرحيل والبيت مزدحم بالأقارب والأصدقاء، هنالك تنظيم خفى لكن بلا ثغرات يحكم كل حركة: فمدير الوكالة الجنائزية يتبع أوامر أبي، ويجري انتقال التابوت بتوجيهات من عمي الأكبر. فى بعض مرة قد يبادر أقارب الميت الذين قدموا فى اللحظات الأخيرة باحتجاج بعيد عن الاعتدال؛ فينظر إليهم الجيران، المقتنعون بأن كل شيء يسير كما يجب، ينظرون إليهم فى سخط ويجبرونهم على التزام الصمت. فى عربة نقل الموتى يتخذ أبواي وأعمامي أماكنهم ويصعد إخوتي إلى السيارة الثانية، وتسمح بنات عمي لأحد أقارب المتوفى بالصعود إلى الثالثة التى يحتللنها وقد تغطين بمناديل كبيرة سوداء وبنفسجية. بقية الناس تركب فى أي مكان وهنالك من الأقارب من يضطر إلى إيقاف سيارة أجرة. وإذا حاول بعضهم، بعد أن أنعشه هواء الصبح والطريق الطويل، استرداد وضعه لدى الوصول إلى الجبانة فيا لمرارة خيبة المسعى! فبمجرد وصول النعش إلى الرواق يحيط إخوتى بالواعظ الذي أحضرته أسرة المتوفى أو أصدقاؤه والذي من السهل تعرفه من وجهه المرتسم عليه الحزن وبكرة المناديل التى تبرز من جيب سترته. يصافحونه ويبللون صدر سترته بدموعهم ويربتون عليه بنعومة تشبه حفيف النشا فلا يتمكن الواعظ من منع عمي الأصغر

Twitter: @ketab_n

من اعتلاء المنصة وافتتاح الكلمات بموعظة هي دائماً نموذج للحقيقة والرصانة. يستغرق ثلاث دقائق، ويشير فقط إلى المتوفى، يوجز محاسنه ويعد مساوئه، دون أن ينال من إنسانيته أي شيء مما يقول؛ يغلبه تأثر عميق وأحياناً يصعب عليه إنهاء كلمته. ما إن ينزل يحتل أخي الكبير المنصة ويضطلع بتأبين الميت باسم الجيران فيما يحاول الجار المكلف بهذه المهمة أن يشق طريقه بين بنات عمي وأخواتي اللاتي يبكين وهن يتعلقن بصداره. إيماءة بشوش وصارمة يومئ بها أبى تعبيء فريق العمل بالوكالة الجنائزية؛ وفى عذوبة يبدأ النعش فى التحرك فيما يقف المتحدثون الرسميون أسفل المنصة ينظر بعضهم إلى بعض وهم يعتصرون كلماتهم بأيديهم الرطبة. عادة، لا نكلف أنفسنا مشقة مصاحبة الميت إلى القبة أو القبر، بل ندور نصف دورة ونخرج جميعاً معاً ونحن نتذكر تفاصيل المأتم. من بعيد، نلمح كيف يركض أقارب الميت فى يأس لكي يتمكنوا من الإمساك بأحد أحبال إنزال التابوت القبر فيتعاركون مع الجيران الذين يمسكون بها بالفعل ويفضلون هم حملها على أن يحملها أقاربه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رسالة إلى آنسة في باريس

أندريه، ما كنت أود أن أحضر لأقيم في شقتك بشارع سويباتشا. ليس بسبب الأرانب، بل لأن من المؤلم الدخول في منظومة مغلقة شُيدت حتى في أدق شبكات الهواء، تلك التي تحفظ في منزلك موسيقى اللافندر، تحليق بجعة مغبرة، حوار الكمان والفيولا في رباعية رارا. أشعر بالمرارة حين أدخل نطاقاً يكون من يعيش فيه على نحو جميل قد أعد كل شيء ليكون تكراراً مرئياً لنفسه: هنا الكتب (باللغة الإسبانية في جانب، وعلى الجانب الآخر بالفرنسية أو الإنجليزية)، وهناك الوسائد الخضراء، وفي هذا المكان المحدد من المنضدة، منفضة السجائر الزجاجية التي تبدو نصف فقاعة صابون؛ ودائماً عبق، صوت، نمو نباتات، طقوس من صينيات الشاي وممسكة قطع السكر... آهٍ ياأندريه العزيزة، ماأشق المقاومة، حتى لو قُبلت بانصياع تام من جانب المرء نفسه، مقاومة النظام الدقيق الذي تقيمه امرأة في منزلها الرقيق! ماأشد الشعور بالجرم لدى رفع فنجان معدني ووضعه على الطرف الآخر من المنضدة، وضعه هناك لمجرد أن المرء أحضر معه معاجمه الإنجليزية ويجب أن يضعها على هذا الجانب نفسه لتكون في متناول اليد. تحريك هذا الفنجان يساوي لوناً أحمر فظيعاً وغير متوقع وسط تكوين لـ«أوزينفانت» ، يساوي أن تتقطع فجأة أوتار كل آلات الكونترباص في آن واحد وبنفس الصرير

Twitter: @ketab_n

المروع في أشد اللحظات صمتاً في سيمفونية لموتسارت. تحريك ذلك الفنجان يكسر لعبة العلاقات في كل المنزل، علاقة كل شيء بالآخر، علاقة كل لحظة من نفسه بالنفس الكاملة لكل المنزل وصاحبته البعيدة. وأنا لا أستطيع أن أقرب أناملي من كتاب، أن ألمس بالكاد مخروط ضوء مصباح، أن أفتح صندوق الموسيقى، دون أن يمر أمام ناظري كسرب من العصافير شعورٌ بالاغتصاب أو بالتحدي.

تعلمين لـمَ جئت إلى منزلك، إلى قاعتك الوادعة المحببة ساعة الظهيرة. يبدو كل شيء طبيعياً كما يحدث دائماً حين لا تعرف الحقيقة. أنتِ رحلت إلى باريس وأنا أقمت في منزلك بشارع سوبياتشا، أعددنا خطة بسيطة ومُرضية للتعايش إلى أن يعود بك سبتمبر إلى بوينس أيرس وتطلقينني إلى منزل آخر حيث ربما... ولكنني لاأكتب إليك في هذا الشأن، فهذا الخطاب أرسله لك بسبب الأرانب، فمن العدل أن أعلمك بالأمر، ولأنني أيضاً أحب كتابة الرسائل أو ربما لأن السماء تمطر.

انتقلت الخميس الماضي، في الخامسة مساءً، وسط الضباب والضجر. أغلقت في حياتي عدداً فائق الحصر من الحقائب وأمضيت عدداً آخر من الساعات أعد أمتعة لا تذهب إلى أي مكان لذا كان الخميس يوماً مترعاً بالظلال والأربطة، لأنني حين أرى أربطة الحقائب فكأنما أرى ظلالاً، عناصر سوط يلهبني على نحو غير مباشر، على نحو غاية في الرهافة والفظاعة. لكني أعددت حقائبي وأبلغت مدبرة المنزل بأنني آتٍ للإقامة وارتقيتُ المصعد. بين الطابق الأول والثاني تحديداً شعرت بأنني سأتقيأ أرنباً. لم أشرح لكِ ذلك قط، لاتظني أنني لم أفعل من باب عدم الثقة، لكن المرء بالطبع لن يروح يفسر للناس أنه بين حين وحين يتقيأ أرنباً. ولما كان ذلك يحدث لي دائماً عندما أكون وحدي فإنني

Twitter: @ketab_n

احتفظت بالحدث كما يُحتفظ بقدر كبير من البراهين على مايحدث (أو ما يتسبب المرء في حدوثه)، في سرية تامة. لاتلوميني ياأندريه، لاتلوميني. من حين إلى حين يحدث أن أتقيأ أرنباً، وليس هذا مبرراً كي يشعر المرء بالخجل أو بالعزلة أو يجعله يمتنع عن الكلام.

عندما أشعر بأنني سأتقيأ أرنباً، أضع إصبعين في فمي كملقط مفتوح وأنتظر حتى أحس في حلقي بالزغب الدافيء الذي يتصاعد كالملح الفوار. كل شيء سريع ونظيف، ويستغرق لحظة شديدة القصر. أخرج الإصبعين من فمي وأمسك بهما أرنباً أبيض من أذنيه. ويبدو الأرنب سعيداً، وهو أرنب طبيعي ومكتمل إلا أنه صغير جداً، صغير كأرنب من الشكولاتة، لكنه أبيض وأرنب بالتمام والكمال. أضعه في راحة يدي وأرفع زغبه بلمسة من يدي، ويبدو الأرنب راضياً بمولده ويتحرك ويلصق مخطمه بجلدي ويحركه في ذلك الضرب من المضغ الصامت والمثير للدغدغة لمخطم أرنب ببشرة اليد. يبحث عن طعام وحينئذٍ (أشير إلى حين كان ذلك يحدث في منزلي بالضواحي) أخرجه معي إلى الشرفة وأضعه في الإصيص الكبير حيث ينمو البرسيم الذي زرعته لهذا الغرض. يرفع الأرنب أذنيه بالكامل ويلف عود البرسيم بحركة دائرية سريعة بمخطمه فأدرك أن بوسعي أن أتركه وأذهب وأواصل لفترةٍ حياةً لاتختلف عن حياة العديد ممن يشترون أرانبهم من المزرعة.

بين الطابق الأول والثاني ياأندريه، وكنذير لما ستكون عليه حياتي في منزلك، أدركت أنني سوف أتقيأ أرنباً. وفي الحال داهمني رعب (أم كانت دهشة؟ كلا، ربما كان رعباً من الدهشة) لأنني قبل أن أترك منزلي، قبل ذلك بيومين فقط، كنت تقيأت أرنباً وكنت متيقناً من أنني لمدة شهر، خمسة أسابيع، ستة بقليل من الحظ... ولك أن تتخيلي، كنت

Twitter: @ketab_n

توصلت إلى حل ناجع لمشكلة الأرانب. كنت أزرع البرسيم في شرفة منزلي الآخر، أتقياً أرنباً وأضعه في البرسيم ؛ وبعد شهر، عندما كنت أتوقع أنني بين لحظة وأخرى قد... ساعتئذٍ كنت أهدي الأرنب بعد أن ينمو إلى السيدة مولينا التي كانت تحسبها هواية ولاتتكلم. وفي الإصيص الآخر ينمو برسيم ناعم وملائم، وكنت أنتظر بلا قلق الغد الذي تسد فيه حلقي دغدغة زغب يتصاعد ويكرر الأرنب الجديد حياة سلفه. إن العادات يا أندريه أشكال محددة من الإيقاع، جزء من الإيقاع يساعدنا على الحياة. لم يكن في غاية الفظاعة تقيؤ أرانب بعد الدخول في دائرة لاتتغير، بعد الدخول في المنهج. وقد تتساءلين لـمَ كل هذه المشقة، لـمَ كل هذا البرسيم والسيدة مولينا، أوليس من الأفضل قتل الأرانب في الحال و... لكن، قد يلزمك أن تتقيأي واحداً فقط وتأخذيه بأصبعيك وتضعيه في راحة يدك المبسوطة فيلتصق بها من جراء الفعل نفسه، بسبب نفحة من التقارب الفائق الوصف التي لم تكد تنكسر. شهر واحد كافٍ للتنائي، شهر واحد يعني حجماً، شعراً طويلاً، قفزات، عينين وحشيتين، اختلافاً مطلقاً. وشهر واحد يا أندريه يعني أرنباً، يصنع أرنباً حقيقياً ؛ أما الدقيقة الأولى، حين تغطي ندفة الثلج الدافئة وجوداً غير قابل للتصرف... فهي مثل قصيدة في دقائقها الأولى، ثمرة ليلة أدومية: أقرب إلى المرء من نفسه... بعد ذلك، أبعد عن المرء، أكثر عزلة وتنائياً في عالمه المنبسط في حجم رسالة.

رغم كل شيء قررت قتل الأرنب بمجرد أن يولد. فأنا كنت سأقطن منزلك لمدة أربعة أشهر: أربع ملاعق كحولاً، أو ثلاث بشيء من الحظ، في فمه.(أتعلمين أن الرحمة تجعل القتل لحظياً إذا ناولت أرنباً ملعقة من

Twitter: @ketab_n

الكحول؟ بعد ذلك، يقولون إن طعم لحمه يكون ألذ، على أني... ثلاث أو أربع ملاعق من الكحول، ثم الحمّام أو لفافة صغيرة في القمامة.)

عند ارتقاء الطابق الثالث كان الأرنب يتحرك في راحة يدي المنبسطة. كانت سارة تنتظر أعلى كي تعاونني في إدخال حقائبي... كيف أفسر لها أنها إحدى نزواتي ؟ أنني اشتريته في محل للحيوانات ؟ لففت الأرنب في منديلي ووضعته في جيب معطفي وتركته مفتوحاً كي لايضغطه. لم يكن يتحرك. ربما كان وعيه الصغير يكشف له عن حقائق هامة: أن العالم حركة إلى أعلى تنتهي بصوت «كليك» وأنه أيضاً سقف منخفض، أبيض، يحيط بالمرء وله شذى اللافندر في نهاية بئر دافئة.

سارة لم ترَ شيئاً، كانت تفتنها بما فيه الكفاية مسألة مواءمة مفهومها للنظام مع حقيبة ملابسي وأوراقي وموافقتي لكل شروحها التي تكتظ بعبارة «على سبيل المثال» . ما إن استطعت حبست نفسي في الحمّام. سأقتله الآن. منطقة دفء رقيقة كانت تحيط بالمنديل، وكان الأرنب ناصع البياض وأعتقد أنه كان أجمل من الأخرى. لم يكن ينظر إليّ، كان يتحرك فقط وكان مبتهجاً، وهو ماكان أفظع طريقة للنظر إليّ. حبسته في صيدلية الحمّام وعدت لفتح الحقائب، تائهاً ولكن غير تعيس، دون أن أضطر لغسل يدي بالصابون لأزيل عنهما رعشة أخيرة.

أدركت أنني لا أستطيع قتله. لكن، في نفس تلك الليلة تقيأت أرنباً أسود، وبعد ذلك بيومين أرنباً أبيض، وفي الليلة الرابعة أرنباً رمادياً.

يقيني أنك تحبين صوانك الجميل الذي في حجرة نومك، بصفحته الكبيرة التي تفتح عن آخرها ورفوفه الخاوية تنتظر ملابسي. الآن أخبيء الأرانب هناك. في داخله. أليس يبدو ذلك مستحيلاً حقيقةً ؟، حتى سارة لن تصدق. لأن سارة لا ترتاب في شيء، ومسألة أنها

Twitter: @ketab_n

لاترتاب في شيء ترجع إلى مهمتي الشاقة، مهمة تقضي على أيامي ولياليّ كصفقة باب وتحرقني في داخلي وتزيدني قسوة مثل نجمة البحر تلك التي وضعتها أنتِ فوق البانيو والتي ـ كلما استحممت ـ يبدو أنها تملأ جسد المرء بالملح وبضربات الشمس وبوشيش الأعماق الصاخب.

تنام نهاراً. ثمة عشرة. تنام بالنهار. عندما تغلق صفحته يغدو الصوان ليلة نهارية لها فقط، هناك تنام ليلها في طاعة وادعة. وحين أذهب إلى العمل أحمل معي مفاتيح حجرة النوم، ويقيني أن سارة تظن أنني أرتاب في أمانتها وتنظر إليّ متشككة وترينها كل صباح على وشك أن تقول لي شيئاً لكنها، في النهاية، تلزم الصمت وأنا، مطمئن البال. (حين ترتب حجرة النوم، بين الثامنة والتاسعة، أحدث جلبة في الصالون، أضع أسطوانة لبيني كارتر تحتل كل الجو، ولما كانت سارة هي أيضاً من هواة الموسيقى الإسبانية الصاخبة يلوح الصوان ساكناً وقد يكون كذلك بالفعل لأنه بمثابة فترة الليل والرقاد لدى الأرانب.)

يبدأ نهارها في الساعة التي تعقب العشاء، حين ترفع سارة الصينية ويصدر ذلك الرنين الخافت لمسكة السكر وتتمنى لي ليلة سعيدة ـ أجل، سارة تتمنى لي ذلك يا أندريه، من أمرّ الأشياء أن تتمنى لي ليلة سعيدة ـ وتغلق عليها باب حجرتها وأمسي فجأة وحيداً، وحيداً مع واجبي وتعاستي.

أطلقها، أتركها تندفع رشيقة في هجوم على الصالون، تتشمم في حمية البرسيم الذي كنت أخفيه في جيبي ويصنع الآن على البساط طرزاً تغيرها الأرانب وتحركها وتأتي عليها في الحال. فهي تأكل جيداً، صامتة ومهذبة ؛ حتى هذه اللحظة ليس لدي ما أشكو منه، وأكتفي بالنظر إليها من الأريكة وفي يدي كتاب لاجدوى منه ـ أنا الذي كنت أتوق

Twitter: @ketab_n

إلى الانتهاء من مجموعة كتب جيرودو يا أندريه و«تاريخ الأرجنتين» للوبث الذي تضعينه في الرف القريب من الأرض ـ ، وهي تأكل البرسيم.

هي الآن عشرة. جميعها أبيض اللون تقريباً. ترفع رؤوسها الدافئة صوب مصابيح القاعة، ثلاث الشموس الثابتة في نهار الأرانب التي تحب الضوء لأن ليلها بلا قمر أو نجوم أو مصابيح. تنظر إلى شمسها الثلاثية في سعادة. وفي سعادة أيضاً تقفز فوق البساط وفوق المقاعد، عشر بقع رقيقة تتحرك مثل مجموعة نجوم سارية، من مكان إلى آخر، فيما وددت أن أراها ساكنة، أن أراها عند قدمي وساكنة ـ شيء من حلم أي رب يا أندريه، حلم الآلهة الذي لم يتحقق قط ، وليس كما تطل من وراء صورة ميجل دي أونامونو أو حول القارورة الخضراء الزاهية أو من فتحة بالمكتب. ودائماً أقل من عشرة، دائماً ستة أو ثمانية فيما أحار أين ذهب الأرنبان الناقصان ؟ وإذا نهضت سارة لأي سبب ؟ وفترة رئاسة ريبادابيا التي كنت أرغب في قراءتها في «تاريخ...» لوبث ؟

لا أدري كيف أحتمل يا أندريه. تذكرين أنني جئت منزلك ألتمس الراحة. فلا ذنب لي إذا كنت من حين إلى حين أتقيأ أرنباً، لاذنب لي إذا كان هذا الانتقال قد أهاجني في داخلي ـ ليس اسماً فقط، ليس سحراً، بل لأن الأشياء لايمكن أن تتبدل بهذا الشكل المباغت؛ وأحياناً، قد تتبدل على نحو وحشي، عندما تنتظرين اللطمة على الخد الآخر ـ . قد تحدث الأمور على هذا النحو يا أندريه، أو على نحو آخر، بيد أنها تحدث.

أكتب إليك ليلاً. الساعة الآن الثالثة بعد الظهر بيد أنني أكتب إليك في ليلها هي. فهي تنام نهاراً. ما أيسر هذه المصلحة ومايغطيها من صراخ وأوامر وآلات «رويال» ونواب الرئيس وآلات النسخ ! أية

Twitter: @ketab_n

راحة، أي سلام، أية فظاعة يا أندريه ! الآن ثمة من يخابرني بالهاتف، إنهم أصدقائي، يشعرون بالقلق من جراء ليالي عزلتي، إنه لويس يدعوني إلى نزهة، أو خورخي يحتفظ لي بحفل موسيقي. لا أكاد أجرؤ على الرفض، أخترع حكايات مطولة وغير مقنعة عن اعتلال صحتي، عن ترجمات متأخرة، عن تسلية. وعندما أعود وأرتقي المصعد ـ تلك المسافة بين الطابقين الأول والثاني ـ ، بلا حيلة، أتشبث ليلة وراء ليلة برجاء ألا يكون كل ذلك حقيقياً.

أبذل ما في وسعي كي لا تحطم أشياءك. فلقد قرضت قليلاً كتب الرف الأسفل، وسوف تجدينها متوارية حتى لاتلفت انتباه سارة. أتحبين مصباحك الخزفي ذا الفراشات والفرسان القدامى ؟ القطع المكسورة لا تكاد تُرى، فطوال الليل استخدمت أسمنتاً خاصاً ابتعته من متجر إنجليزي ـ تعلمين أن المتاجر الإنجليزية لديها أفضل أسمنت ـ والآن أمكث إلى جانبه حتى لايصل إليه أي منها مرة أخرى بقدميه (ما أجمل ملاحظة كيف تحب الأرانب الوقوف، حنيناً إلى ما هو بشري بعيد وربما محاكاةً لرب سائر ينظر إليها متجهماً، فضلاً عن أنكِ ربما رأيت في طفولتك كيف يمكن ترك أرنب معاقباً ووجهه إلى الحائط، واقفاً على قدميه الخلفيتيـــن فيما تستند الأماميتان إليها ساعات وساعات بلا حركة).

في الخامسة صباحاً (لقد غفوت قليلاً، مُلقى على الأريكة الخضراء، أصحو على كل ركضة مكتومة، على كل رنين) أضعها في الصوان وأقوم على النظافة. لذا تجد سارة كل شيء في موضعه على الرغم من أنني، أحياناً، لاحظت عليها دهشة مكبوتة، نظرة متفحصة لشيء ما، بقعة حائلة على البساط، ومن جديد الرغبة في سؤالي شيئاً فيما أصفّر

Twitter: @ketab_n

تنويعات سيمفونية لفرانك، أي: لاتحاولي. فيم أحكي لك يا أندريه عن التفاصيل الكدرة كل فجر مكتوم ونباتي، أهيم فيه شبه نائم ألتقط عيدان البرسيم والأوراق المبعثرة أو الزغب الأبيض وأصطدم بالأثاث أكاد أجن من رغبتي في النوم، وكتب جيد المتأخرة، وترويات الذي لم أترجمه، وردي على سيدة بعيدة قد تتساءل إن كنت انتهيت من... لماذا أستمر في كل هذا ؟ لماذا أواصل كتابة هذه الرسالة بين المكالمات والاجتماعات ؟

أندريه، أندريه العزيزة، عزائي أنها عشرة، عشرة فقط وإلى الأبد. منذ خمسة عشر يوماً احتويت في راحة يدي أرنباً أخيراً، بعد ذلك لاشيء، عشرة أرانب لاغير، معي، في ليلها النهاري، تنمو، قبيحة الآن وينمو لها شعر طويل، الآن في مرحلة المراهقة، مرحلة الضرورات الملحة والنزوات، تقفز فوق تمثال أنتينو النصفي (هو لأنتينو أليس كذلك؟ ذلك الغلام الذي ينظر دون أن يرى؟) أو تختبيء في غرفة المعيشة حيث تصدر عن حركتها أصداء صاخبة حتى أنني أطردها من هناك خيفة أن تسمعها سارة وتظهر لي مرعبةً وربما في قميص نومها ـ لأن سارة لابد أن تكون هكذا، في قميص نومها ـ وحينئذٍ... عشرة لاغير، فكري في هذه السعادة الصغيرة التي أستشعرها وسط كل هذا، الدعة المتنامية التي ألج بها من جديد السماوين الصلبتين للطابقين الأول والثاني.

توقفت عن الكتابة لأنني اضطررت إلى حضور أعمال لجنة. أستأنف الرسالة هنا في المنزل يا أندريه تحت رمادية الفجر الكابية. أهذا هو اليوم الجديد يا أندريه ؟ لك أن تعدي الفراغ في الصفحة لحظة توقف، جسراً يربط كلمات الأمس بكلماتي اليوم. يسوؤني أن أخبرك بأنه في لحظة التوقف هذه انهار كل شيء، وبينما تنظرين أنت إلى ذلك الجسر الرهيف

Twitter: @ketab_n

أسمع أنا انكسار خصر الماء الحانق ؛ ومن ناحيتي فههنا، على هذا الجانب من الورق، على هذا الجانب من رسالتي، لا تواصل للدعة التي كنت أكتب بها إليك عندما تركت الرسالة لأحضر أعمال لجنة. في ليلها التكعيبي، بلا شقاء، ينام أحد عشر أرنباً، ربما في نفس هذه اللحظة، كلا، ليس الآن ـ في المصعد، فيما بعـد، أو لدى دخولي...ـ لم يعد مهماً «أين» إذا كان الـ«متى» هو الآن، أيُ «الآن» من تلك المتبقية لي.

كفى ! لقد كتبت هذا لأنني يهمني أن أثبت لك أنني لم أكن مسؤولاً تماماً عن تحطيم منزلك على هذا النحو الذي لاسبيل إلى إصلاحه. أترك هذه الرسالة إلى حين عودتك، فمن العار أن تصلك بالبريد في صباح باريسي مشرق. ليلة أمس، غيرت وضع كتب الرف الثاني ؛ أصبحت تصل إليها واقفة على قدميها أو قفزاً، قرضت كعوب الكتب لتشحذ أسنانها ـ ليس جوعاً إذ إن لديها كل البرسيم الذي أشتريه لها وأخزنه في أدراج المكتب ـ . مزقت الستائر وقماش المقاعد وحافة صورة أوجوستو تورِّس وملأت البساط بالشعر وصرخت أيضاً وتحلقت تحت ضوء المصباح، في دائرة وكأنها تعبدني، وبغتةً أخذت تصرخ على نحو لا أعتقد أن الأرانب قادرة عليه.

عبثاً حاولت أن أنزع الشعر الذي يفسد البساط، أن أسوي حافة القماش الذي قرضته، أن أحبسها مرة أخرى في الصوان. يرتفع النهار وقد تنهض سارة بعد قليل. غريب أن سارة لم تعد تهمني. غريب تقريباً ألا تقلقني رؤيتها وهي تقفز بحثاً عن لعبة. لم يكن ذنبي، وأنت حين تعودين سترين أن كثيراً من الأشياء المهشمة أصلحت جيداً بالأسمنت الذي ابتعته من متجر إنجليزي، لم أدخر جهداً كي أجنبك شعوراً بالغضب... أما فيما يخصني، فمن العاشر إلى الحادي عشر هنالك

Twitter: @ketab_n

هوة سحيقة. ولك أن تحكمي: عشرة كانت مناسبة. في وجود صوان وبرسيم وأمل، ما أكثر الأشياء التي يمكن بناؤها !أما أحد عشر...، لأننا إن نقل أحد عشر فكأنما قلنا اثني عشر ياأندريه، واثناعشر ستكون ثلاثة عشر. حينئذٍ، ههنا الفجر والوحدة الباردة التي تحتمل فيها البهجة والذكرى وأنتِ وربما آخرين كثيرين. وههنا هذه الشرفة التي تطل على شارع سويباتشا والمترعة بالفجر وأصوات المدينة الأولى.لا أعتقد أن يجدوا مشقة في رفع أحد عشر أرنباً متفرقة على بلاط الشارع، وقد لايلتفتون إليها وهم منشغلون بالجسد الآخر الذي ينبغي الإسراع بنقله، قبل أن يمر أول تلاميذ المدارس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اتصال الحدائق

كان قد شرع في قراءة الرواية قبل أيام. تركها لأعمال عاجلة وعاد ففتحها لدى عودته بالقطار إلى مزرعته. في أناة، كان يسلم نفسه لتجتذبه الحبكة ورسم الشخوص. ذلك المساء، بعد أن كتب خطاباً إلى وكيل أعماله وناقش مسألة مزارعه مع مدير المنزل، عاد إلى الكتاب في دعة قاعته المطلة على حديقة السنديان. مستريحاً في مقعده المفضل، مستدبراً الباب الذي قد يضايقه كاحتمال مزعج للتدخلات، ترك يده اليسرى تداعب مرةً وأخرى المخمل الأخضر وراح يقرأ الفصول الأخيرة. كانت ذاكرته تحتفظ بلا مشقة بأسماء الأبطال وصورهم؛ غلبه الخيال الروائي في الحال تقريباً. كان يجد متعة شبه شريرة في الانفصام التدريجي، سطراً بعد سطر، عما يحيط به، وفي الشعور أيضاً بأن رأسه يستند في راحة إلى مخمل المسند العالي وأن السجائر ما انفكت في متناول يده وأن نسيم الغروب، على الجانب الآخر من الشرفات، يرقص تحت أشجار السنديان. كلمة إثر كلمة، مأخوذاً بوضاعة خيار البطلين، ومطلقاً العنان لنفسه تقبل على الأخيلة التي كانت تتجسد وتكتسي لوناً وحركة، كان شاهداً على اللقاء الأخير في كوخ الجبل. أولاً دخلت المرأة، متوجسة، والآن يجيء الحبيب وقد خُدش وجهه بغصن. على نحو مثير للإعجاب كانت هي تلعق الدم بقبلاتها، لكنه كان يرفض اللمسات،

Twitter: @ketab_n

فما جاء ليعيد طقوس عشق سري يستتر بعالم من أوراق الشجر المتيبسة والدروب الخفية. كانت المدية دافئة فوق صدره، وتحتها تنبض الحرية الكامنة. حوار متلهف كان يجري على الصفحات كجدول من الأفاعي، وشعور بأن كل شيء كان مقرراً منذ الأزل. حتى تلك اللمسات التي تلف جسد العشيق، كأنما لتستبقيه وتصرفه عن عزمه، كانت ترسم على نحو شائن هيئة رجل آخر ينبغي القضاء عليه. لم يُنسَ شيء: حجج الغياب، الصدف، الأخطاء المحتملة. منذ تلك الساعة، كل لحظة كانت لها وظيفتها المحددة بالتفصيل. لا تكاد المراجعة المزدوجة القاسية تتوقف إلا لكي تلمس يد خداً . بدأ حلول الليل .

دون أن يعاود أي منهما النظر إلى الآخر، مشدودين في صرامة إلى المهمة التي كانت تنتظرهما، افترقا بباب الكوخ. هي عليها أن تسلك الدرب المتجه صوب الشمال. ومن الدرب المقابل، التفت هو هنيهة كي يشاهدها وهي تسرع بشعرها المسترسل. ركض بدوره محتمياً بالشجر والأسيجة إلى أن تبيّن في ضباب الشفق الخبازي الطريق المؤدية إلى المنزل. الكلاب لن تنبح، ولم تنبح؛ مدير المنزل سيكون غائباً في تلك الساعة، وكان غائباً. ارتقى درجات السقيفة الثلاث ودخل. من الدم المتسارع في أذنيه جاءته كلمات المرأة: أولاً قاعة زرقاء، ثم رواق وسلم عليه بساط. في الطابق العلوي بابان، لا أحد في الحجرة الأولى، لا أحد في الثانية. باب القاعة، حينئذٍ المدية في يده، ضوء الشرفات، المسند العالي لمقعد من المخمل الأخضر، رأس الرجل الجالس في المقعد يقرأ رواية .

Twitter: @ketab_n

لا ذنب لأحد

يعقّد البرد الأمور دائماً، ففي الصيف يكون المرء أقرب إلى العالم، الجلد فوق الجلد، لكن زوجته الآن، في السادسة والنصف مساء، تنتظره أمام المتجر لاختيار هدية زواج؛ لقد تأخر، ينتبه إلى أن الجو بارد، يجب أن يرتدي البلوفر الأزرق، أي شيء يناسب البذلة الرمادية، فالخريف ليس سوى لبس وخلع بلوفرات، انغلاق، تناءٍ. بلا رغبة يصفر أغنية تانجو فيما يبتعد عن الشرفة المفتوحة، يبحث عن البلوفر في الصوان ويشرع في ارتدائه أمام المرآة. ليس بالأمر الهين، ربما لأن قميصه يلتصق بصوف البلوفر، لكنه يجد مشقة في إدخال ذراعه، شيئاً فشيئاً تتقدم يده حتى تطل إصبعه في النهاية خارج أسورة الكم، لكن الإصبع، في ضوء المساء، تبدو متغضنة ومطوية إلى الداخل بظفرها الأسود المدبب. بجذبة واحدة يخلع عنه كم البلوفر ويتفحص يداً كأنها ليست يده، لكنه الآن، بعد أن أمست خارج البلوفر، يلاحظ أنها يده المعتادة فيتركها تسقط في نهاية ذراعه المرتخية ويعنّ له أن الأفضل أن يدخل الذراع الأخرى في الكم الآخر عسى أن يكون أسهل. يبدو أن الأمر ليس كذلك لأن صوف البلوفر سرعان ما التصق مرة أخرى بنسيج القميص، فعدم اعتياد البدء بالكم الآخر يزيد من صعوبة المهمة، وعلى الرغم من أنه راح يصفر كي يهدأ يشعر بأن يده لاتكاد تتقدم وأنه بغير مناورة مكملة

Twitter: @ketab_n

لن يتمكن البتة من أن يجعلها تصل إلى الخارج. الأفضل أن يؤدي كل العملية في وقت واحد، أن يحني رأسه ليكون في مستوى رقبة البلوفر وفي ذات الوقت يدخل ذراعه الطليقة في الكم الآخر ويتقدم بها ثم يشد في آن واحد من الذراعين والرقبة. في الظلمة الزرقاء الفجائية التي تلفه يبدو من العبث أن يواصل الصفير. ينتابه شعور بالحر في وجهه ولو أن جزءاً من رأسه لابد أن يكون في الخارج، لكن جبهته ومعظم وجهه ما زالا بالداخل، ولا تكاد يداه تتقدمان في منتصف الكمين، مهما يجذب لا شيء يخرج من البلوفر، والآن يجول بخاطره أنه ربما أخطأ في ذلك الضرب من ضروب السخرية الحانقة التي استأنف بها العملية وأنه ربما ارتكب حماقة إدخال رأسه في أحد الكمين وإحدى يديه في رقبة البلوفر. لو كان الأمر كذلك لكانت تلك اليد خرجت في يسر، ولكن رغم أنه كان يجذب البلوفر بكل قواه لاتتقدم أي من اليدين، فيما يبدو رأسه على وشك شق طريقه لأن الصوف الأزرق يضغط أنفه وفمه الآن بقوة تكاد تثير حنقه، يخنقه أشد مما كان يتخيل ويجبره على التنفس بعمق بينما يبتل الصوف لصق فمه، ومن المحتمل أن يبهت ويلوث وجهه باللون الأزرق. من حسن الطالع أن يده اليمنى في هذه اللحظة أطلت على الهواء، على برد الخارج، على الأقل هنالك واحدة في الخارج، ولو أن الأخرى مازالت حبيسة الكم، ربما كان صحيحاً أن يده اليمنى كانت في رقبة البلوفر، لذا ما كان يعتقد أنه الرقبة يضغط وجهه على هذا النحو ويخنقه شيئاً فشيئاً في حين تمكنت يده من الخروج في يسر. على أية حال، ولكي يتأكد، فإن الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله هو أن يواصل شق طريقه متنفساً بعمق وتاركاً هواء الزفير يخرج رويداً رويداً، رغم أن ذلك قد يكون من السخف فلا شيء يمنعه من أن يتنفس جيداً فيما

Twitter: @ketab_n

عدا أن الهواء الذي يستنشقه يمتزج بزغب صوف الرقبة أو كم البلوفر، وهنالك أيضاً مذاق البلوفر، ذلك المذاق الأزرق للصوف الذي قد يكون لوَّثَ وجهه الآن فيما يزداد امتزاج رطوبة نَفَسه بالصوف، ورغم أنه لا يراه، لأنه إذا فتح عينيه تصطدم أهدابه بالصوف على نحو أليم، هو متيقن من أن اللون الأزرق أصبح يغطي فمه المبلول وفتحتي الأنف ووصل حتى صدغيه. كل هذا يصيبه بالجزع ويرغب لو أنه انتهى من ارتداء البلوفر مرة واحدة، فضلاً عن أن الوقت قد يكون تأخر جداً وأن زوجته ربما نفد صبرها أمام باب المتجر. يقول لنفسه إن من العقل أن يركز اهتمامه في يده اليمنى لأن هذه اليد، خارج البلوفر، تتصل بهواء الحجرة البارد، وهي كالبشير بأنه لم يتبقَ سوى القليل، كما أنها يمكنها أن تساعده، يمكنها أن تصعد حتى ظهره وتمسك بالطرف الأدنى للبلوفر بتلك الحركة التقليدية التي تساعد في ارتداء أي بلوفر فتجذبه بقوة إلى أسفل. بيد أن الشيء الغريب أنه على الرغم من أن يده تتحسس ظهره بحثاً عن حافة الصوف يبدو أن البلوفر التف كاملاً حول رقبته، والشيء الوحيد الذي تعثر به يده هو القميص الذي يزداد تجعده بل وخرج جزء منه من السروال، ولا طائل تحت محاولة الشد من مقدمة البلوفر لأنه فوق الصدر لا يحس إلا بالقميص، يبدو أن البلوفر لم يكد يتعدى الكتفين ملتفاً ومشدوداً كأنما كتفاه أعرض من هذا البلوفر، وهو مايثبت في نهاية الأمر أنه أخطأ حقيقةً ووضع يداً في رقبة البلوفر والأخرى في الكم، وبذا تكون المسافة بين الرقبة وأحد الكمين هي بالضبط نصف المسافة بين أحد الكمين والآخر، وهذا ما يفسر انحناء رأسه قليلاً إلى اليسار، على الجانب الذي مازالت فيه يده حبيسة الكم، إذا كان الكم، ويفسر أيضاً حركة يده اليمنى الطليقة في حرية تامة في

Twitter: @ketab_n

الهواء على الرغم من أنها لا تتمكن من جذب البلوفر الذي يبدو أنه مازال ملتفاً بأعلى جسده. في سخرية ، يفكر في أنه لو كان ثمة كرسي قريب لاستراح وتنفس بشكل أفضل حتى ينتهي من ارتداء البلوفر، لكنه فقد الاتجاه بعد أن دار عدة مرات في واحد من صنوف الجمباز البهيج الذي يدشن دائماً ارتداء أية قطعة من الملابس والذي يشوبه شيء من الإيقاع الراقص غير المعلن والذي ليس لأحد أن ينتقده لأن مرده غاية نافعة وليس ميولاً راقصة آثمة.

في واقع الأمر، قد يكمن الحل الحقيقي في خلع البلوفر، إذ إنه لم يتمكن من ارتدائه، والتأكد من المدخل الصحيح لكل يد في كل كم وللرأس في فتحة الرقبة، لكن يده اليمنى مازالت تذهب وتجيء في طلاقة كأن من السخف التراجع الآن، وهي في بعض اللحظات تستجيب له وتصعد حتى مستوى الرأس وتجذب البلوفر إلى أعلى دون أن يدرك في حينه أن البلوفر التصق بوجهه بتلك اللزوجة الرطبة الممزوجة بزرقة الصوف، وعندما تجذب يده البلوفر إلى أعلى يشعر بألم كأنما تتمزق أذناه أو كأن أحداً يبغي قلع أهدابه. حينئذٍ، على مهل، حينئذٍ عليه أن يستخدم يده حبيسة الكم الأيسر، إذا كان الكم وليس الرقبة، من أجل ذلك ينبغي أن تساعد يده اليمنى يده اليسرى كي تتقدم من داخل الكم أو تتقهقر وتتخلص منه، وإن يكن من الصعب أن تتسق حركة اليدين كأن اليد اليسرى جرذ داخل قفص ويريد جرذ آخر من خارج القفص أن يساعده على الفرار، إلا إذا كان يعضه بدل أن يساعده على الهرب، لأن يده الأسيرة أصبحت تؤلمه على نحو مباغت فيما تنغرس يده اليمنى بكل قوتها في ذلك الشيء الذي قد يكون يده ويؤلمه، يؤلمه إلى حد أنه

Twitter: @ketab_n

يتخلى عن خلع البلوفر، يفضل أن يبذل مجهوداً أخيراً لكي يخرج رأسه من رقبة البلوفر ويخرج الجرذ الأيسر من القفص، ويحاول ذلك وهو يصارع بكل جسده، مندفعاً إلى الأمام وإلى الخلف ودائراً في وسط الحجرة، إذا كان فعلاً في وسط الحجرة إذ إنه طفق يفكر في أن النافذة تُركت مفتوحة وأن من الخطر أن يستمر في الدوران على غير هدى؛ يفضل التوقف على الرغم من أن يده اليمنى مازالت تذهب وتجيء دون أن تهتم بالبلوفر، على الرغم من أن يده اليسرى تؤلمه أكثر كأنما عُضت الأصابع أو تحرّقت، مع ذلك فإن يده تلك تطيعه، إذ إن أصابعه الجريحة التي تتقلص شيئاً فشيئاً تمكنت، من داخل الكم، من الإمساك بطرف البلوفر الملتف حول الكتف؛ يجذب البلوفر إلى أسفل وقد خارت قواه تقريباً، فكل شيء يؤلمه إلى حد بعيد، وينبغي أن تساعده يده اليمنى بدلاً من صعودها وهبوطها بساقيه بلا طائل، بدل أن تقرص فخذه كما تفعل الآن، إذ تقرصها وتخمشها من فوق ملابسه دون أن يتمكن من منعها لأن كل إرادته تنتهي بيده باليسرى، قد يكون جثا على ركبتيه ويشعر بأن معلق من يده اليسرى التي مازالت تجذب البلوفر، وفجأةً: البرد في صدغيه وجبهته، في عينيه؛ على نحو عبثي يأبى فتح عينيه غير أنه يدرك أنه أصبح في الخارج، تلك المادة الباردة، تلك المتعة هي الهواء الطلق، ولا يريد أن يفتح عينيه، ينتظر ثانيةً، ثانيتين، يسلم نفسه ليعيش في زمن بارد ومختلف، زمن خارج البلوفر، مازال جاثياً على ركبتيه، وما أجمل أن يظل هكذا، رويداً رويداً، مبتهجاً، يفتح قليلاً عينيه الطليقتين فيرى الأظافر الخمس السوداء معلقة ومصوبة إلى عينيه، يسعفه الوقت ليطبق

Twitter: @ketab_n

أهدابه ويتراجع إلى الخلف مغطياً وجهه بيده اليسرى التي هي يده وكل ما تبقى لحمايته من داخل الكم، لكي يجذب رقبة البلوفر إلى أعلى، ولكي يلف اللعاب الأزرق وجهه مرة أخرى فيما يتزحزح ليفر إلى مكان آخر، ليصل في النهاية إلى أي مكان بلا يد وبلا بلوفر، حيث ثمة فقط هواء صاخب يلفه ويرافقه ويلامسه واثنا عشر طابقاً.

Twitter: @ketab_n

الصديقـــان

في تلك اللعبة كان ينبغي أن يتم كل شيء بسرعة. قرر رقم واحد أنه تجب تصفية روميرو، على أن يقوم رقم ثلاثة بالمهمة،وتلقى بيلتران الأمر بعد ذلك بدقائق. هادئاً لكن دون أن يضيع لحظة، خرج من مقهى كورينتس إي ليبرتاد واستقل سيارة أجرة. تذكر وهو يستحم في شقته، منصتاً إلى الأخبار، أنه رأى روميرو آخر مرة في سان إيسيدرو ، في يوم غير مواتٍ للمراهنة على الخيل. في ذلك الحين كان روميرو مجرد شخص يدعى روميرو وهو مجرد شخص يدعى بيلتران؛ كانا صديقين حميمين قبل أن تضعهما الحياة في طريقين مغايرين. ابتسم بلا رغبة تقريباً يفكر في محيا روميرو حين يقابله من جديد، بيد أن محيا روميرو لم تكن له أهمية؛ في المقابل، كان عليه أن يفكر في روية في مسألة المقهى والسيارة. من الطريف أن يعطي رقم واحد الأمر بقتل روميرو في مقهى كوتشبامبا إي بيدراس وفي تلك الساعة؛ استناداً إلى معلومات معينة ربما أصبح رقم واحد متقدماً في السن قليلاً. على أية حال ، يمكنه أن يفيد من هذا الأمر الأرعن: يمكنه أن يخرج السيارة من الجراج وينتظر بها مع ترك المحرك دائراً على جانب كوتشبامبا، مترقباً وصول روميرو كالمعتاد ليلتقي بأصدقائه نحو السابعة مساء. إذا سار كل شيء على مايرام سيتجنب أن يدخل روميرو المقهى، وفي الوقت نفسه، أن يراه رواد المقهى أو يرتابوا

Twitter: @ketab_n

في تدخله. كانت مسألة حظ وتقدير، إيماءة بسيطة (ولن تفوت روميرو الذي كان قطاً بريا) ثم يتوارى في زحام المرور ويعود بأقصى سرعة. لو أن كليهما فعل الأشياء كما يجب ـ وكان بيلتران يثق برومیرو كثقته بنفسه ـ فسينتهي كل شيء في لحظة. عاود الابتسام متخيلاً وجه رقم واحد حين يخابره فيما بعد، فيما بعد بوقت طويل، من كابينة عامة ليخبره بما حدث.

ارتدى ثيابه على مهل آتياً على علبة التبغ ونظر إلى نفسه هنيهة في المرآة، ثم أخرج علبة تبغ أخرى من الدرج وقبل أن يطفيء الأنوار تأكد من أن كل شيء معد، فالإسبان الذين يعملون في الجراج أصلحوا السيارة الـ«فورد» حتى أصبحت كالحرير. هبط شارع تشكابوكو، على مهل، وفي السابعة إلا عشر دقائق انتظر بالسيارة على مسافة عدة أمتار من باب المقهى، بعد أن دار دورتين حول الشارع في انتظار أن تترك له شاحنة توزيع المكان شاغراً. من موقعه كان من المستحيل أن يراه رواد المقهى. من آن إلى آخر كان يضغط بدال السرعة قليلاً لكي يحافظ على سخونة المحرك؛ لم يشأ التدخين، لكنه كان يشعر بجفاف في حلقه وكان يشعر بالغضب.

في السابعة إلا خمس دقائق رأى روميرو قادماً على الطوار المقابل؛ تعرّفه في الحال بقبعته الرمادية وبذلته ذات صفي الأزرار. بنظرة سريعة إلى واجهة المقهى قدّر الزمن الذي سيستغرقه في عبور الشارع والوصول إلى هناك. لكن لا ينبغي أن يحدث لروميرو أي مكروه على تلك المسافة من المقهى، إذ كان من الأفضل أن يدعه يعبر الشارع ويرتقي الطوار. في تلك اللحظة بالتحديد حرك السيارة وأخرج ذراعه من نافذتها. وكما رتب، رآه روميرو وتوقف مبهوتاً. العيار الأول أصابه فيما بين عينيه، ثم صوب بيلتران نحو الكتلة المتهاوية. خرجت السيارة الـ«فورد» في خط

Twitter: @ketab_n

زاو، متخطية الترام في نقاء ثم عادت أدراجها من شارع تاكواري. فكر رقم ثلاثة وهو يقود السيارة بلا عجالة في أن النظرة الأخيرة لروميرو كانت نظرة بيلتران، صديق مضمـــــار الخيل في زمن آخر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لقـــــــاء

«تذكرت قصة قديمة لجاك لندن، حيث يتأهب البطل المستند إلى جذع شجرة لإنهاء حياته بعزة».

إرنستو تشي جيفارا، «السهل والجبل»،هافانا، 1961.

كنا نسير في أحلك الظروف، لكننا على الأقل لم نكن على متن الزورق الملعون، بين القيء وتقلبات البحر وقطع الكعك المبلولة، بين المدافع الرشاشة والمخاط، في حالة تثير الغثيان، نتعزى حين نستطيع بقليل التبغ الذي لايزال جافاً لأن لويس (الذي لم يكن اسمه لويس غير أننا كنا أقسمنا ألا نتذكر أسماءنا إلى أن يحين اليوم) كانت واتته فكرة طيبة بوضعه في علبة من الصفيح كنا نفتحها بحرص أشد مما لو كانت تحوي عقارب. لكن فيم يفيد أي تبغ أو حسوات الروم في ذلك الزورق الملعون، متأرجحاً خمسة أيام كسلحفاة ثملة، ومواجهاً رياحاً شمالية تسوطه بلا رحمة، موجة ذاهبة وأخرى آيبة، والدلاء تمزق أيدينا، وأنا والربو الشيطاني ونصف العالم مريض وينحني ليتقيأ كأنه سينشطر نصفين. حتى لويس، في تلك الليلة، تقيأ عصارة خضراء قضت على رغبته في الضحك، وبين ذلك وريح الشمال التي تحول بيننا وبين رؤية فنار كابو كروث كارثة لم يتخيلها أحد، ووصف ذلك بأنه حملة إبرار كان يعني أن نواصل القيء لكن من الحزن المحض. خلاصة القول، أي شيء مقابل ترك الزورق وراء ظهورنا، أي شيء وإن يكن ما ينتظرنا على

Twitter: @ketab_n

اليابسة ـ لكننا كنا نعلم أنه كان ينتظرنا لذا لم يكن الأمر في غاية الأهمية ـ ، الزمن الذي يولد تحديداً في أسوأ لحظاته، وفجأةً طائرة الاستطلاع، ونحن بلا حيلة، فلنعبر المستنقعات أو أي شيء، والماء حتى ضلوعنا نبحث عن ملاذ في الأحراش، في أراضي القرام، وأنا كالأبله ومعي بخاخة الأدرنالين حتى أواصل الطريق، ومعي روبرتو الذي كان يحمل عني الـ«سبرينجفيلد» كي يعاونني في عبور المستنقع بشكل أفضل (إذا كان مستنقعاً بالفعل، لأن كثيرين منا اعتقدوا أننا ضللنا الطريق وبدلاً من اليابسة كنا من الغباء بحيث بلغنا خليجاً موحلاً، على مسافة عشرين ميلاً من الجزيرة...)؛ وكل شيء هكذا، سيء الإعداد ومقول بشكل أسوأ، في حيرة متصلة في الأفعال والتقدير، مزيج من البهجة غير المفسرة والحنق من الحياة الملعونة التي كانت الطائرات تجبرنا على أن نرزح تحتها ومما كان ينتظرنا على جانب طريق السيارات إذا وصلنا إلى هناك يوماً ومما إذا كنا في مستنقع على البر أو ندور كالبلهاء في دائرة من الطين والفشل التام من أجل تسلية القردوح في قصره.

لم يعد أحد يذكر كـــم دام، كنا نقيس الزمن بالأرض الفضاء بين الأحراش، بالأجزاء المحتمل فيها أن ينقضوا علينا بالرشاشات، بالصرخة التي سمعتها عن يساري، بعيداً، والتي أعتقد أنه كان روكِه (بمستطاعي أن أسميه باسمه، أن أطلق اسمه على هيكله العظمي البائس بين النباتات المتسلقة والضفادع)، إذ لم يتبقَ من خططنا سوى الهدف الأخير، بلوغ الجبال والانضمام إلى لويس لو تمكن هو أيضاً من بلوغها؛ أما البقية فقد مزقتها ريح الشمال والإبرار الارتجالي والمستنقعات. مع ذلك، فلنكن منصفين: شيء ما كان يتحقق آنياً، هجوم الطائرات المعادية. كان متوقعاً ومخططاً له : ولم يخذلنا. لذا، رغم

Twitter: @ketab_n

أن عواء روكِه لايزال يؤلمني في وجهي، كانت طريقتي الشريرة في فهم العالم تعينني على الضحك خفيضاً(أكاد أختنق أكثر، وروبرتو يحمل عني الـ«سبرينجفيلد» حتى أتمكن من استنشاق أدرنالين عن طريق الأنف، على حافة الماء تقريباً، لا أكاد أبتلع إلا وحلاً)، لأنه إذا كانت الطائرات هناك فمن غير المحتمل إذن أن نكون أخطأنا الشاطيء، كنا انحرفنا عدة أميال على الأكثر، لكن طريق السيارات سيكون وراء الدغل، ثم السهل المنبسط، وإلى الشمال، السفوح الأولى. من السخرية أن يكون العدو هو من يؤكد لنا من الجو أن الإبـــرار سليـم.

لا أحد يعلم كـــم دام، ثم جن الليل، وكنا ستة تحت أيكة هزيلة، لأول مرة على أرض جافة تقريباً، نمضغ تبغاً مبتلاً وكعكاً بائساً. عن لويس، عن بابلو، عن لوكاس : لا شيء؛ متفرقون أو قتلوا، أو هم على أية حال تائهون ومبتلون مثلنا. مع ذلك، كانت تروقني مسألة أن أفكاري جعلت تنتظم بعد ذلك اليوم الضفدعي، وأن الموت، الأقرب احتمالاً الآن، لن يكون عياراً طائشاً وسط مستنقع بل عملية جدلية جافة، موزعة بإتقان بين طرفي اللعبة. لابد أن الجيش يسيطر على الطريق ويحاصر المستنقعات وينتظر أن نظهر مثنى أو ثلاث بعد أن أتى علينا الوحل والهوام والجوع. الآن، كان كل شيء يلوح في غاية الجلاء، ومرةً أخرى كنت أحتفظ في جيبي بالجهات الأصلية، من السخرية أن أكون جد حيّ ويقظ على حافة الخاتمة. لم يكن هنالك مايسليني خير من إثارة حنق روبرتو بترديد أبيات العجوز بانشو، التي كان يمقتها، في أذنه. الملازم يشكو:«لو أننا على الأقل نستطيع أن ننفض عنا الوحل». «أو ندخن بحق»، قال شخص على الطرف الأيسر، لا أعلم من، شخص فُقد عند الفجرْ. تنظيم الاحتضار: الحراسة، النوم بالتناوب،

Twitter: @ketab_n

مضغ التبغ، مصّ كعك منتفخ كالإسفنج. ولا أحد يذكر لويس، كان الخوف من أن يكون قتل هو عدونا الحقيقي الأوحد، لأن تأكد موته سيلغينا أكثر من المطاردة أو نقص السلاح أو الأقدام الدامية. أعلم أنني نمت شيئاً فيما كان روبرتو ساهراً، لكنني، قبل ذلك، فكرت في أن كل ما فعلناه في الأيام السابقة كان شديد الرعونة بحيث لا يمكننا أن نقبل هكذا، دفعة واحدة، فرض أن يكون لويس قد قتل. على نحو ما، كان على الرعونة أن تستمر حتى النهاية، وربما صارت النصر، وفي تلك اللعبة العبثية التي كنا بلغنا فيها حد الفضيحة بإبلاغ العدو بأننا سنقوم بعملية الإبرار لايدخل احتمال مقتل لويس. وأعتقد أنني فكرت في أننا لو انتصرنا، لو تمكنا من لقاء لويس مرة أخرى، حينئذٍ فقط سيبدأ اللعب الجاد، إنقاذ كل تلك الرومانسية الضرورية والمفرطة والخطرة. قبل نومي رأيت شيئاً كالرؤيا: لويس إلى جانب شجرة، محوطاً بنا جميعاً، يرفع يده في بطء إلى وجهه وينزعه كأنه قناع، وبوجهه في يده يدنو من أخيه بابلو ومني ومن الملازم ومن روكه يناشدنا بإيماءة أن نقبله وأن نضعه؛ لكنهم جميعاً جعلوا يرفضون واحداً إثر الآخر، وأنا أيضاً رفضت مبتسماً حتى الدموع؛ عندئذٍ عاد لويس فوضع وجهه ولاحظت عليه تعباً لانهائياً فيما كان يهز منكبيه ويخرج سيجاراً من سترته. من الناحية المهنية: حالة هلوسة بين اليقظة والمنام ومن جراء الحمى، سهل تفسيرها. غير أنهم لو كانوا قتلوا لويس أثناء الإبرار، فمَن الآن سيصعد الجبال بوجهه ؟ سيحاول جميعنا الصعود، لكن لا أحد بوجه لويس. «أولياء العهد كما في القديم» ـ فكرت في ذلك شبه نائم ـ «لكن كل شيء ذهب إلى الجحيم مع أولياء العهد قديماً، كما هو معروف».

رغم أن هذا الذي أحكيه حدث منذ فترة، تبقى أجزاء ولحظات

Twitter: @ketab_n

محفورة في الذاكرة ولا يمكن ذكرها إلا في المضارع، كما لو كنت مستلقياً على ظهري مرة أخرى في الأحراش، إلى جانب الشجرة التي تحمينا من السماء المكشوفة. إنها الليلة الثالثة، لكن عند فجر ذلك اليوم بلغنا طريق السيارات رغم أنف سيارات الجيب و المدافع. والآن علينا أن ننتظر يوماً آخر لأنهم قتلوا دليلنا ولانزال تائهين، يجب أن نعثر على أحد من أهالي المنطقة يقودنا إلى حيث نستطيع شراء شيء يؤكل، وحين أقول شراء أكاد أضحك وأختنق من جديد، لكننا في هذا الشأن، ومثلما في كل الشؤون، لم نكن نجرؤ على مخالفة لويس، والغذاء ينبغي أن نشتريه ونشرح للناس مَن نحن ولـمَ نقوم بما نقوم به. ووجه روبرتو في الخص المهجور فوق الأكمة تاركاً خمسة بيزو تحت الطبق لقاء النذر اليسير من الطعام الذي وجدناه وكان له أريج الجنة أوطعام فندق الريتز، إذا كان طعامه جيداً. اشتدت عليّ الحمى فزالت عني نوبة الربو، و«إن في الشر خياراً» ، لكنني أفكر ثانية في وجه روبرتو وهو يترك البيزو الخمسة في الخص الخاوي وتنتابني نوبة ضحك فأختنق وألعن نفسي. وجب علينا أن ننام، يقوم تينتي بالحراسة ويستلقي الأولاد مكوماً بعضهم فوق بعض وأنا انتحيت جانباً أبعد قليلاً لأن لدي انطباعاً بأنني أضايقهم بسعالي وصفير صدري، فضلاً عن أنني أفعل شيئاً لا يُفعل، إذ إنني مرتين أو ثلاثاً في الليل أصنع شاشة من الأوراق وأضع وجهي تحتها وأشعل على مهل سيجارة كي أتصالح قليلاً مع الحياة.

في الواقع، الشيء الوحيد الطيب هو غياب الأنباء عن لويس، أما فيما عدا ذلك فكارثة، فمن ثمانين قتلوا منا على الأقل خمسين أو ستين؛ سقط خابيير فيمن سقط في البداية، وفقد البيرواني إحدى عينيه وأخذ يحتضر ثلاث ساعات دون أن أتمكن من فعل شيء، ولا حتى إنهاء حياته

Twitter: @ketab_n

عندما كان الآخرون لا ينظرون. طوال اليوم توجسنا خيفة من أن يأتينا رسول (جاء ثلاثة متجشمين أخطاراً جسيمة، أمام بصر الجيش نفسه) بنبأ مقتل لويس. من الأفضل، في نهاية الأمر، ألا نعلم شيئاً وأن نتخيله حيا ونواصل الانتظار. أوازن بين الاحتمالات في برود وأنتهي إلى أنهم قتلوه، فجميعنا يعرفه، ونعرف كيف أن هذا الملعون الكبير قادر على الخروج إلى العراء بغدارة في يده ومن يأتي خلفه فليسوطهم. كلا، لكن لوبث سيرعاه، ليس كمثله أحد قادر على خداعه أحياناً، يخدعه كما يفعل مع طفل تقريباً، ويقنعه بأن عليه أن يفعل عكس ما يريد في تلك اللحظة. لكن، وإذا كان لوبث قد... فيم يفيد أن أحرق دمي، ليس ثمة عناصر لأقل فرض، فضلاً عن أن هذا الهدوء غريب، هذا الترف مستلقياً على ظهري كأن كل شيء على مايرام، كأن كل شيء يُنجز (كدت أفكر: «الإنجاز» قد يكون غبياً) حسب الخطط. قد تكون الحمى أو التعب، قد يكون أنهم قبل طلوع الشمس سيسحقوننا كالضفادع. لكن الآن تجدر الإفادة من لحظة التقاط الأنفاس العبثية هذه، أن أترك نفسي تتأمل رسم أغصان الشجرة وخلفها السماء الأكثر إشراقاً ببعض النجوم، أقلب عينيّ وأتابع ذلك الرسم اللحظي للأغصان والأوراق، تلك الإيقاعات التي تتلاقى وتتراكب وتنفصل، وأحياناً تتغير في نعومة حين تمر دفقة هواء ساخن بقمم الشجر آتية من المستنقعات. أفكر في ابني، لكنه بعيد، ألوف الكيلومترات، في بلد مازال فيه الناس يأوون إلى فراشهم، وتتراءى لي صورته غير حقيقية، يتضاءل ويتلاشى بين أوراق الشجر؛ في المقابل، تبهجني ثيمة لموتسارت رافقتني دائماً، الحركة البطيئة في رباعية «الصيد» ، استدعاء النفير في صوت الكمان الوادع، ذلك الانتقال من طقس وحشي إلى متعة ذهنية ناصعة. أفكر

Twitter: @ketab_n

فيه وأستعيده وأدندن به من الذاكرة، وأشعر في ذات الوقت كيف أن النغمة ورسم قمة الشجرة تحت السماء يتقاربان ويتآلفان ويتلامسان مرةً وأخرى حتى ينتظم الرسم فجأةً في الغصن الأدنى، بمحاذاة رأسي تقريباً، ويعلو حتى ارتفاع ما وينفتح كمروحة من السيقان بينما الكمان هو ذلك الفرع الرهيف الذي يتجاور لتمتزج أوراقه في نقطة إلى اليمين، صوب نهاية الجملة، ويدعها تنتهي حتى تهبط العين على الجذع وتستطيع إن شاءت ترديد النغمة. كل هذا هو أيضاً ثورتنا، مانفعله، على الرغم من أن موتسارت والشجرة لا يدركانه، نحن أيضاً، بطريقتنا، أردنا الانتقال من حرب رعناء إلى نظام ينفحها معنى، يبررها، وأخيراً يقودها إلى نصر يكون كالعودة إلى النغمة بعد سنين طويلة من قرون الصيد الفجة، يكون ذلك الأليجرو الختامي الذي يلي الحركة البطيئة كلقاء بالنور. كم سيستمتع لويس لو علم أنني في هذه اللحظة أقارنه بموتسارت وأنا أراه ينظم تهوره شيئاً فشيئاً ويرفعه حتى مبرره الأصلي الذي يُحَبُّ بكل جلائه وإفراطه كافة المبررات العارضة. لكن، أية مهمة مريرة ويائسة أن يكون المرء موسيقي رجال ! وأن ينظم، رغم الوحل والمدافع واليأس، ذلك النشيد الذي كنا نخاله مستحيلاً، النشيد الذي سيعانق قمم الشجر والأرض العائدة إلى أبنائها. نعم، إنها الحمى. وكم سيضحك لويس رغم أنه هو أيضاً يحب موتسارت، أعلم ذلك.

وهكذا، أخيراً، أغيب في الكرى، لكنني قبل ذلك أسائل نفسي إن كنا يوماً سنجاوز الحركة التي مازال يتردد فيها نفير الصياد إلى اكتمال الحركة البطيئة المستعاد ومنه إلى الأليجرو الختامي الذي أصفره بصوت واهن، إن كنا سنتصالح مع ما بقي حياً أمامنا؟ ينبغي أن نكون مثل لويس، لا أن نتبعه بل نكون مثله، أن نخلف وراءنا إلى الأبد الحقد

Twitter: @ketab_n

والانتقام، أن ننظر إلى العدو كما يفعل لويس، بشهامة لاترحم أعادت إلى ذاكرتي في العديد من المرات (ولكن كيف لي أن أقول هذا لأحد؟) صورة «بانتوكراتور» ـ المخلِّص ـ، قاض هو منذ البداية المتهم والشاهد، لايحكم، بل هو ببساطة يفصل الماء عن اليابسة حتى يمكن أن يولد في النهاية وطن من البشر في فجر يختلج، على ضفاف زمن أكثر نقاء.

ولكن أية حركة بطيئة إذا كانوا مع أول ضوء انقضوا علينا من كل صوب. واضطررنا إلى التخلي عن التقدم نحو الشمال الغربي ودخلنا منطقة غير معروفة واستنفدنا آخر ما لدينا من مؤن فيما احتمى الملازم ورفيق له بأكمة ومن هناك أوقف تقدمهم لفترة ليعطينا مهلة، روبرتو وأنا، كي نحمل تينتي الجريح في فخذه ونبحث عن تل آخر أكثر تحصيناً يمكننا أن نقاوم فيه حتى هبوط الليل. ففي الليل هم لا يهاجمون قط، وإن زودوا بطلقات ضوئية ومعدات كهربية، إذ ينتابهم شيء كالذعر لأحساسهم بأنهم أقل حماية عدداً وسلاحاً؛ لكن إلى أن يحل الظلام كان أمامنا النهار كله تقريباً، وكنا خمسة بالكاد ضد أولئك الغلمان البواسل الذين كانوا يناصبوننا العداء كي ينالوا رضى القردوح، فضلاً عن الطائرات التي كانت من وقت لآخر تنقض على المناطق الفضاء في الجبل وتصيب بطلقاتها عدداً كبيراً من أشجار النخيل.

بعد نصف الساعة توقف الملازم عن إطلاق النار وانضم إلينا ونحن لم نكد نتقدم شيئاً. وبما أن أحداً لم يفكر في ترك تينتي، لأننا كنا نعلم جيداً أي مصير ينتظر الأسرى، خلنا أننا، هناك، على ذلك السفح وبين تلك الأحراش، سنحرق آخر خرطوش معنا. ثم كان من الممتع أن نكتشف أن القوات النظامية، في المقابل، تهاجم تلاً إلى الشرق بكثير وقد خدعها خطأ جوي، ونحن لم نفعل سوى أننا رحنا نرتقي المرتفع

Twitter: @ketab_n

عن طريق شعب جهنمي إلى أن بلغنا، بعد ساعتين، ربوة شبه مكشوفة وتمكن رفيق من العثور على كهف يغطيه العشب فتوقفنا ونحن نلهث بعد أن فكرنا في انسحاب مباشر صوب الشمال، من صخرة إلى صخرة، خطِر لكنه صوب الشمال، نحو الجبال التي سيكون بلغها لويس.

بينما كنت أداوي تينتي الغائب عن الوعي، قال لي الملازم إنه عند الفجر وقبيل هجوم النظاميين سمع صوت طلقات أسلحة أوتوماتيكية وأخرى لمسدسات تجاه الغرب. قد يكون بابلو ورفاقه، أو لويس نفسه. كان لدينا اقتناع منطقي بأن الناجين كانوا مقسمين إلى ثلاث مجموعات وقد لاتكون مجموعة بابلو بعيدة عنا. سألني الملازم هل الوضع يستحق عناء محاولة الاتصال بهم ليلاً. قلت له :

ـ إذا كنت تسألني هذا السؤال فهذا لأنك تتطوع للذهاب.

كنا مددنا تينتي على فراش من العشب الجاف، على الجانب الأكثر برودة من الكهف، وندخن ونلتمس الراحة فيما يقوم الرفيقان الآخران على الحراسة في الخارج.

نظر إليّ الملازم مبتهجاً :

ـ أتتخيل ؟ تروقني هذه النزهات يارجل.

مكثنا على ذلك فترة، نتبادل النكات مع تينتي الذي راح يهذي، وحين هم الملازم بالذهاب دخل روبرتو ومعه أحد أهالي الجبال وربع جدي مشوي. لم نكن نصدق، أكلنا كمن يأكل شبحاً، حتى تينتي قضم قطعة ذهبت كما ذهبت بعد ساعتين حياته. كان رجل الجبل وافانا بأنباء عن مصرع لويس؛ لم ندع الطعام لذلك، بيد أنه كان ملحاً كثيراً ولحماً قليلاً؛ وهو لم يكن رآه لكن ابنه الأكبر، الذي انضم إلينا أيضاً ومعه

Twitter: @ketab_n

بندقية صيد قديمة، كان اشترك في المجموعة التي عاونت لويس وخمسة من رفاقه في عبور نهير تحت وابل من طلقات المدافع وكان متيقناً من أن لويس أصيب لحظة خروجه من الماء وقبل أن يتمكن من بلوغ أقرب الأحراش. وكان الرجال من أهالي المنطقة قد ارتقوا الجبل الذي كانوا يعرفونه كما لا يعرفه أحد وبصحبتهم رجلان من مجموعة لويس، كانوا سيصلون ليلاً ومعهم أسلحة رفاقهم وبعض أسلحة الجيش.

أشعل الملازم سيجارة أخرى وخرج لينظم المعسكر ويتعرف الجدد أفضل؛ وأنا مكثت إلى جانب تينتي الذي كان يتدهور في بطء، بلا ألم تقريباً. أي أن لويس كان قد مات وكان الجدي لذيذاً وأننا تلك الليلة سنكون تسعة رجال أو عشرة وسنحصل على مؤن لنستأنف القتال. يالها من أنباء ! كان الأمر كضرب من الجنون البارد، فهو من ناحية يعزز الحاضر برجال وأغذية لكي يمحو المستقبل بصفعة، يمحو مبرر تلك الرعونة التي مالبثت أن اكتملت بنبأ وبمذاق جدي مشوي. في عتمة الكهف، مطيلاً عمر سيجارتي، شعرت بأنني في تلك اللحظة لا حق لي في ترف فرض أن لويس مات، وأن في وسعي فقط أن أدرج ذلك ضمن معطيات خطة الحملة، إذ لو مات بابلو أيضاً سأتولى أنا القيادة حسب إرادة لويس، وهذا ما كان يعلمه الملازم وكل الرفاق، ولم يكن في وسعي سوى تولي القيادة وبلوغ الجبال والتقدم كأن شيئاً لم يحدث. أعتقد أنني أغمضت عيني، وذكرى رؤياي صارت رؤياي نفسها، لوهلة تراءى لي لويس ينفصل عن وجهه ويمده لي وأنا دافعت عن وجهي بكلتا يديّ قائلاً:«كلا، كلا، من فضلك، كلا يالويس» ، وحين فتحت عينيّ كان الملازم عائداً ينظر إلى تينتي الذي كان يتنفس في حشرجة، سمعته يقول إن رجلين من أهالي الجبال انضما إلينا منذ قليل،

Twitter: @ketab_n

نبأ سار وراء آخر، مؤن، بطاطا مقلية، حقيبة طبية، النظاميون تائهون في السفوح الشرقية، عين ماء رائعة على مسافة خمسمائة متر. لكنه لم ينظر إلى عيني، كان يمضغ السيجار ويبدو كأنه ينتظر أن أقول شيئاً، أن أكون أنا أول من يعاود ذكر اسم لويس.

بعد ذلك، فراغ محير، دم تينتي رحل عنه وهو عنا، تطوع أهالي الجبال لدفنه، وأنا مكثت لأستريح زغم رائحة القيء والعرق البارد؛ العجيب أنني رحت أفكر في أقرب أصدقائي في زمن آخر، قبل هذه الوقفة في حياتي التي انتزعتني من بلدي لأنطلق بعيداً ألوف الكيلومترات، حتى لويس، حتى هبوط الجزيرة وهذا الكهف. وبحساب فارق التوقيت تخيلت أنه في تلك الساعة، يوم أربعاء، سيكون في طريقه إلى عيادته، تاركاً قبعته على المشجب وملقياً نظرة على البريد. لم تكن هلوسة، كان يكفيني التفكير في تلك السنين التي عشنا فيها متلازمين في المدينة نتقاسم السياسة والنساء والكتب ونلتقي كل يوم في المستشفى؛ كنت ألفت كل واحدة من إيماءاته، تلك الإيماءات لم تكن له وحده بل كانت تشمل كل عالمي حينذاك، تشملني و تشمل زوجتي وأبي، تشمل صحيفتي بافتتاحياتها المنتفخة وقهوتي في منتصف النهار مع الأطباء المنوبين وقراءاتي وأفلامي ومُثُلي. ساءلت نفسي فيم يفكر صديقي بشأن كل هذا، بشأن لويس وبشأني ؟ وكان كأنما أرى الإجابة ترتسم على وجهه (لكنها كانت حينئذٍ الحمّى، لابد من تناول الكينين)، وجه دفع ثمنه بنفسه وسَمت ينبيء برغد العيش والطبعات الجيدة ومهارة المبضع الشهير. لم يكن ضرورياً حتى أن يفتح فمه ليقول لي أنا أعتقد أن ثورتك ليست سوى... لم يكن ضرورياً على الإطلاق، كان لزاماً أن يكون على ذلك النحو، فهؤلاء الناس لم يكن بوسعهم التكهن بتغيير يكشف عن المبررات الحقيقية

Twitter: @ketab_n

لرحمتهم السهلة والمحسوبة بالساعة، لبرّهم المنظم والنسائي، لشهامتهم بين أقرانهم ومناهضتهم للتفرقة العنصرية في الصالونات، لكن كيف ستتزوج البنت من ذلك الخلاسي يا رجل، وكاثوليكيتهم ذات العائد السنوي والاحتفالات في الميادين المزدانة بالرايات، وأدبهم المنشّى، وفلكلورهم في طبعات خاصة، واحتسائهم الماتي في أواني من فضة، وانحنائهم في اجتماعات المستشارين، واحتضارهم الحتمي الغبي القصير أو الطويل الأمد (كينين، كينين، ومن جديد الربو)؛ صديقي التعس، كان يؤسيني أن أتخيله هكذا، مدافعاً كالغبي عن نفس القيم الزائفة التي كانت في طريقها إلى القضاء عليه أو على أبنائه في أحسن الفروض، مدافعاً عن حق الإقطاع في الملكية والثراء الفاحش فيما هو لا يملك سوى عيادته ومنزل مؤثث جيداً؛ مدافعاً عن مبادىء الكنيسة في حين أن كاثوليكية زوجته البرجوازية لم تفد إلا في إجباره على البحث عن خليلات يواسينه؛ مدافعاً عن حرية شخصية مفترضة فيما كانت الشرطة تغلق الجامعات وتراقب النشر؛ مدافعاً من قبيل الخوف ومقت التغيير والشك وانعدام الثقة التي كانت الآلهة الوحيدة في بلده البائس المفقود. كنت في ذلك حين دخل الملازم ركضاً وصرخ بأن لويس حي، بأنهم انتهوا من الاتصال بالشمال وبأن لويس أكثر حياة من أم البغي وأنه بلغ قمة الجبال ومعه خمسون فلاحاً وكل الأسلحة التي انتزعوها من كتيبة نظامية حوصرت في منخفض، وتعانقنا كالبلهاء وقلنا تلك الأشياء التي فيما بعد ولمدة طويلة أثارت فينا غضباً وخجلاً وعبقاً لأن ذلك إلى جانب الجدي المشوي والتقدم كان الشيء الوحيد الذي له معنى، الشيء الوحيد الذي يهم وينمو طالما لم يقدم أحد على النظر إلى

Twitter: @ketab_n

عيني الآخر وكنا نشعل السيجار من نفس الجمرة ونجفف دموعنا التي أسالها الدخان طبقاً لخواصه المعروفة المسيلة للدموع.

بعد ذلك، ليس هنالك ما يُحكى. عند الفجر، أحد أتباعنا من أهالي الجبال قاد الملازم وروبرتو حتى مكان بابلو وثلاثة من رفاقه، وحمل الملازم بابلو بين ذراعيه لأن قدميه كانتا ممزقتين من المستنقعات. وهكذا صرنا عشرين، أتذكر بابلو يعانقني بطريقته السريعة و المتعجلة ويقول لي دون أن يخرج السيجارة من فمه:«لو أن لويس لايزال حياً فمازال بوسعنا أن ننتصر» ، وأنا أضمد له قدميه على نحو رائع، والأولاد يضحكون منه لأنه بدا كمن يلبس حذاء أبيض جديداً، ويقولون له إن أخاه سيعنفه لذلك الترف الذي يأتي في غير أوانه. كان بابلو يمزح وهو يدخن كالمجنون:«فليكن. لكي يعنف أحداً لا بد أولاً أن يكون حياً ياصاحبي، وهاقد سمعت أنه حي، حي، حي أكثر من تمساح، وسنصعد في الحال، انظر كيف وضعت لي الضمادات، أي ترف...» . لكن،ما كان لذلك أن يدوم، فمع الشمس جاء الرصاص من أعلى ومن أسفل، وهناك نلت حظي بعيار في أذني، ولو أنه اقترب سنتيمترين لما علمت أنت يابني، الذي ربما كنت تقرأ هذا، لما علمت شيئاً عما كان يفعله أبوك. من جراء الدم والألم والرعب، تراءت لي الأشياء مجسمة، كل صورة جافة وبارزة، بألوان قد تكون رغبتي في الحياة، مع ذلك لم يحدث شيء، منديل مشدود جيداً ثم الصعود؛ لكن إلى الوراء بقي اثنان من أهالي الجبال والرجل الثاني في مجموعة بابلو وقد استحال وجهه كالمصفاة بعد أن أصابته طلقة عيار 45. في مثل تلك اللحظات تحدث حماقات ترسخ إلى الأبد: أذكر رجلاً بديناً، أعتقد أنه من مجموعة بابلو أيضاً، أراد في أشد لحظات القتال أن يحتمي بعود قصب فكان يقف

Twitter: @ketab_n

بجانبه ويجثو على ركبتيه خلفه، وأذكر أيضاً ذلك الذي طفق يصرخ بأن علينا أن نستسلم، والصوت الذي أجابه بين دفقتين من مدفع طومسون، صوت الملازم، هدير فاق دوي الرصاص، يقول:«لاأحد يستسلم هنا، اللعنة» ، حتى أبلغني أصغر أهالي الجبال، الصموت والخجول حتى تلك الساعة، بأن ثمة درباً على مسافة مائة متر من هناك، إلى أعلى مع الانحراف يساراً، وأنا صحت بذلك للملازم وكونت رأس حربة يتبعني أهالي الجبال وتقدمنا كالشياطين في قلب تعميد النيران مبتهجاً لأن رؤيتهم كانت تقر العين. وأخيراً بدأنا نتجمع تحت شجرة «السيبا» حيث يولد الدرب، فتسلق الرجل ونحن وراءه، أنا بنوبة ربو تعوق سيري وعنقي مخضب أكثر من خنزير ذبيح لكنني متيقن من أننا في ذلك اليوم كنا سنفلح في الفرار دون أن أدري السبب، بيد أن لقاءنا بلويس في نفس تلك الليلة كان جلياً كأية نظرية.

لن يعرف المرء مطلقاً كيف يخلّف وراءه مطارديه، فإطلاق النار يخفت شيئاً فشيئاً ثم تأتي اللعنات المعروفة و«الجبناء، يتخاذلون بدل أن يقاتلوا» ، حينئذٍ، فجأةً، الصمت، والأشجار التي تعود فتبدو أشياء حية وحميمة، تضاريس الأرض والجرحى الذين تلزم رعايتهم، زمزمية الماء بقليل من الروم تنتقل من فم إلى فم، التنهدات وبعض الشكوى والراحة، السيجارة والتقدم والتسلق، وإن خرجت رثتاي من أذني، وبابلو يقول لي اسمع، لقد صنعته لي مقاس اثنين وأربعين وأنا ألبس ثلاثة وأربعين ياصاحبي، والضحك، وقمة المرتفع، وحظيرة ورجل من أهالي المنطقة لديه قليل من اليوكا والماء البارد كالثلج، وروبرتو العنيد وذو الضمير الحي يخرج أربعة بيزو ليسدد ثمن ما استُهلك، والجميع، بدءاً بصاحب الحظيرة، يسقط على قفاه من الضحك، ومنتصف النهار

Twitter: @ketab_n

الذي يغري بالقيلولة التي وجب علينا مقاومتها كما لو أننا نترك فتاة رائعة تذهب وننظر إلى ساقيها حتى تختفي.

بحلول الليل زاد انحدار الشعب وأمسى شديد الوعورة، لكننا كنا نلعق جراحنا ونفكر في الموقع الذي اختاره لويس لينتظرنا، هناك إلى حيث لا يمكن لأي أيل أن يصعد. يقول بابلو إلى جانبي:«سنكون كما في الكنيسة، لدينا حتى الأرغن» ، وينظر إليّ مداعباً فيما ألهث في صنف من الموسيقى الشعبية لايسر أحداً سواه. لا أتذكر جيداً تلك الساعات. جن الليل حين بلغنا آخر الحراس، ومررنا واحداً إثر الآخر كاشفين عن هويتنا ونسمح لأهالي الجبال بالدخول على مسؤوليتنا، حتى خرجنا في النهاية إلى فضاء بين الأشجار حيث كان لويس مستنداً إلى جذع شجرة، بقبعته بالطبع وبحافتها التي لاتنتهي والسيجار في فمه. كدت أفقد روحي كي أظل إلى الوراء وأدع بابلو يركض أولاً ليعانق أخاه، ثم انتظرت حتى يذهب الملازم والآخرون ويعانقوه، ثم تركت الحقيبة الطبية والـ«سبرينجفيلد» على الأرض ووضعت يدي في جيبي واقتربت وجعلت انظر إليه وأنا أعلم ما كان سيقوله، المزحة المعتادة. قال لويس:

ـ فيم استخدامك هذه النظارة !

ـ وأنت لـمَ تستخدم هذه النظارة ! ـ أجبته وكدنا نسقط من الضحك وأصابني صدغه على وجهي بألم شيطاني مكان الجرح، بيد أنه كان ألماً تمنيت لو أنه استمر إلى ما بعد الحياة. قال لويس :

ـ وصلت إذن، تشي !

Twitter: @ketab_n

بالطبع كان يقول «تشي» [MK[1]] بشكل سيء جداً. فأجبته بنفس السوء[2]:

ـ وأنت ماذا ترى؟

وعدنا لا نتمالك نفسينا كمعتوهين ونصف العالم يضحك دون أن يدري السبب. أحضروا ماءً والأنباء، تحلقنا حول لويس وحينئذٍ فقط انتبهنا إلى أي حد أصابه الهزال وكيف كانت عيناه تلتمعان خلف النظارة الملعونة.

أسفل الموقع استؤنف القتال، لكن المعسكر، مؤقتاً، كان آمناً. استطعنا مداواة الجرحى والاستحمام في النبع والنوم، النوم قبل كل شيء، حتى بابلو نفسه الذي كان يهفو إلى الحديث مع أخيه. لكن، بما أن الربو معشوقتي وعلّمتني الإفادة من الليل، مكثت إلى جانب لويس مستنداً إلى جذع الشجرة أدخن وأنظر إلى رسوم الأوراق ومن ورائها السماء، وأخذنا نتذكر على فترات ما مررنا به منذ أن هبطنا الجزيرة، لكننا، قبل كل شيء، تحدثنا عن المستقبل، عما كان سيبدأ حين يأتي اليوم الذي ننتقل فيه من البندقية إلى المكتب المزود بالتليفونات، من الجبال إلى المدينة، وأنا تذكرت قرون الصيد وكنت على وشك أن أقول للويس ما حدث في تلك الليلة، فقط لأجعله يضحك، وفي النهاية لم أقل شيئاً ولكنني كنت أشعر بأننا ندخل الحركة البطيئة في الرباعية، الذروة الوعرة لعدة ساعات لكنها كانت يقيناً، علامة لن ننساها. كم من قرون الصيد مازالت تنتظر، كم منا سيضحي بعظامه مثل روكِه وتينتي، مثل

1- يقصد أنه لم يكن يجيد اللهجة الأرجنتينية.

2- أي بلهجة كوبية غير متقنة.

Twitter: @ketab_n

البيروانى. لكن يكفي أن ننظر إلى قمة الشجرة كي نستشعر أن الإرادة ترتب فوضاها من جديد، وتفرض عليها رسم الحركة البطيئة التي ستنضم في لحظة ما إلى الأليجرو الختامي وتدخل في واقع يستحق هذا الاسم. وفيما كان لويس يخبرني بالأنباء العالمية وبما يجري في العاصمة والمقاطعات، كنت أرى كيف كانت الأوراق والأغصان تستجيب في حركتها شيئاً فشيئاً لرغبتي، كانت نغمتي، نغمة لويس الذي كان لايزال يتحدث على غير علم بتخييلاتي، ثم رأيت نجماً يتجسد في مركز الرسم وجعل يضحك نجماً صغيراً شديد الزرقة، لكنني رغم أني لاأفقه شيئاً عن الفلك ولم يكن بمستطاعي أن أحدد ما إذا كان نجماً أو كوكباً كنت متيقناً من أنه لم يكن عطارد أو المريخ. كان يشع للغاية في مركز الحركة البطيئة، يشع للغاية في مركز كلمات لويس بحيث لايمكن لأحد أن يخلط بينه وبين المريخ أو عطارد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لا أدري لـمَ لا يدعونني أمضي الليل في المستشفى مع الولد، ففي نهاية المطاف أنا أمه، والدكتور دي لويسي أوصى بنا المدير شخصياً. يمكنهم إحضار أريكة- سرير وأبقى معه كي يعتاد الأمر، دخل المسكين بالغ الشحوب كأنهم سيجرون له العملية في الحال، أنا أعتقد أنها رائحة المستشفيات، وأبوه كان متوتراً أيضاً ويتشوف ساعة الذهاب، لكنني كنت متيقنة من أنهم سيسمحون لي بالبقاء مع الولد، فمهما يكن لم يكد يبلغ الخامسة عشرة، ولن يحسبه أحد في هذه السن، ملتصقاً بي دائما هكذا، مع أنه الآن بسراويله الطويلة يريد أن يخفي ذلك ويُظهر أنه رجل كبير. أي ذعر انتابه حين علم أنهم لا يسمحون لي بالبقاء معه، من حسن الحظ أن أباه تحدث إليه، جعله يرتدي البيجامة ويرقد في الفراش. وكل هذا بسبب الممرضة الغريرة، وأنا أتساءل هل لديها حقيقةً تعليمات من الأطباء أم أنها تفعل ذلك فحسب لأنها شريرة. لكنني قلتها لها بكل وضوح، سألتها هل هي متيقنة من أن عليّ أن أذهب. يكفي أن تنظر إليها لتدرك من هي، بهيئتها اللعوب ومئزرها الضيق، صبية قذرة تتوهم أنها مديرة المستشفى. لكن، لا، لم تنل مأربها، قلت لها ما كنت أفكر فيه، وهذا مع أن الولد لم يكن يجد مكاناً يتوارى فيه من الخجل، واصطنع أبوه عدم الاكتراث وفي ذات الوقت من المؤكد أنه اختلس

Twitter: @ketab_n

النظر إلى ساقيها كما اعتاد. الأمر الوحيد الذي يعزيني أن الوسط راقٍ، واضح أنه مستشفى للأثرياء، فالولد لديه مصباح من أجمل ما يكون لقراءة مجلاته، ومن الطيب أن أباه تذكر وأحضر له حلوى النعناع التي يحبها. لكن، غداً صباحاً، نعم، أول ما سأفعله أن أتحدث إلى الدكتور دي لويسي كي يضع تلك الغرة المعجبة بنفسها في مكانها. ويجب معرفة هل البطانية تدفيء الولد؟ منعاً للشك سأطلب أن يضعوا أخرى في متناول يده. أجل، بالطبع تدفئني، حمداً لله أنهما ذهبا معاً في النهاية، ماما تحسبني صغيراً وتضعني في كل موقف... لا شك أن الممرضة ستظن أنني غير قادر على طلب ما أحتاج إليه، عندما كانت ماما تعنفها نظرت إلي بطريقة... حسنٌ، إذا كانوا لا يسمحون ببقائها فلا حيلة لنا... لقد أصبحت كبيراً لأنام وحدي، على ما أعتقد. وما أطيب النوم في هذا الفراش! في هذه الساعة لا يُسمع أي صوت. أحياناً، من بعيد، يسمع طنين المصعد الذي يذكرني بفيلم الرعب الذي كانت تجري أحداثه أيضاً في مستشفى، عندما يفتح الباب رويداً، في منتصف الليل، وترى المرأة المشلولة من فراشها الرجل ذا القناع الأبيض يدخل...

الممرضة لطيفة جداً، عادت في السادسة والنصف ومعها أوراق وجعلت تسألني عن اسمي وسني وهذه الأشياء. وأنا خبأت المجلة في الحال لأنني من الأوقع أن أقرأ كتاباً حقيقياً وليس مجلة روايات مصورة، وأعتقد أنها لمحتني غير أنها لم تقل شيئاً؛ لاشك أنها كانت لاتزال غاضبة لما قالته لها ماما وتحسبني مثلها وأنني كنت سأعطيها أوامر أو شيئاً من هذا القبيل. سألتني هل الزائدة الدودية تؤلمني وأنا أجبتها أن لا وأنني تلك الليلة كنت على مايرام. قالت لي «لنر النبض». ثم بعد أن قاسته لي دونت شيئاً آخر في اللوحة وعلقتها في مؤخرة السرير. سألتني:

Twitter: @ketab_n

«أأنت جائع؟» وأنا أعتقد أن وجهي احمرّ من الخجل لأنها فاجأتني بعدم استخدام صيغة الاحترام، وإنها لصغيرة السن إلى حد أنني بُهتُّ. أجبتها بالنفي رغم أن ذلك كذب لأنني في تلك الساعة أحس بالجوع دائماً. قالت: «هذه الليلة ستتناول عشاء خفيفاً»، وحين انتبهتُ كانت أخذت علبة حلوى النعناع وستذهب. لست متيقناً من أنني شرعت أقول لها شيئاً، لا أعتقد. أثار حنقي أن تفعل ذلك بي كما لو كنت طفلاً، كان بوسعها أن تنبهني إلى عدم أكل الحلوى، لكن أن تأخذها... من المؤكد أنها كانت غاضبة لما بدر من ماما وكانت تنتقم منها في شخصي، فقط لأنها مستاءة؛ كيف لي أن أعلم. وبعد أن ذهبت زايلني الغضب في الحال، كنت أريد أن أظل غاضباً منها لكنني لم أستطع. ما أصغرها! يقيني أنها لم تبلغ التاسعة عشرة حتى، يبدو أنها لم تبدأ مزاولة المهنة إلا منذ وقت جد قصير. قد تأتي لتحضر لي العشاء؛ سوف أسألها عن اسمها، إذا كانت ممرضتي يجب أن أدعوها باسم. لكن، في المقابل، جاءت أخرى، سيدة لطيفة جداً ترتدي زياً أزرق، أحضرت لي حساء وبسكويت وجعلتني أتناول أقراصاً خضراء. هي أيضاً سألتني عن اسمي وصحتي وقالت لي إنني في هذه الغرفة سأنعم بنوم هادىء لأنها أفضل غرف المستشفى، وهذا صحيح لأنني نمت إلى نحو الثامنة صباحاً حين أيقظتني ممرضة ضئيلة الجسم وكثيرة التجاعيد كقرد لكنها لطيفة جداً، قالت لي إن في وسعي النهوض والاغتسال لكنها، قبل ذلك، أعطتني مقياس الحرارة وأخبرتني بأن أضعه كما يفعلون في هذه المستشفيات، وأنا لم أفهم لأننا في المنزل نضعه تحت الإبط، وحينئذٍ شرحت لي الأمر وذهبت. بعد قليل جاءت ماما، وكم كانت سعادتي وأنا أراه على ما يرام، أنا التي كنت أخشى أن يكون بات ليلته مسهداً،

Twitter: @ketab_n

حبيبي المسكين، لكن ذلك دأب الأولاد، في المنزل يحملونك فوق طاقتك ثم يغطون في نومهم عندما يبيتون بعيداً عن أمهم البائسة التي لم يغمض لها جفن. الدكتور دي لويسي دخل ليكشف على الولد وأنا خرجت لحظة من الغرفة لأنه أصبح كبيراً، وكنت أترقب رؤية ممرضة أمس لكي أنظر إلى وجهها جيداً وأضعها في مكانها، فقط بالنظر إليها من أعلى إلى أسفل، لكن لم يكن أحد بالممر. الدكتور دي لويسي خرج في الحال تقريباً وقال لي إنهم سيجرون العملية للولد في اليوم التالي وإنه على ما يرام وعلى أتم استعداد للعملية، ففي سنه عملية استئصال الزائدة الدودية بسيطة للغاية. شكرته كثيراً وتحينت الفرصة كي أقول له إن وقاحة ممرضة المساء لفتت نظري وإنني أقول ذلك لأن الأمر لا يحتمل ألا تتوفر لابني الرعاية الواجبة. ثم دخلت الغرفة لأكون في صحبة الولد الذي كان يقرأ مجلاته وعلى علم بأنهم سيجرون له العملية في اليوم التالي. وكأنها نهاية العالم! المسكينة تنظر إليّ بطريقة...، لكنني لن أموت يا ماما، اهدئي قليلاً من فضلك. لقد أجروا العملية نفسها للـ«كاتشو» ، وبعد ستة أيام كان يتلهف إلى لعب كرة القدم. اذهبي في سلام فأنا على مايرام ولا ينقصني شيء. أجل يا ماما، أجل. عشر دقائق وهي تريد أن تعرف هل أشعر بالألم هنا أم هنا، من حسن الحظ أن عليها أن ترعى شؤون أختي في المنزل، أخيراً ذهبت وتمكنت من الانتهاء من مجلة الروايات التي بدأتها البارحة.

ممرضة المساء تدعى الآنسة كورا، سألت عن اسمها الممرضة الضئيلة الجسم حين أحضرت لي الغداء؛ قدموا لي نذراً من طعام ومرة أخرى أقراصاً خضراء ونقطاً بمذاق النعناع؛ ويبدو لي أن لهذه النقط أثراً منوماً لأن المجلات كانت تسقط من يدي وفجأةً كنت أحلم

Twitter: @ketab_n

بالمدرسة وبأننا نقوم بنزهة مع تلميذات مدرسة المعلمات كالعام الماضي ونرقص على حافة المسبح، كان ممتعاً جداً. استيقظت نحو الرابعة والنصف ورحت أفكر في العملية، ليست مسألة خوف، الدكتور دي لويسي قال إنها بسيطة، لكن التخدير يعن لي غريباً وأن يفتحوا بطنك وأنت نائم، الكاتشو كان يقول إن أسوأ شيء هو الاستيقاظ إذ تؤلمك كثيراً وعندئذٍ تتقيأ وتصيبك الحمى. لم يعد ابن أمه متبجحاً كالأمس، ظاهر عليه أنه يشعر بقليل من الخوف، وهو صغير إلى حد يثير الشفقة. جلس في الفراش في سرعة حين رآني أدخل وخبأ المجلة تحت الوسادة. كانت الحجرة باردة قليلاً وذهبت كي أرفع درجة حرارة التدفئة ثم أحضرت مقياس الحرارة وناولته إياه. سألته: «أتعرف كيف تضعه؟» فبدا خداه على وشك الانفجار من شدة احمرارهما. أجاب بإيماءة برأسه وتمدد في الفراش فيما كنت أخفض خصاص النافذة وأشعل مصباح الفراش. وحين اقتربت كي يعطيني مقياس الحرارة كان لايزال خجلاناً فكدت أضحك، لكن مع الأولاد في هذه السن يحدث الأمر دائماً على الوتيرة نفسها، يشق عليهم اعتياد مثل هذه الأشياء. ومما زاد الموقف سوءاً أنه نظر إليّ في عينيّ، لمَ لا يكون في وسعي احتمال تلك النظرة مع أنها في النهاية ليست سوى امرأة؟ حين أخرجت مقياس الحرارة من تحت الغطاء وأعطيته لها، هي كانت تنظر إليّ وأعتقد أنها كانت تبتسم قليلاً، يبدو أن حمرة الخجل تُلاحظ علي كثيراً، وهذا ما لا أستطيع تجنبه، أقوى مني. بعد ذلك، دونت الحرارة في اللوحة المعلقة بمؤخرة الفراش وذهبت دون أن تقول شيئاً. لا أكاد أتذكر حديثي مع بابا وماما حين حضرا لزيارتي في السادسة. مكثا وقتاً قصيراً لأن الآنسة كورا قالت لهما إنها يجب أن تعدني للعملية وكان من الأفضل أن أظل هادئاً الليلة

Twitter: @ketab_n

السابقة عليها. خلت ماما ستوافيها بواحدة من عباراتها لكنها نظرت إليها من أعلى إلى أسفل وكذلك أبي، لكنني أعرف نظرات أبي، شيء مختلف تماماً. قبيل ذهابها سمعت ماما تقول للآنسة كورا: «سأشكر لك أن تعتني به جيداً، فهذا ولد اعتاد دائماً أن يكون محوطاً بأسرته» ، أو أي هراء من هذا القبيل، وكدت أموت من الغيظ، لم أنصت حتى إلى رد الآنسة كورا، لكنني متيقن من أنه لم يعجبها، من المحتمل أنها تظن أنني شكوتها إلى أمي أو شيئاً من هذا.

عادت في السادسة والنصف ومعها منضدة من تلك التي لها عجل، مليئة بالزجاجات والقطن، ولا أدري لـمَ شعرت فجأة بالخوف، لم يكن خوفاً في الحقيقة لكنني جعلت أرى ما كان على المنضدة: كافة أنواع القنينات الزرقاء والحمراء، لفافات شاش وأيضاً ملاقط وبكرات لصق، يبدو أن الرعب بدأ يداخل التعس بدون أمه التي تبدو كالببغاء في ثياب الأحد،[MK2] «وسأشكر لك أن ترعي ابني جيداً، أحيطك علماً بأنني تحدثت إلى الدكتور دي لويسي» ، أجل، حاضر ياسيدتي، سنرعاه لك كأمير. طفلك جميل يا سيدتي، بهذين الخدين المتوردين ما إن يراني أدخل. حين رفعت عنه الغطاء أتى بإيماءة كأنه سيتدثر به مرة أخرى، وأعتقد أنه التفت إلى أن رؤيته على هذا الخجل تضحكني. قلت له دون أن أنظر إلى وجهه: «لنرَ، اخفض بنطلون البيجامة» . «البنطلون؟» ـ سأل بصوت خانه وانتهى إلى نشاز. رددت: «أجل، بالطبع، البنطلون» ، فأخذ يحل الرباط ويفك الأزرار بأصابع لا تستجيب له. اضطررت أنا نفسي إلى خفض بنطلونه حتى منتصف الفخذين، وحدث ما كنت أتخيله. قلت له «أنت الآن ولد كبير» وأنا أعد الفرشاة والصابون، والحق أنه لم يكن ثمة ما يستحق الحلاقة. قلت له وأنا أضع الصابون:

Twitter: @ketab_n

«بم يدعونك في المنزل؟» أجابني «اسمي بابلو» بصوت أثار أساي، كان شديد الخجل. قلت في إصرار: «لكن من المؤكد أن لك لقباً»، وكان ذلك أسوأ إذ لاح لي أنه سيجهش بالبكاء فيما كنت أحلق له الشعيرات القليلة الموجودة هناك. «ليس لك إذاً لقب؟ بالطبع، أنت» **الولد** «فقط». انتهيت من الحلاقة وأومأت له بأن يغطي نفسه لكنه سبقني وفي ثانية واحدة ستر نفسه حتى رقبته. قلت له كي أسري عنه: «بابلو اسم جميل»؛ كدت أشعر بالألم لرؤيته على ذلك الخجل، كانت تلك أول مرة أمرّض فيها صبياً يافعاً في هذه السن، وبهذا الخجل، لكن شيئاً فيه ما انفك يثير حفيظتي، ربما كان مرده الأم، شيء أقوى من سنه ولا يعجبني، كان يضايقني حتى أن يكون بهذا البهاء وعلى ذلك الاكتمال في مثل هذا العمر، صبي غر قد يظن أنه رجل وقبل أن أدري ربما اجترأ على مغازلتي.

لبث مغمضاً عينيه أمامي، كان السبيل الأوحد للهروب على نحو ما من ذلك كله، لكن لم يفد في شيء لأنها في تلك اللحظة نفسها استطردت: «ليس لك إذاً لقب؟ بالطبع أنت الولد فقط»، وأنا كنت أفضل الموت أو أن أطبق على حلقها وأخنقها، وحين فتحت عينيّ رأيت شعرها الكستنائي يكاد يلمس وجهي لأنها انحنت لتزيل بعض الصابون المتبقي، وفاح منها أريج شامبو اللوز كالذي تضعه مدرسة الرسم، أو أي من تلك العطور، ولم أدرِ ماذا أقول، كل ما أقدمت عليه أني سألتها: «اسم حضرتك كورا، أليس كذلك؟». نظرت إلي بتهكم، بتلك العينين اللتين أصبحتا تعرفانني وكانتا شاهدتاني من كل جانب، وقالت: «الآنسة كورا». قالتها كي تعاقبني، أعلم ذلك، مثلما قالت من قبل «أنت الآن ولد كبير»، قالتها فقط لتسخر مني. رغم حنقي لاحمرار

Twitter: @ketab_n

وجهي، وهو ما لا أستطيع أن أداريه مطلقاً وأسوأ ما يمكن أن يحدث لي، مع ذلك أقدمت على قول: «إنك لصغيرة السن إلى حد... حسنٌ، كورا اسم جميل». لم يكن هذا ما أردت قوله، كان شيئاً آخر ويبدو لي أنها انتبهت إلى ذلك وشعرت بالضيق، والآن أنا متيقن من أنها حانقة على أمي، وأنا فقط أردت أن أقول لها إنني لكونها صغيرة السن كنت أفضل أن أدعوها كورا بلا ألقاب، لكن أنّى لي أن أبلغها بذلك بعد أن غضبت وكانت ذاهبة بالمنضدة المتحركة وكانت تنتابني رغبة في البكاء، وهذا شيء آخر ليس في وسعي تجنبه، بغتة يخونني صوتي وأرى كل شيء مضبباً في الوقت الذي قد أحتاج فيه أن أكون هادئاً لأعبر عما أفكر فيه. هي كانت في طريقها إلى الخارج لكنها حين بلغت الباب توقفت هنيهة كأنما لتتأكد من أنها لم تنسَ شيئاً، وأنا وددت لو أفصحت لها عما يجول بفكري بيد أنني لم أجد الكلمات وكل ما فعلته هوأنني رفعت الصبّانة، كان جالساً في الفراش وبعد أن جرب صوته قال «نسيتِ الصبّانة» بجدية شديدة وبنبرة رجل. عدت لآخذ الصبّانة، ولكي يهدأ قليلاً لامست خده بيدي، قلت له: «لا تبتئس يا بابليتو[1]، كل شيء سيسير على مايرام، إنها عملية بسيطة». حين لمسته عاد برأسه إلى الوراء كمن يشعر بالمهانة، ثم تمدد في الفراش حتى أخفى فمه تحت حافة الغطاء. من هناك، بصوت مخنوق، قال: «أستطيع أن أدعوك كورا، أليس كذلك؟». أنا طيبة جداً، كدت أشعر بالأسى لكل ذلك الخجل الذي كان، من جانب آخر، يسعى إلى الثأر، لكنني كنت أدرك أنني لا يجب أن أتساهل في هذه الحالة لأنني فيما بعد سيصعب عليّ السيطرة عليه، فالمريض تنبغي السيطرة عليه وإلا سيحدث المعتاد، مشاكل ماريا لويسا مع غرفة 14 أو لوم

1- تصغير بابلو، للتدليل ـ م.

Twitter: @ketab_n

الدكتور دي لويسي الذي يفطن إلى هذه الأمور بما لديه من حاسة شم كلب. قالت لي قبل أن تأخذ الصبّانة وتذهب: «الآنسة كورا». شعرت بالغيظ، شعرت برغبة في ضربها، في القفز من الفراش وطردها ركلاً، أو... لا أفهم كيف قلت لها: «لو كنتُ صحيحاً لعاملتني على نحو آخر». تظاهرت بأنها لم تسمعني ولم تلتفت حتى، ولبثت وحيداً وبلا رغبة في القراءة، بلا رغبة في أي شيء؛ في حقيقة الأمر، كنت أفضل أن تجيبني غاضبة حتى أسألها الصفح، لأن ذلك في الواقع لم يكن ما أردت قوله، كان حلقي منقبضاً ولا أدري كيف خرجت كلماتي، قلت لها ما قلت فقط لشعوري بالحنق، لكن لم يكن هذا ما أردت، أو قد يكون ما أردته لكن بطريقة أخرى.

أجل، هم دائماً هكذا، المرأة منا تداعبهم، تقول لهم عبارة لطيفة، وفي الحال يظهر الذكر، لا يريدون أن يدركوا أنهم مازالوا صغاراً. يجب أن أحكي ذلك لمارثيال، سيستمتع بذلك، وغداً حين يراه على سرير العمليات سيستمتع أكثر، مازال غضاً، البائس، بذلك الوجه الأحمر من الخجل، هذه الحرارة الملعونة التي تصعد إلى جلدي، ماذا أفعل كي لا يحدث لي ذلك؟ ربما بأخذ نفس عميق قبل أن أتكلم، لا أعرف. لا شك أنها ذهبت غاضبة، أنا متيقن من أنها سمعتني جيداً، لا أدري كيف قلت لها ما قلته، أعتقد أنني حين سألتها هل بوسعي أن أدعوها كورا فقط لم تغضب، أجابتني بأن أدعوها «آنسة ...» لأن هذا من واجبها، لكنها لم تكن غاضبة، ودليل ذلك أنها جاءت وداعبت وجهي؛ لكن، كلا، ذلك كان قبلها، داعبتني أولاً وحينئذٍ سألتها أن أدعوها كورا فقط وأفسدت كل شيء. ونحن الآن كما كنا من قبل ولن يغمض لي جفن وإن أعطوني أنبوب الأقراص كله. بطني يؤلمني أحياناً، ما أغرب أن تمر بيدك وتشعر

Twitter: @ketab_n

بأنك بهذه النعومة، لكن المحزن أنني أعود فأتذكر كل شيء، وأتذكر أريج اللوز، صوت كورا، لها صوت أجش لا يناسب فتاة في هذه السن وبهذا الحسن، كصوت مطربي البوليرو، شيء يداعب وإن تكن غاضبة. حين سمعت وقع أقدام في الممر رقدت تماماً وأغمضت عينيّ، لم أرد رؤيتها، لم تكن تعنيني رؤيتها، من الأفضل أن تتركني في سلام، شعرت بها تدخل وتشعل ضوء السقف، كان يتظاهر بالنوم كالملاك ويده تغطي وجهه ولم يفتح عينيه إلى أن بلغت حافة الفراش. وحين رأى ما أحضرته كست الحمرة وجهه فشعرت من جديد بالأسى نحوه، وبشيء من الضحك، لقد كان شديد الحمق حقيقةً. «لنرَ يا بني، اخفض البنطلون واستلقِ على الجانب الآخر»، والمسكين على وشك أن يرفس برجليه كما كانَ يفعل مع أمه حين كان في الخامسة ـ كما أتخيل ـ ويقول لها لا ويبكي ويختبيء تحت الغطاء ويصرخ، لكن التعس لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً من ذلك ساعتها، راح فقط يحدق في المحقنة الشرجية ثم فيّ فيما كنت أنتظر وفجأةً استدار وأخذ يحرك يديه تحت الغطاء ولكن ذلك لم يفده في شيء بينما كنت أعلق المحقنة في مسند الفراش، اضطررت إلى إزاحة الغطاء وطلبت منه أن يرفع مؤخرته قليلاً حتى أتمكن من خفض البنطلون بشكل أنسب ووضع منشفة تحته. «لنرَ، ارفع ركبتيك قليلاً، هكذا أفضل، استلقِ على بطنك أكثر، أقول لك استلقِ على بطنك أكثر، هكذا».

لزم بالغ الصمت لكن كأنه يصرخ؛ من ناحية، كان باعثاً على الضحك أن أرى مؤخرة المعجب الشاب، على أني ـ مرة أخرى ـ شعرت بالأسى لأجله، لاح الأمر حقيقةً كأنني أعاقبه على ما قاله. نبهته: «قل لي لو كان شديد السخونة»، لكنه لم يرد، ربما كان يعض قبضة يده، ولم

Twitter: @ketab_n

أشأ النظر إلى وجهه، لذا جلست على حافة الفراش وانتظرت أن يقول شيئاً، بيد أنه على الرغم من كمية السائل احتمله حتى النهاية بلا كلمة واحدة، وحين انتهيت قلت له، وهذا بالفعل قلته كي أثأر مما قاله لي من قبل: «يعجبني هكذا، مثل رجل كبير»، ثم غطيته وأنا أوصيه بأن يحتمل قدر استطاعته قبل أن يذهب إلى الحمّام. «أتريد أن أطفيء الضوء أم أتركه إلى أن تنهض؟»، سألتني وهي بالباب. لا أدري كيف تمكنت من قول إن الأمر ليستوي عندي، شيء من هذا القبيل، وسمعت صرير الباب عند إغلاقه، حينئذٍ غطيت رأسي بالبطانية، ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ رغم المغص عضضت كلتا يديّ وبكيت كثيراً ولا أحد، لا أحد، يمكنه أن يتخيل مقدار ما بكيت فيما كنت ألعنها وأسبها وأرشق سكيناً في صدرها خمس مرات، عشراً، عشرين مرة، وأنا ألعنها وأتلذذ بعذابها وبكيف تسترحمني كي أغفر لها ما فعلته بي.

إنه المألوف يا سوارِث، يقطع المرء ويفتح، وفي واحدة من تلك: المفاجأة الكبرى. بالطبع، في سنه، لدى الصبي كافة الفرص في صالحه لكنني مع ذلك سأتحدث إلى والده وسأكون صريحاً معه لئلا نجد أنفسنا في موقف حرج من حيث لا ندري. من المرجح أن تكون هناك استجابة جيدة، لكن ثمة شيئاً خطأ، تذكّر ما حدث عند بدء التخدير: لايبدو محتملاً في صبي في هذه السن. ذهبت لأراه بعد ساعتين ووجدته على ما يرام قياساً إلى ما استغرقته العملية من وقت. حين دخل الدكتور دي لويسي كنت أجفف للمسكين فمه، لم يتوقف عن التقيؤ وكان لا يزال تحت تأثير المخدر، لكن الدكتور فحصه بالسماعة أيضاً وأمرني بألا أتحرك من جانبه حتى يفيق تماماً. لا يزال والداه في الغرفة المجاورة، يُلاحظ أن السيدة غير معتادة هذه الأشياء، فجأة انتهت توبيخاتها، ويلوح الأب

Twitter: @ketab_n

كالخرقة. هيا يا بابليتو، تقيأ إن شئت، واشكُ ما يحلو لك، فهأنا هنا، أجل، بالطبع، أنا هنا، لا يزال المسكين نائماً لكنه يقبض على يدي كأنه يختنق، ربما اعتقد أني أمه، يعتقد جميعهم ذلك، يا للملل. هيا يا بابلو، لا تتحرك هكذا، اهدأ وإلا ستؤلمك أكثر، كلا، دع يديك هادئتين، لا يمكنك أن تلمس هذا. المسكين يجد مشقة في الإفاقة من التخدير. قال لي مارثيال إن العملية كانت طويلة جداً، وهذا غريب، ربما تعقد شيء: أحياناً لا تكون الزائدة الدودية ظاهرة، سأسأل مارثيال الليلة. نعم يا بني، أنا هنا، اشكُ كما يحلو لك ولكن لا تتحرك كثيراً بهذا الشكل، سوف أبلل شفتيك بهذه القطعة من الثلج في قطعة شاش، وهكذا لن تظمأ. نعم ياعزيزي، تقيأ أكثر، خفف عن نفسك كما تشاء. أية قوة في يديك! سوف تملؤني بالكدوم، أجل، أجل، ابكِ كما تشاء، ابكِ يا بابليتو فهذا يريح، ابكِ واشكُ، ففي النهاية أنت مستغرق في النوم وتعتقد أني أمك. أنت شديد البهاء، أتعلم؟ بهذا الأنف الأخنس قليلاً وهذه الأهداب كالستائر، تبدو أكبر الآن لأنك شاحب. الآن لن تحمرّ خجلاً مهما فعلت، أليس كذلك يا عزيزي البائس؟ تؤلمني يا ماما، تؤلمني هنا، دعيني أنزع هذا الثقل الذي وضعوه لي، ثمة شيء في بطني يثقلني كثيراً ويؤلمني يا ماما، قولي للمرضة أن تزيحه. حسنٌ يا بني، سيذهب الألم، اهدأ قليلاً، من أين لك هذه القوة! سأضطر إلى استدعاء ماريا لويسا كي تساعدني. هيا يا بابلو، سأغضب إن لم تكف عن الحركة، ستؤلمك أكثر بكثير لو واصلت الحركة على هذا النحو. أوه، يبدو أنك بدأت تسترد وعيك، تؤلمني هنا يا آنسة كورا، تؤلمني كثيراً هنا، افعلي شيئاً من فضلك، تؤلمني كثيراً هنا، أطلقي يدي، لم أعد أحتمل يا آنسة كورا، لم أعد أحتمل.

Twitter: @ketab_n

من حسن الطالع أنه نام، حبيبي المسكين، جاءت الممرضة تبحث عني في الثانية والنصف وأشارت إلي أن أمكث برهة معه لأنه تحسن، لكنني أراه بالغ الشحوب، يبدو أنه نزف كثيراً، عزائي أن الدكتور دي لويسي قال إن كل شيء جرى على ما يرام. كانت الممرضة متعبة من صراعها معه، لا أفهم لـمَ لم تسمح لي بالدخول إليه من قبل؟ في هذا المستشفى هم صارمون جداً. حل الليل تقريباً والولد نائم طوال الوقت، يُرى أنه خائر القوى، لكن يعن لي أن وجهه تحسن، تورد قليلاً. ما انفك يشكو بين الفينة والفينة لكنه لم يعد يريد لمس الضمادة ويتنفس في هدوء، أعتقد أنه سيمضي ليلة هادئة. كأنني لا أعرف ما ينبغي عمله، لكن لا مفر من ذلك، ما إن زايل السيدة ذعرها الأول حتى عاودت تعنيفات صاحبة العمل، «من فضلك، لا ينبغي أن تنقص الولد الرعاية ليلاً يا آنسة». قولي إنني أشفق عليك أيتها العجوز الغبية وإلا لكنت سترين كيف أعاملك. لكم أعرف هؤلاء، يعتقدن أنهن بإكرامية مناسبة في اليوم الأخير يصلحن كل شيء. وأحياناً حتى البقشيش ليس جيداً، لكن فيم يفيد إعمال الفكر؟ لقد طلبوا منها أن تذهب وأمسى كل شيء هادئاً. مارثيال، ابقَ قليلاً، ألا ترى الصبي نائماً، احكِ لي ما حدث هذا الصباح. حسنٌ، إذا كنت في عجلة من أمرك فلندعه إلى فيما بعد، ضع في اعتبارك أن ماريا لويسا قد تدخل، هنا لا يا مارثيال. وبالطبع لابد للسيد من قضاء وطره، قلت لك إنني لا أريد أن تقبّلني أثناء العمل، ليس مقبولاً، كأنما ليس لدينا الليل كله للقبل أيها العبيط. هيا، اذهب، قلت لك وإلا سأغضب أيها الأحمق الوقح. أجل يا عزيزي، إلى اللقاء، نعم، بالطبع، كثيراً جداً.

الغرفة معتمة لكن هذا أفضل، لا رغبة لي حتى في أن أفتح عيني.

Twitter: @ketab_n

لا تؤلمني تقريباً، ما أجمل أن أتنفس بهدوء هكذا، دون ذلك الغثيان كل شيء ساكن، الآن أتذكر أني رأيت ماما، قالت لي لا أدري ماذا، كنت أحس بألم شديد، كدت لا أرى العجوز، كان واقفاً عند مؤخرة السرير ويغمز لي بعينه، المسكين لم يتغير. أشعر بقليل من البرد، أريد بطانية أخرى. يا آنسة كورا، أريد بطانية أخرى. لقد كانت هناك! ما كدت أفتح عيني حتى رأيتها جالسة إلى جانب النافذة تطالع مجلة. اقتربت في الحال ودثرتني، لم أضطر إلى قول شيء تقريباً إذ انتبهت هي في التو. الآن أتذكر، أعتقد أنني ـ هذا المساء ـ خلتها أمي وكانت تهدئني أو ربما كنت أحلم. أكنت أحلم يا آنسة كورا؟ كنت تمسكين بيدي، أليس كذلك؟ قلت قدراً كبيراً من الهراء، لكنني في الحقيقة كنت أتألم كثيراً، والغثيان... أستميحك العذر، من المؤكد أن مهنة التمريض ليست شيقة جداً. أجل، أنت تضحكين لكنني مدرك، من المحتمل أنني لوثتك أيضاً. حسنٌ، لن أتكلم أكثر. أنا على ما يرام هكذا، ولم أعد أشعر بالبرد. كلا، لا تؤلمني كثيراً، قليلاً فقط. هل الوقت متأخر يا آنسة كورا؟ أجل، عليك الآن أن تلزم الصمت، قلت لك لا ينبغي أن تكثر من الكلام، ابتهج لأنك لم تعد تتألم واهدأ تماماً. كلا، ليس الوقت متأخراً. أغمض عينيك ونم. هكذا، نم الآن.

حسنٌ، كانت تلك رغبتي لكن الأمر ليس هيناً. أحياناً يلوح لي أنني سأنام لكن، فجأةً، يخزني الجرح أو يدور كل شيء في رأسي فأضطر إلى فتح عيني والنظر إليك، أنت جالسة إلى جانب النافذة وتضعين الشاشة الحاجزة كي لا يزعجني الضوء. لـمَ تمكثين هنا كل الوقت؟ لك شعر رائع، يتألق حين تحركين رأسك. ما أصغرها! لا أصدق أنني اليوم ظننتها ماما، شيء لا يصدق. ويعلم الله ماذا قلت لها، لابد أنها

Twitter: @ketab_n

ضحكت مني مرة أخرى. لكنها كانت تمسح على شفتي بالثلج، وكان ذلك يريحني كثيراً، الآن أتذكر، مسحت جبهتي وشعري بماء الكولونيا وكانت تمسك بيدي لئلا أنزع الضمادة. لم تعد غاضبة مني، قد تكون ماما اعتذرت لها أو شيئاً من هذا القبيل، كانت تنظر إليّ بشكل آخر حين قالت لي: «أغمض عينيك ونم». ما أحب أن تنظر إليّ هكذا، لا أصدق ما حدث في اليوم الأول حين سلبتني الحلوى. وددت لو قلت لها إنها جميلة، إنني لا أضمر لها شيئاً، على العكس، أحب أن تكون هي من تسهر على راحتي وليس الممرضة الضئيلة الجسم. وددت لو مسحت على شعري مرة أخرى بماء الكولونيا، لو اعتذرت لي، لو قالت لي إن بوسعي أن أدعوها كورا فقط.

ظل نائماً فترة طيبة، وفي الثامنة قدرت أن الدكتور دي لويسي لن يتأخر فأيقظته لأقيس حرارته. كان لون وجهه أفضل إذ أفاد من النوم. ما إن رأى مقياس الحرارة حتى أخرج يداً من تحت البطانية لكنني قلت له أن يلزم الهدوء. لم أشأ النظر إلى عينيه حتى لا يتعذب ومع ذلك خضب الدم وجهه وطفق يقول إنه يستطيع وحده. لم ألتفت إليه بالطبع لكنه كان متوتراً، المسكين، فلم يكن أمامي سوى أن أقول: «هيا يا بابليتو، أنت الآن كبير، لن تفعل ذلك في كل مرة، أليس كذلك؟». وكالعادة، برغم ضعفه هذا لم يتمكن من كبح دموعه، أظهرت أنني لم أنتبه ودونت درجة الحرارة وذهبت لأحضر له الحقنة. حين عادت جففتُ دموعي في الملاءة وكنت حانقاً على نفسي للغاية وودتُ لو دفعت أي ثمن لقاء القدرة على الكلام، لقاء أن أقول لها إن الأمر لا يهمني، إنه في الواقع لا يهمني غير أني لا أستطيع تجنب البكاء. قالت وفي يدها المحقن: «هذا لا يؤلم مطلقاً، فقط حتى تنام طوال الليل». كشفت عني الغطاء ومن

Twitter: @ketab_n

جديد صعد الدم إلى وجهي، لكنها ابتسمت قليلاً وأخذت تمسح على فخذي بقطعة من القطن مبللة. قلت لها: «لا تؤلم مطلقاً»، إذ كان عليّ أن أقول شيئاً، لم يكن معقولاً أن أظل هكذا فيما هي تنظر إليّ. قالت لي وهي تخرج الإبرة وتمسح عليّ بقطعة القطن: «أرأيت، أرأيت أنها لا تؤلمك في شيء. لا شيء سيؤلمك يا بابليتو». دثرتني ومسحت بيدها على وجهي. وأنا أغلقت عيني وودت لو كنت ميتاً، أن أكون ميتاً وهي تمسح على وجهي بيدها باكية.

لم أفهم كورا يوماً لكنها في هذه المرة تجاوزت الحد. الحق أنني لا أهتم إذ لم أفهم النساء، فالشيء الوحيد الذي يستحق العناء هو أن يحببنك. إذا كن متوترات، إذا وقعن في مشاكل لأي سبب تافه: حسنٌ يا طفلتي، وانتهى الأمر، قبليني وينتهي. واضح أنها مازالت غضة، سيمر وقت طويل قبل أن تتعلم العيش في هذه المهنة الملعونة، المسكينة ظهرت الليلة متأثرة للغاية، واستغرقت نصف الساعة محاولاً أن أجعلها تنسى ذلك الهراء. حتى الآن لم تجد وسيلة التعامل مع بعض المرضى، حدث الشيء نفسه مع عجوز الغرفة الثانية والعشرين، بيد أنني اعتقدت حينذاك أنها تعلمت شيئاً، والآن عاد هذا الصبي ليسبب لها المتاعب. كنا نشرب الماتي في حجرتي نحو الثانية والنصف صباحاً، ثم ذهبت لتعطيه الحقنة وحين عادت كان قد تعكر مزاجها، لم ترد معرفة أي شيء عني. يزيدها جمالاً ذلك التعبير الغاضب، الحزين؛ بعد قليل انبريت أسري عنها، وفي النهاية راحت تضحك وحكت لي، في مثل تلك الساعة أحب أن أخلع ملابسها وأحس بها ترتعد قليلاً كأنها تشعر بالبرد. لابد أن الوقت تأخر يا مارثيال، آه، إذاً مازال بوسعي أن أمكث برهة، فموعد الحقنة الثانية في الخامسة والنصف والممرضة الإسبانية لا تصل قبل السادسة. اغفر لي

Twitter: @ketab_n

يا مارثيال فأنا عبيطة، من الحمق أن أهتم لهذا الصبي إلى هذا الحد، فأنا في نهاية المطاف أسيطر عليه لكنه أحياناً يثير شفقتي، ففي هذه السن هم شديدو البله، شديدو الكبرياء، إن أستطع أطلب من الدكتور سوارث أن يبدلني، ثمة مريضان في طور النقاهة في الطابق الثاني، من البالغين، يمكنك أن تسألهما بهدوء هل قضيا حاجتهما وتقرب لهما المبولة وتنظفهما إذا لزم الأمر، كل هذا بينما تتحدث معهما عن الطقس أو السياسة، كما تحدث الأشياء الطبيعية، كل شخص في وضعه الطبيعي يا مارثيال وليس كما يحدث هنا، أتفهم؟ أجل، بالطبع، ينبغي أن أعد نفسي لكل شيء، كم من مرة سأضطر إلى تمريض صبية في هذه السن، إنها مسألة تقنية كما تقول أنت. أجل ياعزيزي، بالطبع، لكن ما حدث أن كل شيء بدأ بداية سيئة بسبب الأم، فذلك لم ينمح، أتعلم؟ منذ الدقيقة الأولى حدث شيء من عدم التفاهم، والصبي لهَ كبرياؤه ويتألم، خاصةً أنه في البدء لم يكن يدري بكل ما سيأتي فيما بعد وأراد أن يبدو رجلاً، أن ينظر إليّ كأنه أنت، كأنه رجل. والآن لا أستطيع حتى أن أسأله إذا كان يريد أن يتبول، والأدهى أن بمستطاعه أن يتحمل طوال الليل إذا مكثت أنا في غرفته. إنه لأمر مضحك حين أتذكره، كان يريد أن يقول نعم ولم تواته الشجاعة، حينئذٍ ضايقني كل ذلك الهراء وأجبرته حتى يعتاد التبول دون أن يتحرك، مستلقياً جيداً على ظهره. ودائماً ما يغمض عينيه في مثل تلك اللحظات غير أن ذاك أسوأ تقريباً إذ يوشك أن يجهش بالبكاء أو يسبني، ويتردد بين الأمرين ولا يستطيع، فهو صغير السن جداً يا مارثيال، ثم هناك تلك السيدة التي يبدو أنها جعلت منه هذ الأحمق. الولد هنا، الولد هناك، رغم قبعته وبذلته الأنيقة لا يزال الولد الصغير المعتاد، كنز أمه. أوه، ثم آتي أنا بالتحديد لأمرضه، أنا، الفولت

Twitter: @ketab_n

العالي كما تقول أنت، في حين أن ماريا خوسيه كانت تناسبه لأنها تشبه خالته كثيراً، وكانت ستنظفه من كل جانب دون أن يتخضب وجهه. كلا، الحق أن حظي سيء يا مارثيال.

كنت أحلم بدرس الفرنسية حين أَشْعَلَتْ مصباح الفراش، أول ما أراه دائماً شعرها، قد يكون لأنها تضطر إلى الانحناء من أجل الحقنة أو بسبب أي شيء، شعرها بالقرب من وجهي، في إحدى المرات دغدغني في فمي وله شذى جميل، ودائماً تبتسم قليلاً عندما تمسح على جسدي بقطعة من القطن، وأنا أنظر إلى يدها الواثقة وهي تضغط المحقن وئيداً، وإلى السائل الأصفر يسري في بطء ويؤلمني. «كلا، لا يؤلمني البتة». لن أتمكن أبداً من قول: «لا يؤلمني البتة يا كورا». ولن أدعوها الآنسة كورا، لن أدعوها هكذا أبداً. سأتحدث إليها أقل القليل ولن أدعوها الآنسة كورا وإن استعطفتني جاثية على ركبتيها. كلا، لا يؤلمني البتة. كلا، شكراً، أنا على ما يرام، سأواصل النوم، شكراً.

من طيب الطالع أن الدم عاد إلى محياه بيد أنه ما زال واهناً، تمكن بالكاد من إعطائي قبلة ولم ينظر إلى خالته إستر تقريباً رغم أنها أحضرت له المجلات ورباط عنق رائع من أجل اليوم الذي نعود به إلى المنزل. ممرضة الصباح امرأة محببة إلى النفس، شديدة التواضع، ويطيب الحديث معها، تقول إن الولد نام حتى الثامنة وإنه تناول بعض اللبن، يبدو أنهم الآن سيبدأون في تغذيته، سأقول للدكتور سوارث إن الكاكاو يتعبه، أو ربما أخبره والده بذلك لأنهما جعلا يتحدثان برهة. هلا تفضلتِ بالخروج هنيهة ياسيدتي، سنرى كيف حال هذا الرجل. ابقَ أنت يا سيد موران، لأن الأم قد تتأثر برؤية كل هذه الضمادات. دعنا نرَ قليلاً يا صديقي. أيؤلمك هنا؟ طبعاً، هذا طبيعي. وهنا؟ قل لي إن كنت تتألم هنا أم أنها

Twitter: @ketab_n

مازالت حساسة فقط! حسنٌ، نحن نسير على مايرام يا صديقي الصغير. وهكذا، خمس دقائق، يؤلمني هنا، هنا مازال حساساً، والعجوز ينظر إلى بطني كأنه يراها لأول مرة. هذا غريب، لكنني لا أشعر بالراحة إلا حين يذهبان، العجوزان البائسان الحزينان، ما الذي بوسعي أن أفعله؟ هما يضايقانني، يقولان دائماً ما لا يجب أن يقال، خاصةً ماما، والحمد لله أن المرضة الضئيلة الحجم تبدو صماء وتتحمل كل شيء بذلك الوجه ذي تعبير الانتظار الذاتي، المسكينة. وانظر كيف أتت لتفسد كل شيء بموضوع الكاكاو هذا، كما لو كنت طفلاً رضيعاً. تداخلني رغبة في النوم خمسة أيام متتالية حتى لا أرى أحداً، وعلى الأخص كورا، لأصحو تحديداً حين يأتون ليأخذوني إلى المنزل. ربما يلزم الانتظار أياماً أخرى يا سيد موران، سيوافيك الدكتور دي لويسي بذلك، إذ إن العملية تعقدت على غير المتوقع، أحياناً تظهر بعض المفاجآت الصغيرة. وبالطبع، بالنظر إلى بنية هذا الغلام، لا أعتقد أن ثمة مشكلة، لكن من الأفضل أن تقول لزوجتك إنها لن تكون مسألة أسبوع كما كنا نعتقد في البداية. آه، بالطبع، حسنٌ، لتتحدث في هذا مع المدير، فهذه أمور داخلية. والآن، انظر، أليس هذا سوء حظ يا مارثيال... لقد أنذرتك بذلك ليلة أمس. فهذه الحالة ستستمر أكثر بكثير مما توقعناه. أجل، أعلم أنه ليس مهماً بيد أنك يمكنك أن تكون أكثر تفهماً، تعلم جيداً أنني لا يسرني أن أمرض هذا الصبي، أما هو فأقل سروراً مني، المسكين. لا تنظر إليّ هكذا، لـمَ لا أشعر نحوه بالأسى؟ لا تنظر إليّ على هذا النحو!

لم يحظر عليّ أحد القراءة لكن المجلات تسقط من يدي، على الرغم من أنني ينقصني فصلان لأنتهي منها، فضلاً عما أحضرته خالتي إستر. وجهي ملتهب، يبدو أنني محموم أو أن هذه الغرفة دافئة جداً، سأطلب من كورا أن توارب النافذة قليلاً أو ترفع عني إحدى البطانيات. وددت

Twitter: @ketab_n

لو نمت ، فهذا أشد ما أبتغيه، أن تكون هي جالسة هناك تقرأ مجلة فيما أرقد دون أن أراها، غير مدرك أنها هناك، على أنها الآن لن تمكث معي ليلاً، مرت أدق مرحلة وسيتركونني أنام وحدي. أعتقد أنني بين الثالثة والرابعة نمت فترة، في تمام الخامسة جاءت ومعها دواء جديد، نقط شديدة المرارة. تبدو دائماً كأنها استحمت وأبدلت ملابسها في التو، منتعشة جداً ويفوح منها شذى التلك المعطر واللافندر. قالت لي: «هذا الدواء سيء جداً، أعلم هذا» وابتسمت لتشجعني. قلت لها: «كلا، إنه مر قليلاً فقط». سألتني وهي ترج مقياس الحرارة: «كيف قضيت اليوم؟». قلت لها على ما يرام، نائماً، وإن الدكتور سوارِث وجدني أحسن وإنني لا أتألم كثيراً. قالت وهي تناولني مقياس الحرارة: «حسنٌ، حينئذٍ بوسعك أن تعمل قليلاً». لم أدرِ بماذا أجيبها فذهبت لتغلق خصاص النافذة ورتبت الزجاجات على المنضدة فيما كنت آخذ الحرارة. بل إنني تمكنت من قراءتها قبل أن تأتي هي لتأخذ مقياس الحرارة. «لكن درجة حرارتي مرتفعة جداً»، قال هذا شبه مذعور. كان أمراً بالغ السوء، سأظل دائماً نفس الغبية، كي أجنبه الحرج أعطيه مقياس الحرارة وبالطبع الصبي الصغير لا يضيع وقتاً في اكتشاف أنه يطير محموماً. قلت له غاضبة من نفسي لا منه: «دائماً ما يحدث هذا في الأيام الأربعة الأولى، فضلاً عن أن أحداً لم يطلب منك أن تنظر». سألته هل حرك بطنه فأجابني بالنفي. كان وجهه يتصبب عرقاً فجففته له ومسحت عليه بماء الكولونيا؛ كان أغمض عينيه قبل أن يجيبني ولم يفتحهما حين كنت أمشط له شعره قليلاً حتى لا يضايقه عندما يسقط على وجهه. تسع وثلاثون درجة كانت حمى بالغة في الحقيقة. قلت له: «حاول أن تغفو برهة» فيما كنت أحسب في أية ساعة يمكنني إبلاغ الدكتور سوارِث. دون أن يفتح عينيه أتى

Twitter: @ketab_n

بإيماءة كأنه منزعج، ثم قال لي مشدداً على كل كلمة: «أنتِ شريرة معي يا كورا». لم يسعني إجابته بشيء، مكثت إلى جانبه إلى أن فتح عينيه ونظر إليّ بكل ما به من حمى وحزن. رغماً عني تقريباً مددت يدي بغية مداعبة جبهته لكنه رفضني بيده ويبدو أن شيئاً في الجرح وخزه لأنه تقلص من الألم. وقبل أن أتمكن من الرد قال لي بصوت شديد الوهن: «ما كنت تعاملينني هكذا لو أنك عرفتني في مكان آخر». كنت على شفا القهقهة إذ كان من السخف أن يقول لي ذلك فيما اغرورقت عيناه بالدموع فحدث ما يحدث لي دائماً، شعرت بالحنق وبما يشبه الخوف، شعرت بغتةً بأنني منكشفة أمام ذلك الصبي الغرير. تمكنت من السيطرة على نفسي (والفضل في ذلك لمارثيال، علّمني ضبط النفس، وأتقن ذلك بمرور الوقت)، فنهضت وكأن شيئاً لم يكن ووضعت المنشفة على المشجب وسددت قنينة الكولونيا. على أية حال، كنا الآن نعرف حدودنا، والحق أن ذلك كان أفضل كثيراً: ممرضة، مريض، ولا شيء أكثر. ولتضع له أمه الكولونيا، وأنا عليّ أن أقوم نحوه بمهام مغايرة، وسأقوم بها دون أدنى اعتبار. ولا أدري مَبرر مكثي هناك مدة أطول من الواجبة. قال لي مارثيال إنني أردت أن أعطيه فرصة ليعتذر، كي يطلب الصفح. لا أدري، قد يكون ذلك وربما لمبرر آخر، ربما مكثت كي يواصل إهانتي، كي أرى أي مبلغ سيبلغه. لكنه ظل مغمض العينين تتصبب جبهته ووجنتاه عرقاً، كنتُ كمن ألقي به في ماء يغلي، أرى بقعاً بنفسجية وحمراء عندما أغمض عيني بشدة كي لا أراها، لعلمي أنها مازالت هناك، وكنت مستعداً للتنازل عن أي شيء لقاء أن تنحني مرة أخرى وتجفف جبهتي كأنني لم أقل شيئاً، لكن هيهات، كانت ذاهبة لا تلوي على شيء، دون أن تقول شيئاً، وأنا كنت سأفتح عينيّ لأجد

Twitter: @ketab_n

الليل ومصباح الفراش والغرفة خاوية وبعضاً من أريجها المتبقي، وأكرر لنفسي عشر مرات أنني أصبت حين قلت لها ما قلت، كي تتعلم، حتى لا تعاملني كصبي، كي تتركني لحالي، كي لا تذهب.

يبدأ دائماً في الساعة نفسها، بين السادسة والسابعة صباحاً، يبدو أنه زوج واحد يعشش في إفريز الفناء، ذكر الحمام يهدل والأنثى تجيبه، ثم بعد برهة يكلان، قلت ذلك للممرضة الصغيرة الحجم التي تجيء كي تغسلني وتحضر لي الفطور، هزت منكبيها وقالت إن مرضى آخرين تشكوا من الحمام لكن المدير لم يشأ إبعاده. الآن لا أدري حتى منذ متى وأنا أسمعه، ففي صباح الأيام الأولى كنت نائماً أو أتألم للغاية فلم أنتبه، لكنني منذ ثلاثة أيام أسمع الحمام ويغشاني حزن، كم تمنيت أن أكون بمنزلي لأسمع نباح ميلورد، لأنصت إلى خالتي إستر التي تستيقظ في هذه الساعة لتذهب إلى القداس. تأبى الحمى الملعونة أن تنخفض، سيحجزونني هنا إلى ماشاء الله، سأسأل الدكتور سوارِث هذا الصباح نفسه، ففي نهاية الأمر يمكنني أن أكون في أحسن حال في المنزل. انظر يا سيد موران، أريد أن أكون صريحاً معك، حالته ليست بسيطة البتة. كلا يا آنسة كورا، من الأفضل أن تواصلي رعايتك هذا المريض، وسأقول لك له. والآن، ماذا أفعل يا مارثيال؟... تعالي، سأعد لكِ قهوة ثقيلة، انظري إلى نفسكِ، فمازلت حمقاء، غير معقول... اسمعي يا امرأة، لقد تحدثت إلى الدكتور سوارِث ويبدو أن الولد...

من حسن الطالع أنها تصمت، محتمل أنها تطير بعيداً، في أنحاء المدينة، ما أسعد حظها، الحمائم! هذا الصباح لا ينتهي، سررت حين ذهب العجوزان، الآن يحضران بكثرة منذ إصابتي بالحمى. حسنٌ، إذا اضطررت إلى البقاء هنا أربعة أيام أو خمسة أخرى ففيم أهتم. في المنزل

Twitter: @ketab_n

سأكون أفضل بالطبع، لكن قد تعاودني الحمى وأشعر بألم شديد من آن إلى آخر. حين أفكر في أن ليس بمستطاعي قراءة حتى مجلة واحدة، وإنه لوهن كأنما لم يبقَ دم بجسدي. لكن كل هذا مرده الحمى، قال لي ذلك ليلة أمس الدكتور دي لويسي، والدكتور سوارث أعاده على مسامعي هذا الصباح، هما أعلم. أنام كثيراً لكن كأنما الوقت لا يمر، والساعة دائماً قبل الثالثة، كأنما يعنيني في شيء أن تكون الثالثة أو الخامسة. على العكس، في الثالثة تذهب الممرضة الصغيرة الجسم، وذلك أمر محزن لأنني معها أشعر بأنني على ما يرام. لو أنني استطعت النوم دفعة واحدة حتى منتصف الليل لتحسنت كثيراً. بابلو، هذه أنا، الآنسة كورا، الممرضة الليلية التي تؤلمك بالحقن. أعلم أنها لا تؤلمك أيها العبيط، إنها دعابة. واصل نومك كما تشاء، لقد انتهيت. قال لي «شكراً» دون أن يفتح عينيه، كان في وسعه أن يفتحهما، على الرغم من أنهم حظروا عليه كثرة الكلام. قبل أن أخرج التفت فجأةً فإذا به ينظر إليّ، شعرت بأنه كان ينظر إليّ طيلة الوقت من وراء ظهري. عدت وجلست إلى جانب الفراش وقست له النبض ورتبت الملاءات التي كان يشعثها بيديه المحمومتين. كان ينظر إلى شعري، بعد ذلك غض بصره وتجنب عينيّ. ذهبت لأحضر الأشياء اللازمة لإعداده، وتركني أقوم بكل شيء بلا كلمة واحدة، وعيناه ناشبتان في النافذة، يتجاهلني. سيحضرون لنقله في تمام الخامسة والنصف، لا يزال لديه وقت للنوم، كان والداه ينتظران في الطابق الأرضي لأنه قد يداخله خوف إذا رآهما في هذه الساعة. وكان مزمعاً أن يمر الدكتور سوارث قبل ذلك ليشرح له أنهم يجب أن يكملوا العملية، أي شيء من شأنه ألا يصيبه بالقلق أكثر مما ينبغي. لكنهم، في المقابل، أرسلوا مارثيال، باغتتني رؤيته وهو يدخل على ذلك النحو

Twitter: @ketab_n

لكنه أشار إليّ كيلا أتحرك ووقف عند مؤخرة السرير يقرأ ورقة درجات الحرارة إلى أن يعتاد بابلو حضورهه. بدأ يحادثه مداعباً، وأجرى المحادثة المجرى الذي يتقنه، البرد في الشارع، الغرفة الدافئة...، وكان هو ينظر إليه دون أن يتفوه بكلمة، كأنما ينتظر، انتابني شعور غريب، وددت لو ذهب مارثيال وتركني وحدي معه، كنت قادرة على التحدث إليه أفضل من أي شخص، وربما لا، قد لا أكون الأفضل. أجل، أعلم يا دكتور، ستجرى لي عملية أخرى، أنت الذي خدرتني في المرة السابقة، حسنٌ، هذا أفضل من ملازمة الفراش وبهذه الحمى. كنت أعلم أنكم في النهاية ستتدخلون، لم تؤلمني إلى هذا الحد منذ أمس، ألم مختلف، من مكان أعمق. وأنتِ، الجالسة هناك، دعك من هذا التعبير، لا تبتسمي كأنك جئت تدعينني إلى السينما. اذهبي معه وقبليه في الممر، لم أكن مستغرقاً في النوم حين غضبت منه ذلك المساء لأنه قبلك هنا. اذهبا معاً، اتركاني أنم، فحين أنام لا أتألم كثيراً.

حسنٌ يا صغيري، الآن سنسوي هذا الأمر إلى الأبد، إلى متى ستظل تحتل سريراً؟ عِد ببطء، واحد، اثنان، ثلاثة. هذا طيب، واصل أنت العد وفي غضون أسبوع ستستطيع أن تلتهم قطعة كبيرة من اللحم الطري في منزلك. ربع الساعة منحنياً يا صغيرتي ثم عودة إلى خياطة الجرح. كان يجب أن تري وجه الدكتور دي لويسي، لا يألف المرء تماماً هذه الأمور. انظري، تحينت الفرصة وطلبت من الدكتور سوارث أن يستبدلوك كما أردتِ، قلت له إنك منهكة من جراء هذه الحالة الخطرة؛ قد ينقلونك إلى الطابق الثاني إذا تحدثت إليه أنتِ أيضاً. حسنٌ، افعلي ما شئت، ظللت تشكين تلك الليلة والآن تنتابك الرغبة في فعل الخير. لا تغضبي مني، لقد فعلت ذلك من أجلك. أجل، بالطبع، فعلت ذلك من أجلي لكنك ضيعت وقتك، سأبقى معه هذه الليلة وكل ليلة. أخذ يفيق في الثامنة

Twitter: @ketab_n

والنصف، وذهب أبواه في الحال لأن ذلك كان أفضل حتى لا يرى وجهيهما على تلك الحال، البائسان، وحين جاء الدكتور سوارث سألني بصوت خفيض إذا ما كنت أرغب في أن تحل مكاني ماريا لويسا فأومأت له بأنني سأبقى ورحل. مكثت ماريا لويسا معي جزءاً من الوقت لأننا اضطررنا إلى منعه عن الحركة وتهدئته، فيما بعد سكنت حركته فجأةً ولم يتقيأ تقريباً؛ ومن شدة ضعفه عاد إلى النوم في الحال دون أن يشكو كثيرا حتى العاشرة. إنه الحمام، سترين يا ماما، يُسمع هديله ككل صباح، لا أدري لمَ لا يطردونه، فليطر إلى شجرة أخرى. أعطني يدك يا ماما، أشعر ببرد شديد. أوه، كنت أحلم إذن، لاح لي أننا في الصباح وأن الحمام كان هناك. اغفري لي أن ظننتك ماما. مرة أخرى يشيح بوجهه، يعود إلى إحنته، مرة أخرى يلقي باللوم كله عليّ. رعيته كأنني لم ألتفت إلى أنه لا يزال غاضباً مني، جلست إلى جواره وبللت شفتيه بالثلج. حين نظر إليّ بعد أن مسحت بماء الكولونيا يديه وجبهته دنوت منه أكثر وابتسمت له. قلت له: «ادعني كورا، أعلم أننا لم نتفاهم منذ البداية لكننا سنصير صديقين حميمين يا بابلو». رنا إليّ صامتاً. «قل لي: أجل يا كورا». كان يرنو إليّ دائماً. بعد ذلك قال: «الآنسة كورا» وأغمض عينيه. رجوته: «كلا يا بابلو، كلا»، وأنا أقبل خده قريباً من فيه، «سأكون كورا لك، لك أنت فقط». اضطررت إلى الرجوع إلى الخلف، رغم ذلك لوث وجهي. جففته، رفعت رأسه كي يمسح فمه، عدت أقبله وأهمس في أذنه. قال: «اغفري لي، لم أستطع تجنب ذلك». قلت له ألا يكون أحمق، فلذلك كنت أرعاه أنا، أن يتقيأ كما يشاء ليستريح. قال لي وهو ينظر إلى جهة أخرى بعينين خاويتين: «وددت لو حضرت أمي». رحت أداعب شعره قليلاً ورتبت البطانيات في انتظار أن يقول شيئاً، لكنه كان بعيداً جداً، شعرت بأنني سأتسبب له في معاناة أكبر إذا مكثت هناك. عند الباب التفت وانتظرت. كانت عيناه متسعتين جداً وناشبتين في السقف. قلت

Twitter: @ketab_n

له: «بابليتو، من فضلك يا بابليتو، من فضلك يا عزيزي». عدت حتى الفراش وانحنيت لأقبله؛ كانت له رائحة برودة، ووراء ماء الكولونيا كان القيء، المخدر. إذا مكثت معه ثانية واحدة سأجهش بالبكاء أمامه، من أجله. قبلته مرة أخرى وخرجت أركض، هبطت أبحث عن أمه وعن ماريا لويسا؛ على الأقل تلك الليلة لم أكن أريد العودة؛ بعد ذلك، كنت أدرك جيداً أن لا ضرورة للعودة إلى الغرفة وأن مارثيال وماريا لويسا سيضطلعان بكل شيء حتى تعود الغرفة من جديد خالية.

Twitter: @ketab_n

على هذا النحو سيكون يوماً تمثاله ، يفكر البروقنصل[1] في سخرية وهو يرفع ذراعه ويثبتها في إيماءة تحية ويتحجر لهتاف جمهور لم تجهده ساعتان من السيرك والقيظ. إنها لحظة المفاجأة التي وعد بها؛ يخفض البروقنصل ذراعه وينظر إلى امرأته التي ترد إليه ابتسامة الاحتفالات الخالية من التعبير. لا تعلم إيريني ما سيأتي بعد ولكنها في ذات الوقت كأنما تعلمه، فحتى غير المألوف يغدو مألوفاً إذا تعلمنا كيف نتحمل نزوات السيد بتلك اللامبالاة التي يمقتها البروقنصل. دون أن تلتفت حتى إلى الحلبة تتوقع مصيراً أصبح محتوماً، تتابعاً قاسياً ورتيباً. ليكاس، صاحب بساتين الكرم، وأورانيا، زوجه، هما أول من يهتف باسم يتلقفه الجمهور ويردده. يقول البروقنصل:«كنت أحتفظ لك بهذه المفاجأة، لقد أكدوا لي أنكِ تستحسنين أسلوب هذا المصارع». وإيريني، ديدبان ابتسامتها، تومىء برأسها لتشكره. يردف البروقنصل: «وبما أنكِ تمنحيننا شرف صحبتكِ رغم أن الألعاب تضجرك فمن العدل أن أحاول أن أقدم لك أفضل مايسرك». يصرخ ليكاس:«أنت ملح العالم. أنت تجعل ظل المريخ نفسه يهبط حلبتنا الإقليمية المتواضعة!». «لم تري

1- البروقنصل: قنصل (حاكم روماني) مددت فترة ولايته بعد انقضائها.

Twitter: @ketab_n

سوى النصف»، يقول البروقنصل وهو يبلل شفتيه بكأس من النبيذ ويقدمها لزوجه. وإيريني ترشف رشفة طويلة تبدو كأنها تحمل إليها مع أريجها الرهيف رائحة الدم والروث الكثيفة والعنيدة. في صمت مباغت من الترقب يبرزه بدقة لاترحم، يتقدم ماركو صوب مركز الحلبة؛ سيفه القصير يلمع في الشمس، هناك حيث تسمح المظلة العتيقة بمرور شعاع مائل ويتدلى الدرع البرونزي مهملاً من يده اليسرى. يسأل ليكاس في اهتياج: «لن تجعله يواجه الغالب من سميرنيو؟». يقول البروقنصل: «بل أفضل من ذلك. أود أن تذكرني مقاطعتك بهذه الألعاب وأن تهجر زوجتي السأم لمرة واحدة». يصفق ليكاس وأوزانيا في انتظار رد إيريني، بيد أنها تعيد الكأس إلى العبد في صمت، متنائية عن الهتاف الذي يحيي مجيء المصارع الآخر. ساكناً، يبدو ماركو هو أيضاً متنائياً عن الهتاف الذي يتلقاه خصمه؛ بطرف سيفه يلمس واقيي ساقيه الذهبيين.

يقول رولان «آلو» وينتقي سيجارة كتتمة واجبة لإيماءة رفع السماعة. ثمة حشرجة في الخط ناتجة عن تداخل الاتصالات، شخص يملي أرقاماً؛ وبغتةً، صمت ربما أكثر عتامة من تلك التي يصبها الهاتف في عين الأذن. يردد رولان: «آلو» ويضع السيجارة على حافة منفضة السجائر ويبحث عن الثقاب في جيب الروب. «أنا جان»، يقول صوتها. يقلب رولان عينيه ويتمطى في وضع أكثر راحة. تردد بلا جدوى: «أنا جان»، وبما أن رولان لا يجيب تستطرد: «ذهبت سونيا في التو».

واجبه أن ينظر إلى الشرفة الإمبراطورية، أن يؤدي التحية المعتادة، يعلم أن عليه أن يفعل وأنه سيرى امرأة البروقنصل والبروقنصل، قد تبتسم له المرأة كما حدث في الألعاب الأخيرة. لايعوزه الفكر، لايكاد يعرف الفكر، لكن الغريزة تقول له إن هذه الحلبة نحسة، هذه العين

Twitter: @ketab_n

البرونزية الضخمة التي رسمت المجارف وسعف النخيل طرقها الملتوية والتي سودها بعض من أثر المصارعات السابقة.

في تلك الليلة حلم بسمكة، بطريق منعزلة بين أعمدة خربة؛ وبينما كان يتسلح للنزال همس شخص بأن البروقنصل لن يدفع له عملات ذهبية. لم يجشم ماركو نفسه مشقة طرح سؤال، وضج الآخر بالضحك على نحو شرير قبل أن يبتعد دون أن يوليه ظهره؛ شخص ثالث أبلغه فيما بعد بأنه شقيق المصارع الذي قتله في مسيليا، غير أنهم كانوا يدفعونه نحو الدهليز، نحو الهتافات في الخارج القيظ لايحتمل، تثقل عليه الخوذة التي ترد أشعة الشمس إلى المظلة والمدرجات. سمكة، أعمدة خربة، أحلام بلا معنى واضح وآبار من النسيان في اللحظات التي كان من المحتمل فيها أن يفهم. من كان يسلّحه قال إن البروقنصل لن يدفع له عملات ذهبية؛ قد لاتكون امرأة القنصل تبتسم له هذا المساء. لايثير الهتاف انتباهه لأنهم الآن يصفقون للآخر، يصفقون للآخر أقل مما كانوا يصفقون له قبل برهة، لكن، وسط التصفيق، تتسلل صيحات دهشة فيرفع ماركو رأسه وينظر ناحية الشرفة، إلى حيث التفتت إيريني لتتحدث إلى أورانيا، إلى حيث يأتي البروقنصل بإشارة مزدرية فيتقلص جسده وتشد يده على مقبض السيف. وكفاه أن يرجع بصره إلى الدهليز المقابل، لايطل خصمه من هناك ، لقد ارتفعت في صريرها قضبان الدهليز المظلم الذي يطلقون منه الوحوش، ويرى ماركو ارتسام الظل الضخم للمجالد النوبي غير المرئي حتى تلك اللحظة أمام الخلفية الحجرية الصدئة؛ أما الآن فنعم، أقرب من أي مبرر، الآن يعلم أن البروقنصل لن يدفع له عملات ذهبية، يتكهن بمعنى السمكة والأعمدة الخربة. في ذات الوقت، لا يهتم بما قد يحدث بينه وبين المجالد، فهذا من

Twitter: @ketab_n

صميم المهنة والقدر، لكن جسده مازال منقبضاً كأنه خائف، شيء في لحمه يتساءل لـمَ خرج المجالد من دهليز الوحوش، وأيضاً يتساءل الجمهور بين الهتافات، وعن ذلك يسأل ليكاس البروقنصل الذي يبتسم كي يؤكد ـ بلا كلمات ـ المفاجأة، ويحتج ليكاس ضاحكاً ويعتقد أنه مجبر على المراهنة على ماركو؛ وقبل أن تسمع الكلمات التالية، تعلم إيريني أن البروقنصل سوف يضاعف مراهنته على النوبي وينظر إليها برقة ويأمر بأن يقدموا لها نبيذاً مثلجاً. وهي ستحتسي النبيذ وتتحدث إلى أورانيا عن قامة ووحشية المجالد النوبي؛ كل حركة متفق عليها وإن لم تحط بها في نفسها، رغم إمكان غياب كأس النبيذ واختلاجة فم أورانيا فيما تنظر بإعجاب إلى جذع العملاق. حينئذٍ ليكاس، الخبير بوقائع من السيرك لاحصر لها، سيلفت انتباههما إلى أن خوذة النوبي حكت أسنان قضبان بوابة الوحوش المرتفعة مترين عن الأرض، وسيمتدح الطلاقة التي يرتب بها فوق ذراعه اليسرى حراشف الشبكة. وكالعادة، وكما يحدث منذ ليلة زفاف بعيدة، تنطوي إيريني على نفسها إلى أعمق حد بينما هي ، من الخارج ، تلاطف وتبتسم وقد تستمتع ؛ في ذلك العمق الحر والعقيم، تحس بعلامة الموت التي واراها البروقنصل خلف مفاجأة علنية بهيجة، لكن لن يفهمها ماركو، مخيفاً، صامتاً، ماكينةً؛ وجسده الذي اشتهته هي في مساء سيرك آخر (وحدس البروقنصل ذلك دون حاجة إلى سحرته، حدسه كالعادة، منذ الوهلة الأولى) سوف يدفع ثمن التخيل المحض، بنظرة مزدوجة وغير مجدية إلى جثة مصارع من تراقيا قُتل بمهارة بطعنة في حنجرته.

قبل أن تدير رقم رولان، جاست يد جان بين صفحات مجلة موضة، أنبوب الأقراص المهدئة، ظهر القط المتكور على الأريكة. ثم قال صوت

Twitter: @ketab_n

رولان: «آلو»، صوته النائم قليلاً؛ وبغتةً، داخل جان شعور بالسخف، بأنها ستقول لرولان ذلك الشيء الذي سيدرجها في دقة مدرج النائحات الهاتفيات فيما يدخن مشاهدها الساخر الأوحد في صمت ملاطف. «أنا جان»، قالت، غير أنها قالتها لنفسها وليس لذلك الصمت المضاد الذي يرقص فيه كستار خلفي بعض الشرر الصوتي. تنظر إلى يدها التي داعبت القط في شرود قبل أن تدير قرص الهاتف (أوليست تسمع أرقام أخرى في التليفون؟ أليس هنالك صوت بعيد يملي أرقاماً على شخص لا يتكلم، حاضر هناك فقط كي ينسخ الأرقام في طاعة؟) وتأبى أن تصدق أن اليد التي رفعت أنبوب الأقراص ثم تركته هي يدها وأن الصوت الذي انتهى من ترديد «أنا جان» هو صوتها، على المحك. من مبدأ الكرامة، الصمت، إعادة السماعة إلى مكانها ببطء، البقاء وحدها في جلاء، تقول جان «ذهبت سونيا في التو»، وهاهي تجاوز الحد ، ويبدأ الشعور بالسخف، الجحيم الصغير المريح .

«أوه» ، يقول رولان حاكاً عود ثقاب. تسمع جان صوت الحك على نحو مغاير، كأنها ترى محيا رولان فيما يستنشق هو الدخان، مائلاً قليلاً إلى الخلف وهو يقلب عينيه. نهر من الحراشف البراقة يبدو كأنه يفر من يدي العملاق الزنجي، وماركو لديه الوقت كي يفلت بجسده من الشبكة. في مرات أخرى ـ يعلم البروقنصل ذلك ويلتفت برأسه فقط كي تراه إيريني وهو يبتسم ـ تحيّن مثل هذه اللحظة الشديدة القصر، التي هي نقطة ضعف أي مجالد، ليدرأ بدرعه تهديد الحربة الثلاثية ويلقي بنفسه بكل قوته وفي حركة متألقة نحو الصدر المكشوف. لكن ماركو لايزال خارج النطاق، مقوساً ساقيه كأنه يتأهب للقفز فيما يلملم النوبي شبكته في سرعة ويُعد لهجوم جديد:

Twitter: @ketab_n

«إنه لهالك» ، تفكر إيريني دون أن تنظر إلى البروقنصل الذي يختار بعض الحلوى من الصينية التي تقدمها له أورانيا. «لم يعد كما كان»، يفكر ليكاس متحسراً على رهانه. انحنى ماركو قليلاً متابعاً حركة النوبي الدائرية؛ هو وحده لايعلم الهاجس الذي ينتاب الجميع، شيء ما كامن ينتظر فرصة أخرى، بتلك الحيرة المبهمة من ألا يكون قد فعل ما يتطلبه العلم. قد يعوزه وقت أطول، الساعات في الحانة التي تعقب الانتصارات، ربما لكي يعي مبرر ألا يدفع له البروقنصل عملات ذهبية. متجهماً، ينتظر لحظة أخرى مواتية، ربما قرب النهاية، حين تطأ قدمه جثة المجالد، أن يتمكن من رؤية ابتسامة امرأة البروقنصل؛ على أن هذا لايفكر فيه هو ومن يفكر فيه لا يعتقد، لم يعد يعتقد، أن قدم ماركو يمكن أن تنغرس في صدر نوبي ذبيح.

يقول رولان: «لكِ أن تقرري، إلا إذا أردت أن أظل طيلة المساء أستمع إلى ذلك الشخص الذي يملي أرقاماً على من لا أعرفه. أتسمعينه؟». تقول جان: «أجل، أسمعه كأنه صادر من بعيد جداً». ثلاثمائة وأربعة وخمسون، مائتان واثنان وأربعون. لوهلة ليس هنالك إلا ذلك الصوت المتنائي والرتيب. يقول رولان: «على أية حال، هو يستخدم التليفون في شيء عملي». يمكنها أن تجيبه الإجابة المتوقعة، أول شكوى، لكن جان تصمت لعدة ثوان وتردد: «ذهبت سونيا في التو». وتتردد قبل أن تضيف: «من المحتمل أن تكون في طريقها إلى منزلك». وقد يفاجأ رولان لذلك، فليس هنالك سبب يجعلها تذهب إلى منزله.

تقول جان: «لا تكذب» فيفر القط، ينظر إليها في مهانة. يقول رولان: «لم يكن كذباً فأنا أعني التوقيت وليس مسألة أن تأتي أو لا تأتي. تعلم سونيا أن الزيارات والمكالمات في هذه الساعة تثير ضيقي».

Twitter: @ketab_n

يملي الصوت من بعيد: ثمانمائة وخمسة، أربعمائة وستة عشر، اثنان وثلاثون. أغمضت جان عينيها تنتظر أول لحظة يصمت فيها ذلك الصوت المجهول لكي تقول الشيء الوحيد المتبقي. إذا قطع رولان الاتصال فسيظل ذلك الصوت في غيهب الخط، وحينئذٍ يمكنها أن تحتفظ بالسماعة على أذنها وتنزلق أكثر فأكثر على الأريكة وتداعب القط الذي عاد ليستلقي ملتصقاً بها وتعبث بأنبوب الأقراص المهدئة وتسمع الأرقام حتى يكل الصوت الآخر أيضاً ولا يبقى شيء، أي شيء على الإطلاق سوى السماعة التي سوف يزداد ثقلها بشكل رهيب بين أصابعها، شيء ميت يلزم التخلص منه دون النظر إليه. يقول الصوت: مائة وأربعة وأربعون. ثم، من مسافة أبعد، كرسم متناهي الصغر بقلم الرصاص، شخص ما قد تكون امرأة خجول تسأل بين طرقعتين: محطة قطارات الشمال؟

للمرة الثانية يتملص من الشبكة لكنه أخطأ قياس القفزة إلى الخلف فانزلق في بقعة رطبة من الحلبة. وبمشقة جعلت الجمهور ينهض من مكانه رعباً، رد الشبكة بدورة من سيفه حول رأسه فيما يمد ذراعه اليسرى ويتلقى بدرعه ضربة الحربة الثلاثية المدوية. يزدري البروقنصل تعقيبات ليكاس الملتهبة ويلتفت برأسه ناحية إيريني التي ظلت ساكنة. يقول البروقنصل: «أما الآن وإلا فلا». ترد إيريني:«أبداً». يردد ليكاس: «لم يعد كما كان، وسوف يجشمه ذلك ثمناً باهظاً، فلن يتيح له النوبي فرصة أخرى، يكفي أن تنظر إليه». عن بعد، ساكناً تقريباً، يلوح ماركو وكأنه انتبه إلى الخطأ؛ بدرعه إلى أعلى، يحدق في الشبكة الملمومة، إلى الحربة الثلاثية وهي تتأرجح كالبندول على مسافة مترين من ناظريه. يقول البروقنصل: «الحق معه، لم يعد كما كان، أراهنت عليه يا إيريني؟».

Twitter: @ketab_n

رابضاً، على وشك القفز، يشعر ماركو في جلده، في عمق معدته، أن الجمع يهجره. لو أنه منح لحظة هدوء لاستطاع أن يحطم العقدة التي تشله، القيد غير المرئي الذي يبدأ إلى الخلف بكثير ولكن دون أن يتمكن هو من معرفة أين يبدأ، والذي هو في لحظة بعينها طلب البروقنصل، الوعد بأجر إضافي، وأيضاً حلم فيه سمكة وشعوره الآن، حيث لا وقت لأي شيء، صورة الحلم نفسها أمام الشبكة التي تتراقص أمام عينيه والتي يبدو أنها تتسلل عبر المظلة الممزقة. كل شيء قيد، شرك؛ ينتصب بعنف مخيف يصفق له الجمهور فيما يتراجع المجالد خطوة إلى الوراء للمرة الأولى؛ يختار ماركو السبيل الأوحد: الحيرة والعرق ورائحة الدم، الموت الماثل أمامه وينبغي قهره؛ شخص ما وراءه يفكر له في ذلك من خلف القناع الباسم، شخص اشتهاه متجاوزاً الجسد المحتضر لمصارع من تراقيا. تقول إيريني لنفسها: «السم. يوماً ما سأجد السم، لكن، الآن، اقبلي منه كأس الخمر، كوني الأقوى، تحيني لحظتك». يلوح الصمت مترامياً مثل الدهليز الحالك المخاتل الذي يرجع فيه الصوت البعيد الذي يملي أرقاماً. اعتقدت جان دائماً أن الرسائل ذات المغزى الحقيقي هي لوهلة ما أقرب بكثير من أية كلمة، وقد تنطوي هذه الأرقام على معنى أكبر أو قد تكون أبلغ من أية رسالة لمن ينصت إليها باهتمام، مثلما كان عطر سونيا، ربتة يدها على كتفها قبل الرحيل، أبلغ بكثير من كلمات سونيا. بيد أنه كان طبيعياً ألا تكتفي سونيا برسالة مشفرة، أن تقول لها ما أرادت بكل الحروف ، وأن تتلذذ بكل شيء حتى النهاية. رددت سونيا: «أدرك أن الأمر سيكون جد شاق عليك، لكنني أمقت المداراة وأفضل أن أقول لكِ الحقيقة». خمسمائة وستة وأربعون، ستمائة واثنان وستون، مائتان وتسعة وثمانون. تقول جان: «الآن لا يهمني إن

Twitter: @ketab_n

كانت في طريقها إلى منزلك أم لا، الآن لم أعد أهتم لشيء». وبدلاً من رقم آخر، يسود صمت طويل. تسأل جان: «أمازلت هناك؟». يقول رولان: «بلـــى»ويترك عقب السيجارة في المنفضة ويبحث عن قنينة الكونياك. تبدأ جان: «ما لا أفهمه ...». يقول رولان: «من فضلك، في مثل هذه الحالات لاأحد يفهم شيئاً ياعزيزتي، فضلاً عن أنه لا طائل وراء الفهم. آسف لأن سونيا سبقتني، لم تكن هي الأجدر بإبلاغك، اللعنة، ألن تنتهي البتة هذه الأرقام؟». الصوت الواهي الذي يوحي بعالم من النمل مايزال يملي في دقة تحت الصمت الأقرب والأكثف. تقول جان على نحو سخيف: «لكن أنت ، إذن أنت ...»

يحتسي رولان حسوة من الكونياك. كان يفضل دائماً أن ينتقي كلماته، أن يتجنب الحوارات العقيمة. وجان ستكرر مرتين، ثلاثاً، كل جملة، وتضغط عليها كل مرة بشكل مغاير؛ فلتتكلم، فلتكرر، فيما هو يعد الحد الأدنى من الردود المتعقلة ليوقف هذا الهياج المؤسف. متنفساً بشدة، يعتدل بعد أن راوغ وتقدم من أحد الجانبين؛ شيء ما يقول له إن النوبي في هذه المرة سيغير نسق هجومه وإن الحربة الثلاثية ستسبق إلقاء الشبكة. يفسر ليكاس لزوجه: «التفتي إلى ذلك جيداً، لقد رأيته يفعله في أبتا إيوليا، فهو يحيرهم دائماً». منكشفاً، غير عابيء بخطر الدخول في نطاق الشبكة، يلقي ماركو بنفسه إلى الأمام وحينئذٍ فقط يرفع درعه ليحتمي بها من النهر البراق الذي يفر كالشعاع من يد النوبي. يصد حافة الشبكة غير أن الحربة الثلاثية تطعنه أسفل ويتفجر الدم من فخذ ماركو فيما يقعقع السيف الشديد القصر بلا جدوى على ساق الحربة. يصرخ ليكاس: «كما قلت لك». يحدق البروقنصل في الفخذ الجريحة، في الدم الذي يختفي في واقي الساق الذهبي؛ يفكر فيما يشبه الحسرة في أن إيريني

Twitter: @ketab_n

ودت لو تحسست تلك الفخذ، لو تلمست ضمها وحرارتها وهي تئن كما تفعل حين يضمها هو ليؤلمها. سوف يبلغها بذلك هذه الليلة نفسها، وسيكون من الشائق أن يتفحص محيا إيريني بحثاً عن نقطة الضعف في قناعها المتقن الذي سيصطنع عدم الاكتراث حتى النهاية كما يصطنع الآن اهتماماً مهذباً بالمصارعة التي تثير حماساً حتى العواء في العامة المهتاجة بغتةً لقرب النهاية. يقول البروقنصل لإيريني: «لقد هجره حسن طالعه، أكاد أشعر بالذنب لأنني أحضرته إلى هذه الحلبة المغمورة؛ شيء ما فيه بقي روما، يبدو هذا جلياً». يضحك ليكاس: «أما الباقي فسيبقى هنا مع المال الذي راهنت به». يقول رولان: «من فضلك، اهدئي، من السخف مواصلة الحديث في الهاتف فيما يمكننا أن نلتقي هذه الليلة نفسها. أكرر لك أن سونيا سبقتني، وددت لو جنبتك هذه الصدمة». توقفت النملة عن إملاء أرقامها وتسمع كلمات جان على نحو مغاير؛ لا دموع في صوتها، ويباغت ذلك رولان الذي أعد جمله متوقعاً سيلاً من اللوم. تقول جان: «تجنبني الصدمة؟ بالكذب طبعاً، بخيانتي مرة أخرى». يتنفس رولان ويطرح جانباً ردوداً قد تطيل حتى التثاؤب حواراً مملاً. يقول: «آسف، لكن إذا واصلت على نفس الوتيرة أفضّل إنهاء المخابرة»، وللمرة الأولى ثمة نبرة باشّة في صوته، «من الأفضل أن أذهب لأراك غداً، ففي نهاية الأمر نحن أناس متحضرون، اللعنة». من بعيد جداً، تملي النملة: ثمانمائة وثمانية وثمانون. تقول جان: «لا تأتِ»، ومن الممتع الإنصات إلى الكلمات تمتزج بالأرقام: لا ثمانمائة تأتِ ثمانية وثمانون؛ «لا تأتِ مرة أخرى ياورلان». الدراما، التهديدات المحتملة بالانتحار، الضجر مثلما حدث مع ماري جوزيه، مع كل من يأخذن الأمر بتراجيديا. ينصح رولان: «كفي عن رعونتك، غداً ستفهمين

Twitter: @ketab_n

على نحو أفضل، أفضل لكلينا». تصمت جان، تملي النملة أرقام المائة ومضاعفاتها: مائة، أربعمائة، ألف. يقول رولان: «حسنٌ ، إلى الغد» مبدياً إعجابه برداء سونيا التي فتحت الباب في التو ثم توقفت هنيهة بين متسائلة وهازئة. تقول سونيا وهي تترك حقيبة يدها والمجلة: «لم تضيع وقتاً في الاتصال بك». يكرر رولان: «إلى الغد ياجان». يلوح الصمت في الخط متوقفاً كقوس حتى يقطعه فجأةً رقم متناءٍ، تسعمائة وأربعة. يصرخ رولان بكل قواه: «كفاكم إملاء هذه الأرقام الغبية» ، وقبل أن يبعد السماعة عن أذنه يتمكن من سماع الـ«كليك» على الطرف الآخر، القوس الذي يطلق سهمه غير الضار. مشلولاً، مدركاً عدم قدرته على التملص من الشبكة التي لن تلبث أن تلفه، يواجه ماركو العملاق النوبي وسيفه الشديد القصر لايتحرك في نهاية الذراع الممدودة. يرخي النوبي الشبكة مرةً، مرتين، ثم يسحبها بحثاً عن وضع أفضل ثم يطوح بها كأنما يريد أن يطيل صراخ الجمهور الذي يحثه على القضاء على خصمه ويرمي الحربة الثلاثية فيما ينتحي جانباً لتكون الطعنة أكثر مضاءً. يتلقى ماركو الشبكة بدرعه عالياً فيتهاوى برج فوق كتلة سوداء، يغوص سيفه في شيء يعوي في أعلاه ويملأ الرمل فاه وعينيه، تسقط الشبكة لا نفع منها فوق السمكة التي تختنق.

يقبل اللمسات بعدم اكتراث، غير قادر على الإحساس بأن يد جان ترتعش قليلاً وتأخذ في البرودة. حين تنزلق الأنامل على جلده ثم تقبض عليه في تشنج لحظي، يشكو القط مترفعاً ثم يستلقي على ظهره ويهز أقدامه في وضع انتظار يثير دائماً ضحك جان، لكن هذا لا يحدث الآن، فيدها لا تزال ساكنة إلى جانب القط، تلتمس إصبع بالكاد دفء جلده وتتحسسه قليلاً قبل أن تسكن من جديد بين الجانب الدافئ

Twitter: @ketab_n

وأنبوب الأقراص الذي تدحرج حتى هناك. النوبي المطعون في وسط بطنه يعوي متراجعاً في تلك اللحظة الأخيرة التي يكون فيها الألم مثل جذوة من الحقد، وكل قواه التي تفر من جسده تجتمع في ذراعه ليغرس الحربة الثلاثية في ظهر خصمه الممدد على بطنه. يسقط فوق جسد ماركو وتنحيه ارتجافاته عنه؛ ببطء يحرك ماركو ذراعه الغائرة في الرمال كجرادة هائلة براقة.

يقول البروقنصل وهو يلتفت نحو إيريني: «ليس من المعتاد أن يقتل مصارعان لهما هذا الشأن كل منهما الآخر. لنا أن نهنىء أنفسنا لمشاهدة هذا العرض النادر. هذه الليلة سأكتب لأخي عن ذلك لأسري عنه زيجته الباعثة على السأم».

ترى إيريني ذراع ماركو وهي تتحرك حركة وئيدة لا طائل تحتها كأنما تريد أن تقتلع الحربة الثلاثية الغائرة في كليتيه. تتخيل البروقنصل عارياً في الحلبة وقد انغرست فيه نفس الحربة حتى مقبضها. على أن البروقنصل ما كان سيحرك ذراعه بنفس هذه العزة الأخيرة؛ كان سيصرخ رافساً بقدميه كأرنب ويطلب العفو من جمهور مستاء. مستجيبةً لليد التي يمدها لها زوجها ليعاونها على النهوض، توافقه مرة أخرى؛ سكنت الذراع، لم يبقَ سوى الابتسام، الاعتصام بالذكاء. لايبدو أن سكون جان يعجب القط، لايزال مستلقياً على ظهره في انتظار المداعبة؛ فيما بعد، كأنما تضايقه تلك الإصبع التي تلامس جلد أحد جانبيه، يموء في عصبية ويدور نصف دورة ليبتعد: أنا منسي، أنا شبه نائم.

تقول سونيا: «اغفر لي مجيئي في هذه الساعة. رأيت سيارتك بالباب فلم أقاوم الإغراء. خابرتك، أليس كذلك؟». يبحث رولان عن سيجارة، يقول: «أخطأتِ، من المفترض أن هذه مهمة الرجال،

Twitter: @ketab_n

ففي نهاية الأمر لبثت مع جان مايربو على العامين وهي فتاة طيبة». تقول سونيا وهي تصب لنفسها الكونياك: «أجل، لكن متعة أن ... لم أستطع قط أن أغتفر لها أن تكون بهذه السذاجة، فلا شيء يثير حنقي أشد من ذلك. أقول لك إنها طفقت تضحك مقتنعةً بأنني كنت أمزح معها». ينظر رولان إلى الهاتف، يفكر في النملة. والآن ستعاود جان مخابرته، ولن يكون أمراً مريحاً لأن سونيا جلست إلى جواره وتداعب شعره بينما تطالع مجلة أدبية كأنها تبحث عن الصور. يكرر رولان وهو يجذب سونيا إليه: «أخطأتِ». تضحك سونيا: «بالمجيء في هذه الساعة؟»، وتستجيب لليدين اللتين تبحثان في رعونة عن أول زر. تغطي الغلالة البنفسجية كتفي إيريني التي تستدبر الجمهور في انتظار أن يحيي البروقنصل مرةً أخيرة. الآن يمتزج بالهتافات حفيف زحام في حركة، العدو المتسارع لمن يسعى إلى التقدم في الخروج وبلوغ الدهاليز السفلية. تعلم إيريني أن العبيد الآن يسحبون الجثتين ولا تلتفت؛ يسرها أن البروقنصل قبل دعوة ليكاس للعشاء في قصره المطل على شاطىء البحيرة حيث سيعاونها نسيم الليل في نسيان رائحة العامة، الصرخات الأخيرة، ذراع تتحرك في بطء كأنها تداعب الأرض. لايشق عليها النسيان، رغم أن البروقنصل يهاجمها بالاستدعاء المفصل لكل هذا الماضي الذي يؤرقه؛ يوماً ما ستجد إيريني الوسيلة التي تجعله هو أيضاً ينسى إلى الأبد وتجعل الناس ببساطة تعتقد أنه مات. تقول امرأة ليكاس: «سترين ما ابتكره طباخنا، لقـــــد أعاد لزوجي شهيته، وفي الليل...». يضحك ليكاس ويحيي أصدقاءه في انتظار أن يتقدم البروقنصل السير نحو الدهليز بعد تحية أخيرة تتأخر كثيراً كأنها تبهجه إدامة النظر إلى الحلبة حيث يوثقون الجثتين ويسحبونهما. تقول سونيا

Twitter: @ketab_n

مستندة بصدغها إلى صدر رولان الذي يغفو: «ما أشد سعادتي!». يهمس رولان: «لاتقولي ذلك، فالمرء غالباً ما يشعر بأن هذه العبارة هي من قبيل التهذيب». تضحك سونيا: «ألا تصدقني؟». «بلى ولكن لاتقوليها الآن، فلندخن». يتحسس المنضدة المنخفضة حتى يعثر على السجائر ويضع واحدة بين شفتي سونيا على مقربة من سيجارته ويشعل الاثنتين معاً. لايكاد أي منهما ينظر إلى الآخر. يغالبان النعاس. يهز رولان الثقاب ويضعه على المنضدة حيث توجد منفضة سجائر في مكان ما. تغفو سونيا أولاً وهو يخرج السيجارة من بين شفتيها في بطء شديد ويضمها إلى سيجارته ويضعهما على المنضدة منزلقاً إلى جانب سونيا في نوم ثقيل وبلا صور. يحترق منديل من الشاش بلا لهب على حافة منفضة السجائر ويصدر عنه دخان بطيء ويسقط فوق البساط إلى جانب كومة من الملابس وكأس كونياك. يصرخ جزء من الجمهور ويتزاحم في المدرجات السفلية. حيا البروقنصل مرة أخرى ويشير إلى حارسه حتى يفسحوا له الطريق. ليكاس ـ أول من يدرك ـ أبعد خرقة من قماش المظلة القديمة التي بدأت تتمزق فيما يتساقط مطر من الشرر فوق الجمهور الذي يبحث في فوضى عن مخرج. صارخاً بأمر، يدفع البروقنصل إيريني التي توليه ظهرها، والساكنة دائماً. يصرخ ليكاس متقدماً زوجه: «أسرعي، قبل أن يتكوموا في الدهليز السفلي». وإيريني هي أول من يشتم رائحة الزيت المغلي، الحريق في المستودعات تحت الأرض. إلى الوراء، تتهاوى المظلة فوق ظهور من يسعون إلى شق طريق لهم بين كتلة الأجساد الحائرة التي تسد الدهاليز الشديدة الضيق. وهناك من يقفز إلى الحلبة بالمئات بحثاً عن مخرج آخر ، لكن دخان الزيت يمحو الصور وتطفو خرقة فوق ألسنة اللهب وتسقط فوق البروقنصل قبل أن يتمكن من الاحتماء بالممر الذي يؤدي إلى الرواق الإمبراطوري.

Twitter: @ketab_n

تلتفت إيريني حين تسمع صرخته وتنزع عنه القماش المحترق، بأناملها، في رقة. تقول: «لن نستطيع الخروج، إنهم مكدسون هناك، أسفل ، كالحيوانات». حينئذٍ تصرخ سونيا، تريد الإفلات من الذراع المحترقة التي تحوطها من الحلم، وتضيع أولى صرخاتها في صرخة رولان الذي يحاول عبثاً النهوض وقد خنقه الدخان الأسود. مازالا يصرخان، على نحو أضعف في كل مرة فيما تلج عربة المطافيء بأقصى سرعتها الشارع المزدحم بالفضوليين. يقول الضابط: الحريق في الطابق العاشر، ستكون المهمة شاقة، تهب ريح شمالية، هيـــا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هناك لكن أين ، كيف ؟

لوحة لرينيه ماجريت تمثل غليوناً يحتل قلب اللوحة. وأسفل الصورة عنوانها: هذا ليس غليوناً. إلى باكو الذي كان يحب قصصي.

(إهداء كتاب الحيوان ، 1951)

لا يخضع للإرادة

إنه هو فجأةً : الآن (قبل بدء الكتابة ، مبرر بدء الكتابة) أو بالأمس أو غداً، لا نُذُر هنالك، هو موجود أو غائب، ولا أقول حتى إنه يأتي، فلا مجيء ولا رحيل ، بل حاضر محض، يظهر أو يحتجب في هذا الحاضر القذر، المترع بأصداء ماضية والتزامات مستقبلية

وأنتَ، الذي تقرؤني، ألم يحدث لك ذلك الذي يبدأ في حلم ويعود في عدة أحلام لكنه ليس كذلك، ليس حلماً فقط ؟ شيء موجود هناك لكن أين، كيف؟ شيء يجري لحظة الحلم بالطبع، حلم صرف لكنه، فيما بعد، مازال هناك أيضاً، بشكل آخر، لأنه رخو ومليء بالثقوب، بيد أنه هناك فيما تسوك أسنانك، وفي قاع الحوض مازلت تراه فيما تبصق معجون الأسنان أو تضع وجهك تحت الماء البارد، ثم يتضاءل لكنه لايزال عالقاً بالبيجاما، بمنبت اللسان وأنت تسخن القهوة، هناك لكن أين، كيف؟ ملتصقاً بالصباح وبصمته الذي تلجه أصوات النهار، وبنشرة أخبار الراديو الذي فتحناه لأننا استيقظنا ونهضنا، وبالعالم الذي يواصل مسيرته. اللعنة، اللعنة، كيف يتأتى؟ ماهذا الذي جرى؟ كنا في

Twitter: @ketab_n

حلم لكنه شيء آخر، يعود كل مدة وهو حاضر هناك لكن أين، كيف؟ لماذا باكو مرةً أخرى هذه الليلة؟ لماذا الآن وأنا أكتب في هذه الحجرة، بجانب نفس هذا الفراش حيث ترسم الملاءات فراغَ جسدي؟ وأنتَ، ألا يحدث لك نفس ما يحدث لي مع شخص قضى نحبه منذ ثلاثين عاماً، شخص دفناه ظهيرة يوم مشمس في لاتشكاريتا، نحمل التابوت على أكتافنا ومعنا لداتنا وإخوة باكو؟

وجهه صغير وشاحب، وجسده ضئيل كأي لاعب كرة باسكية[1]، وعيناه مائيتان وشعره أشقر ومصفف بالفازلين، الفارق على جانب، وبذلته الرمادية وحذاؤه الأسود وغالباً رباط عنق أزرق أو أحياناً مرتدياً قميصاً أو روباً أبيض مبطناً بالإسفنج (حين ينتظرني بشارع ريبادابيا، يجرب النهوض بمشقة حتى لا ألتفت إلى أنه يرزح تحت وطأة المرض، ثم يجلس على حافة الفراش ملتحفاً الروب الأبيض ويطلب مني السيجارة المحظورة عليه)

أعلم أنني غير قادر على كتابة ما أكتب، ويقيني أنها طريقة أخرى من طرائق النهار للقضاء على فعاليات الحلم الهشة؛ والآن سأذهب إلى عملي وسألتقي بالمترجمين والمراجعين في مؤتمر جينيف الذي أعمل فيه لمدة أربعة أسابيع وسأقرأ أخبار شيلي، ذلك الكابوس الذي ليس لأي معجون أسنان أن يزيله من الفم. لـمَ إذن يقفز من الفراش إلى الآلة الكاتبة، من منزله بشارع ريبادابيا في بوينس أيرس ـ حيث كنت منذ لحظات مع باكو ـ إلى هذه الآلة الكاتبة التي لن تجدي فتيلاً الآن بعد أن صحوت وأدرِك أن واحداً وثلاثين عاماً انقضت منذ صباح ذلك اليوم

1- لعبة كالاسكواش، لكن في ساحة مفتوحة، ولها مضرب من نوع خاص. هذه اللعبة منتشرة في إسبانيا خاصةً وفي أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة.

Twitter: @ketab_n

من شهر أكتوبر، وتلك المشكاة في مدفن، والزهور البائسة التي لم يكد يمسسها أحد إذ بحق الجحيم كيف نبالي بالزهور ونحن ندفن بـــاكو! أقول لك إن تلك الأعوام الواحد والثلاثين ليست هي ما يهم، فالأمَضُّ هو هذا الانتقال من الحلم إلى الكلمات، هذا الثقب وسط ما لايزال هنا لكنه يستسلم تدريجياً إلى الحواف المُشهرة للأشياء على هذا الجانب، إلى سكين الكلمات التي أمضي في كتابتها والتي لم تعد بعد ذلك الشيء الذي لايزال هناك لكن أين، كيف؟ وإن كنت ألحف فذلك لأنني ما عدت أطيق الاحتمال، فما أكثر المرات التي علمت فيها أن باكو حي أو أنه سيموت، أنه حي بطريقة أخرى غير طريقتنا في الحياة أو انتظار الموت، وأنني حين أكتب في ذلك فأنا على الأقل أصارع ما لا سبيل إلى الإمساك به، أمُرُّ بأنامل الكلمات على ثقوب هذا النسيج الشديد الرهافة الذي ما انفك يقيدني في الحمّام، في محمصة الخبز، في أولى سجائر اليوم، نسيج مابرح هناك لكن أين، كيف؟ ترديد، تكرار، صيغ سحرية، حقيقة، وربما أنت أيضاً ـ الذي تقرؤني ـ تحاول بترتيلة تثبيت ما يفر منك، أو عساك تردد في حمق عبارة صبيانية، توت توت/عنكبوت، توت توت/ عنكبوت، وتغمض عينيك لتثبِّت المشهد الرئيسي للحلم المتشظي، ثم تستسلم توت توت وتهز منكبيك عنكبوت، وبائع الصحف يطرق الباب، وامرأتك تنظر إليك باسمة وتقول لك: بدريتو، مازالت خيوط العنكبوت في عينيك، ومعها كل الحق، تفكر أنت، توت توت/ عنكبوت، فخيوط العنكبوت بالطبع...

حين أحلـــم بألفريدو أو بموتى آخرين يمكنني أن أراهم في واحدة من صورهم العديدة، ولدي خيارات في الزمن والحياة؛ فأرى ألفريدو يقود الـفورد السوداء ، يلعب البوكر، يتزوج من ثوليما، يخرج

Twitter: @ketab_n

معي من مدرسة المعلمين ماريانو أكوستا في طريقنا إلى تناول الفيرموت في لابيرلا بشارع أونتي ؛ ثم ، قرب النهاية، أحلم به في أي يوم من الأيام على مدار أي عام؛ لكن بـــاكو لا، بـــاكو فقط الغرفة العارية والباردة بمنزله، الفراش الحديدي، الروب الأبيض المبطن بالإسفنج؛ وإذا التقينا في المقهى وهو يرتدي البذلة الرمادية ورباط العنق الأزرق فإن محياه لا يتبدل، القناع الترابي الأخير، سكونات تعب لاشفاء منه

لن أضيع وقتاً آخر، وإذا كنت أكتب هذا فلأن بمستطاعي ـ على الرغم من أنني لا أدري كيف أفسر ذلك الذي بمستطاعي ولا أكاد أتذكر أهم ما في الحلم ـ أن أنحي الأحلام جانباً وعلى الجانب الآخر بـــاكو. ولكن، ربما أفعل ذلك يوماً إذا تمكنت الآن أو في أية لحظة من تجاوز تخوم أبعد. أعلم أنني أرى بـــاكو في المنام لأن المنطق، لأن الموتى لا يجوبون الشوارع ولأن ثمة محيط من الماء والزمن يفصل بين هذا الفندق بجينيف وبين منزله بشارع ريبادابيا، بين منزله بشارع ريبادابيا وبينه هو المتوفى منذ واحد وثلاثين عاماً. من البديهي إذن أن بـــاكو مازال حياً(بأية طريقة غير مجدية ومرعبة سأضطر إلى قولها أيضاً لكي أقترب، كي أكسب أرضاً) حين أكون نائماً، في ذلك الذي يسمى الحلم. تمر فترة، أسابيع أو سنون، ومن جديد أعلم وأنا نائم أنه حي لكنه يحتضر؛ لاشيء فوق العادة في الحلم به ورؤيته حياً، يحدث مع كثيرين آخرين في أحلام كل الناس، أنا أيضاً، أحياناً، أرى جدتي في أحلامي، أو أرى ألفريدو الذي كان صديقاً لبـــاكو وقضى نحبه قبل باكو. أي شخص يحلم بموتاه ويراهم أحياء، ليس لهذا أكتب ، وإذا كنت أفعل فمرده أنني أعلم، رغم أني لا أستطيع أن أفسر ماهذا الذي أعلمه. انظر، حين أحلم بألفريدو يؤدي معجون الأسنان وظيفته

Twitter: @ketab_n

جيداً، ويبقى الحنين، العودة إلى الذكريات القديمة؛ بعد ذلك، يبدأ اليوم بدون ألفريدو. لكن مع باكو يبدو كأنه يستيقظ أيضاً معي، وفي وسعه أن يتيح لنفسه ترف إذابة المشاهد الليلية الحية في الحال تقريباً ويبقى حاضراً وخارج الحلم، يفند الحلم بقوة لا يملكها ألفريدو أو أحد غيره في رائعة النهار، بعد الحمّام والجريدة. فيم يهمه أنني لا أكاد أتذكر اللحظة التي جاءني فيها أخوه كلاوديو ليبحث عني ويقول لي إن وطأة المرض اشتدت على باكو؟ فيم يهمه أن المشاهد المتلاحقة، المهلهلة رغم شدتها وتماسكها- على نحو ما مثل فراغ جسدي الذي لاتزال تحدده الملاءات -، تتلاشى ككل الأحلام؟ ما أعلمه إذن هو أن ما رأيته في المنام ليس إلا جزءاً من شيء مغاير، ضرب من التراكب، «المنطقة أخرى» مع علمي بأن العبارة غير صحيحة ولكن ينبغي أيضاً أن أركّب وأنتهك حرمة الكلمات إذا كنت أنشد الاقتراب، إذا كنت أهفو مرةً إلى حضوره. جملةً - وكما أحس الآن - باكو حي لكنه يحتضر، وإن كنت على علم بشيء فبأن لا شيء خارق في هذا؛ فلدي فكرتي عن الأشباح لكن باكو ليس شبحاً، باكو رجل، الرجل الذي كان قبل واحد وثلاثين عاماً، زميل دراستي، أعز الأصدقاء. لم يكن ضرورياً أن يعود إلى جانبي مرةً وأخرى، كان يكفيني أول حلم لأعلم أنه حي فيما وراء الحلم أو أقرب إليّ منه، كي يغشاني الحزن من جديد، كما في ليالي ريبادابيا حين كنت أراه يتراجع إزاء مرض أخذ يزدرده بدءاً بأحشائه ويستنفده بلا عجالة في أتم تعذيب. في كلّ ليلة عاودت فيها رؤيته كان على تلك الشاكلة، تنويعات على الثيمة، ليس التكرار ما يمكنه خداعي، فما أعلمه الآن كان معلوماً في المرة الأولى، وأعتقدت أنها كانت في باريس في الخمسينيات، بعد وفاته في بوينس أيرس بخمسة عشر عاماً.

Twitter: @ketab_n

بالفعل، آنذاك جربت أن أكون صحيح البدن، أن أنظف أسناني بشكل أفضل؛ رفضتك يا بـــاكو مع أن شيئاً بداخلي كان يعلم أنك لم تكن مثل ألفريدو، مثل موتاي الآخرين؛ وحتى إزاء الأحلام يمكن للمرء أن يكون نذلاً وجباناً، وربما لهذا السبب عدت أنت، لا لكي تنتقم بل لتثبت لي أن لا جدوى، أنك كنت حياً وجد مريض، وأنك ستموت، وأن كلاوديو، ليلة إثر ليلة، سيأتي باحثاً عني في الأحلام ليبكي على كتفي، ليقول لي إن باكو مريض، ماذا سنفعل؟ باكو مريض جداً.

وجهه الترابي بلا شمس، بلا قمر مقاهي شارع أونثي حتى، حياة الطلبة الليلية، وجه مثلث بلا دماء، الماء السماوي في عينيه، شفتاه اللتان سلختهما الحمى، الرائحة الزائفة الحلاوة لمريض الكلى، ابتسامته الرقيقة، صوته الخفيض إلى أدنى حد، مضطراً إلى التنفس بين جملة وأخرى ، مبدلاً الكلمات بإيماءة أو تعبير ساخر.

أترى؟ هذا ما أعرفه، ليس بالكثير لكنه يغير كل شيء. تثير سأمي النظريات «الزمكانية»، الأبعاد «ن»، فما بالك بالحديث عن لغة الاستسرار والسحر، حياة الأفلاك وجوستاف مايرنك. لا حاجة بي إلى البحث، فأنا أعلم أنني غير قادر على الوهم أو، ربما، في أحسن الفروض، أنني «غير قادر» على «قدرة» ولوج أراضي مغايرة. أنا فقط موجود هنا ومستعد. وأكتبُ يا باكو ما عشناه مرةً معاً فيما كنتُ نائماً؛ وإذا كان بمستطاعي أن أساعدك في شيء ففي معرفة أنك لست فقط حلمي وأنك هناك لكن أين، كيف؟ أنت هناك، حياً ومعذباً. عن ذلك الـ«هناك» لايسعني أن أقول سوى أنه متاح لي في الحلم واليقظة، وأنه «هناك» لايمكن الإمساك به؛ لأنني حين أراك أكون نائماً، وحين أفكر أكون مستيقظاً وليس في إمكاني سوى أن أفكر؛ صورة أو فكرة هو دائماً ذلك الـ«هناك» لكن أين؟ ذلك الـ«هناك» لكن كيف؟

Twitter: @ketab_n

تعني إعادة قراءة هذا أن أخفض رأسي، أن أمتهن وجهي صوب سيجارة أخرى، أن أتساءل عن جدوى الدق على هذه الآلة، من أجل مَن؟ قل لي من فضلك، من أجل مَن لا يهز منكبيه ويصنفك في الحال ويضع البطاقة وينتقل إلى شيء آخر، إلى قصة أخرى؟

ثم، يا باكو، لمه؟ أترك الإجابة للنهاية بيدأنها من أصعب الأمور، تلك الثورة وذلك الغثيان ضد ما يحدث لك. أتتخيل أنني لا أعتقد أنك في الجحيم، كم كنا سنضحك لو وسعنا الحديث في ذلك. لكن لامحيد عن وجود مبرر، أليس كذلك؟ أنت نفسك قد تتساءل لماذا أنت حي حيث أنت إذا كنت ستموت من جديد، إذا كان على كلاوديو أن يأتي ليبحث عني، إذا كنتُ، كما حدث منذ برهة، سأرتقي درجاً بشارع ريبادابيا لأجدك في غرفة مرضك بذلك الوجه الشاحب والعينين المائيتين، تبتسم لي بشفتين حائلتين ومتيبستين وتمد لي يداً كالورقة. وصوتك ياباكو، ذلك الصوت الذي تعرفته في النهاية، يلوك في مشقة القليل من كلمات التحية أو الدعابة. وبالطبع أنت لست موجوداً في المنزل الكائن بشارع ريبادابيا، وأنا، في جينيف، لم أرتق درج منزلك في بوينس أيرس؛ هذه جدوى الحلم، وكالمعتاد، ما إن أستيقظ تذوب الصور وتبقى أنت فقط على هذا الجانب، أنت الذي لست حلماً، أنت الذي جعلت تنتظرني في هذا الكم من الأحلام لكنك كمن ينتظر في مكان محايد، في محطة أو مقهى، الفائدة الأخرى التي ننساها ما إن نشرع في السير.

كيف أقولها؟ كيف أواصل وألغي العقل مردداً أنه ليس حلماً فحسب وأنني حين أراه في الحلم كسائر موتاي هو شيء آخر، حاضر هناك، في الداخل والخارج، حياً، ولكن

Twitter: @ketab_n

ما أراه منه، ما أسمعه منه: المرض يقربه، يثبته في ذلك الظهور الأخير الذي هو ذكراي عنه منذ واحد وثلاثين عاماً؛ هكذا هو الآن، هكذا

لـــمَ تحيا إذا كنت مرضت مرة أخرى؟ إذا كنت ستموت مرة أخرى؟ وحين تقضي نحبك يا باكو، ماذا سيحدث بيننا؟ أسأعلم أنك مت؟ أسأحلم ، لأن الحلم هو المنطقة الوحيدة حيث بإمكاني رؤيتك، هل سندفنك من جديد؟ وبعد ذلك، ألن أعاود الحلم بك، أأدرك أنك مت حقيقةً؟ لأنك منذ أعوام طويلة يا باكو وأنت حي هناك حيث نلتقي، لكنها حياة باطلة وذابلة، ففيها يدوم مرضك إلى مالانهاية، أكثر من مرضك الآخر؛ تمر أسابيع وشهور، تمر باريس أو كيتو أو جينيف، وحينئذٍ يجيء كلاوديو ويعانقني، كلاوديو يافعاً وشبلاً يبكي في صمت على كتفي، يخبرني بأنك مريض ويرجوني أن أصعد لأراك، أحياناً نحن في المقهى لكنني أضطر دائماً إلى ارتقاء الدرج الضيق لذلك المنزل الذي هُدم الآن. منذ عام، من سيارة أجرة، شاهدت تلك البنايات بشارع ريبادابيا بمحاذاة شارع أونثي وتيقنت من أن المنزل لم يعد هناك أو ربما غيروا هيئته لغياب البوابة والدرج الضيق الذي يؤدي إلى الدور الأول، إلى الغرف ذات السقف العالي والجص الأصفر. تمر أسابيع أو شهور، ومن جديد أعلم أن علي الذهاب لرؤيتك، أو أنا ببساطة ألقاك في أي مكان أو أعلم أنك في أي جانب رغم أني لا أراك، ولاشيء ينتهي، لاشيء يبدأ أو ينتهي وأنا نائم أو فيما بعد في العمل أو هنا وأنا أكتب، أنت حي:لأي هدف؟ أنت حي:لأي سبب يا باكو؟ هناك لكن أين ياعزيزي، أين وإلى متى؟

أجرب إقامة براهين من الهواء، أكوام من الرماد كبراهين، يقين

Twitter: @ketab_n

ثقب، والأنكى أن تجرب بكلمات، انطلاقاً من كلمات قاصرة حتى الدوار، بطاقات سابقة على القراءة التي هي البطاقة الأخيرة

مفهوم أرض مجاورة، غرفة مجاورة؛ زمن مجاور، وفي نفس الوقت لا شيء من هذا، يسيرٌ جداً اللوذ بالثنائية؛ كأن كل شيء مرهون بي، بشفرة مبسطة قد تكشف لي عنها إيماءة أو قفزة، إلى أن أدرك أن الأمر ليس كذلك، وأن حياتي تحبسني في ذاتي، على الحافة نفسها ولكن

جرب أن تقوله بطريقة أخرى، بإصرار : في رجاء، بالسعي إلى المختبر في منتصف الليل، كيمياء لم تخطر ببال إنسان، تحوُّل لا أصلح لسبر الغيب، لتجريب أي من الطرق التي يسلكها آخرون سعياً إلى موتاهم، الإيمان أو الفطريات أو الميتافيزيقا. أعلم أنك لست ميتاً، أن المناضد ذوات ثلاثة الأرجل غير نافعة؛ لن أقدم على استشارة العرافين لأنهم هم أيضاً لهم قوانينهم، وسينظرون إلي كمن ينظر إلى معتوه. وأنا فقط أعتقد فيما أعلمه، أواصل السير في طريقي كما تفعل أنت في طريقك متضائلاً ومريضاً هناك حيث أنت، دون أن تضايقني، دون أن تطلب مني شيئاً وإن كنت على نحو ما تستند إليّ أنا الذي أعلم أنك حي، وإلى تلك الحلقة التي تصلك بهذه المنطقة التي لا تنتمي إليها ولكنها تبقي عليك ولا أحد يدري السبب. لذا أفكر في أن ثمة لحظات تحتاج فيها إليّ وحينئذٍ يجيء كلاوديو أو ألقاك بغتة في المقهى الذي كنا نلعب فيه البلياردو أو في الغرفة العلوية التي كنا نسمع فيها أسطوانات رافيل ونقرأ فيديريكو أو ريلكه، والسعادة المبهرة التي تنتابني حين أعلم أنك حي وأقوى من شحوب محياك ومن وهن يدك الباردة؛ لأنني في قلب الحلم لا أنخدع كما قد تخدعني أحياناً رؤية ألفريدو أو خوان كارلوس، فالسعادة ليست ذلك الإحباط المروع في الصحو وإدراك

Twitter: @ketab_n

أنه كان حلماً؛ فمعك أصحو ولاشيء يتغير فيما عدا أنني انقطعت عن رؤيتك، أعلم أنك حي هناك حيث أنت، في أرض هي هذه الأرض وليس دائرة فلكية أو داخل يمبوس مقيت؛ والسعادة متصلة وحاضرة هنا فيما أكتب، ولا تتعارض مع حزني لأنني رأيتك مرة أخرى شديد المرض، ويبقى الأمل يا باكو، فإذا كنت أكتب فلأن الأمل يحدوني وإن لم يتغير أي شيء: الدرج المؤدي إلى غرفتك، المقهى حيث تقول لي، بين «كرامبولا» وأخرى، إنك كنت مريضاً لكنك في طريقك إلى الشفاء، تخدعني بابتسامة بائسة؛ يحدوني الأمل في أن يكون الحلم على نحو آخر في المرة القادمة، في ألا يضطر كلاوديو إلى المجيء ليبكي وهو يعانقني ويطلب مني أن أذهب لرؤيتك.

وإن يكن فقط من أجل البقاء مرة أخرى إلى جانبه وهو يحتضر كما في تلك الليلة من شهر أكتوبر، الأصدقاء الأربعة، اللمبة الباردة المعلقة في السقف، آخر حقنة كورامين، الصدر العاري والشديد البرودة، العينان المفتوحتان اللتان أغلقهما أحدنا وهو يبكي وأنت ـ الذي تقرؤني ـ ستعتقد أنني أتخيل؛ لا يهم، فمنذ أمد طويل والناس يضيفون إلى حساب خيالي ما عشته فعلاً، أو العكس. انظر، لم ألتقِ باكو قط في المدينة التي تحدثت عنها في بعض مرة، مدينة أحلم بها كل حين وتشبه نطاق موت مؤجل إلى مالانهاية، نطاق بحث نحس ولقاءات مستحيلة. ولاشيء أكثر طبيعية من رؤيته هناك، بيد أني لم ألقه قط ولا أعتقد أنني سألقاه. إذ إن له أرضه الخاصة، مثل قطٍ في عالمه الصغير والمحدد، المنزل بشارع ريبادابيا، مقهى البلياردو، ناصية بشارع أونثي. ربما لو أنني التقيته في مدينة الأقواس وقناة الشمال لكنت أدرجته في آلية البحث، في غرف الفندق التي لا تنتهي، المصعد الذي يتحرك أفقياً، الكابوس المرن الذي

Twitter: @ketab_n

يعود كل مدة؛ لكان حضوره أيسر، لتخيلته جزءاً من ذلك الديكور الذي كان سيتلفه ويضمه إلى ألعابه الخرقاء. لكن باكو يحيا حياته، قطاً وحيداً يطل من منطقته الخاصة بلا تمازج، ومن يأتون لزيارتي هم فقط أهله، كلاوديو أو والده، وأحياناً أخوه الأكبر. حين أستيقظ بعد أن أكون رأيته في منزله أو في المقهى ورأيت الموت في عينيه المائيتين، تضيع البقية في صخب اليقظة ويبقى هو فقط معي فيما أغسل أسناني وأنصت إلى نشرة الأخبار قبل خروجي؛ ولا أعني صورته المرئية بدقة عدسة في الحلم (البذلة الرمادية، رباط العنق الأزرق، الحذاء الأسود) بل يقين أنه ـ على نحو فائق ـ لايزال هناك ويعاني.

ولا حتى الأمل في غاية عبثية : أن أعلم أنه سعيد مرة أخرى، أن أراه في مباراة للكرة، مغرماً بأولئك الفتيات اللائي كان يراقصهن في النادي يـــرقة صغيرة رمادية ، روح مؤرقة وحنون[2]، قرد صغير يرتعد من القر تحت البطاطين، يمد لي يد دمية، من أجل ماذا؟ لأي سبب؟

قد أكون أخفقت في أن أجعلك تعيش هذا، فأنا أكتبه من أجلك أنت الذي تقرؤني لأنها طريقة لفك الحصار، رجاء أن تبحث في نفسك هل لديك أنت أيضاً واحد من هذه القطط، من هؤلاء الموتى الذين أحببتهم وهم الآن في ذلك الـ«هناك» الذي يثير سخطي ذكره بكلمات على الورق. أفعل هذا من أجل بـاكو، عسى هذا أو أي شيء آخر يجدي نفعاً، يساعده على الشفاء أو الموت، عساه يفيد في ألا يعود كلاوديو ليبحث عني أو، ببساطة، في الإحساس بأن كل هذا لم يكن في النهاية سوى خداع، وأنني أحلم فقط بباكو وأنه ـ مَن يدري السبب؟ ـ يمسك

2- باللاتينية في الأصل.

Twitter: @ketab_n

بكاحلي أكثر قليلاً من ألفريدو ومن موتاي الآخرين. هذا ما ستفكر أنت فيه، ففي أي شيء آخر ستفكر إلا إذا كان هذا قد حدث لك بالفعل مع أحد؟ على أن أحداً لم يحدثني قط عن أشياء كهذه، وهذا ما أنتظره منك أنت أيضاً، وأنا فقط كان علي أن أذكره وأنتظر ، كان علي أن أقوله وأنام مرة أخرى وأحيا حياتي كأي شخص، أن أبذل ما في وسعي لأنسى أن باكو لايزال هناك، أن لا شيء ينتهي لأنني غداً أو العام القادم سأستيقظ على يقين أنه مازال حياً كما هو الآن، وأنه دعاني لأنه ينتظر شيئاً مني، وأنني لا أستطيع مساعدته لأنه مريض، لأنه يحتضر.

Twitter: @ketab_n

تغيير الأضـــــواء

أيام الخميس تلك مع حلول الليل، حين كان ليموس يدعوني بعد البروفات في راديو بلجرانو، وبين كأسي مارتيني مشروعاته لمسرحية جديدة، وأنا مجبر على الإنصات إليها برغم لهفتي الشديدة إلى الخروج إلى الشارع ونسيان مسرح الإذاعة لمدة قرنين أو ثلاثة، لكن ليموس كان المؤلف الأشهر في ذلك الوقت وكان يدفع لي أجراً طيباً لقاء القليل الذي كان علي أن أؤديه في برامجه، أدوار ثانوية على الأحرى وثقيلة الظل عامةً. كان ليموس يقول لي في نبرة محببة: لديك الصوت المناسب، لاحاجة هنالك إلى أن تخدع أحداً أو تقتل أمك بالاستركنين، أنت تفتح فمك فقط وفي الحال تود نصف الأرجنتين لو انتزعت روحك على نار هادئة.

إلا لوثيانا، ففي نفس اليوم الذي تلقى فيه فتانا الأول خورخي فوينتس، في نهاية **ورود العار**، سلتين من رسائل الحب وخروفاً أبيض صغيراً أرسلته صاحبة مزرعة رومانسية من ناحية تانديل، سلمني الساعي ماثا أول مظروف بلون الليلك من لوثيانا. بعد أن اعتدت العدم في العديد من أشكاله، احتفظت بالمظروف في جيبي قبل ذهابي إلى المقهى(كان لدينا أسبوع راحة بعد نجاح **ورود**... وقبل بدأ **طائر**

Twitter: @ketab_n

في العاصفة)، وفقط مع ثاني كأس مارتيني مع خوارث ثيلمان وأوليف عاد إلى ذاكرتي لون المظروف وانتبهت إلى أنني لم أقرأ الرسالة، لم أشأ ذلك أمامها لأن من يشعرون بالضجر يبحثون عن أي موضوع، ومظروف بلون الليلك كان منجماً من الذهب. انتظرت حتى أعود إلى شقتي فالقطة على الأقل لا تلتفت إلى مثل هذه الأشياء، أعطيتها حليبها وجرعتها من التدليل، عرفت لوثيانا.

لا أحتاج إلى رؤية صورة لك، كتبت لوثيانا، ولا يعنيني أن مجلتي إذاعـــة وهوائي تنشران صور ميجث وخورخي فوينتس ولا تنشران صورك قط، فلدي صوتك، ولا ألقي بالاً إلى ما يقولونه عنك من أنك منفر ووضيع، لا يهمني أن تخدع أدوارك كل الناس، على العكس، فأنا أحلم بأن أكون الوحيدة التي تعرف الحقيقة: أنت تعاني حين تؤدي هذه الأدوار، تسخر موهبتك لكنني أشعر بأنك لست هناك حقيقة مثل ميجث أو راكيليتا بايلي، وأنت جد مختلف عن الأمير القاسي في **ورود العار**. وهم حين يعتقدون أنهم يكرهون الأمير يكرهونك أنت، فالناس تخلط الأمور؛ وعيت ذلك في العام الماضي، من خلال خالتي بولي وأشخاص آخرين، عندما كنت أنت فاسيليس، المهرب القاتل. هذا المساء شعرت بشيء من الوحدة ورغبت في إبلاغك بذلك، قد لاأكون الوحيدة، وعلى نحو ما أتمنى ذلك من أجلك، أن تكون في صحبة رغماً عن كل شيء، ولكنني في ذات الوقت كم تمنيت لو أكون الوحيدة القادرة على النفاذ إلى الجانب الآخر من أدوارك وصوتك، الموقنة من أنني أعرفك حقاً وأعجب بك أشد من أعجابي بمن يؤدون أدواراً سهلة. مثلما في شكسبير ـ لم أقل ذلك لأحد قط ـ ، لكنك حين أديت الدور أعجبني ياجو أكثر من عطيل. لاتعتبر أنك مجبر على الرد،

Twitter: @ketab_n

أكتب عنواني عساك ترغب حقيقةً في ذلك، لكنك إن لم تفعل فسأشعر بنفس السعادة لأنني كتبت لك كل هذا.

بدأ هبوط الليل، كان الخط رقيقاً وطليقاً، وكانت القطة قد نعست بعد أن لعبت بمظروف الليلك على وسادة الأريكة. منذ غياب برونا إلى الأبد، لا يُعد العشاء في شقتي، فالمعلبات تكفي القطة وتكفيني، ويكفيني خاصةً الكونياك والغليون. في أيام الراحة(بعد ذلك سأضطر إلى إعداد دوري في **طائر في العاصفة**)، أعدت قراءة رسالة لوثيانا بلا نية في الرد، لأن الممثل في هذا المجال وإن تلقى رسالة واحدة فقط في ثلاثة أعوام، عزيزتي لوثيانا، كتبت إليها ليلة الجمعة قبل ذهابي إلى السينما، أهاجت كلماتك مشاعري ولا أقول هذا من قبيل الأدب. وبالطبع لم يكن كذلك، لأنني كتبت وكأن تلك المرأة، التي كنت أتخيلها أقرب إلى صغر الحجم وحزينة ولها شعر كستنائي، جالسة أمامي وأنا أقول لها إن كلماتها أهاجت مشاعري. أما البقية فجاءت مألوفة إذ لم أجد ما أقوله لها بعد الحقيقة، وتلخص كل شيء في حشو الورقة، جملتان أو ثلاث من الملاطفة والعرفان، صديقك تيتو بالكارثيل. بيد أن الملحوظة انطوت على حقيقة أخرى: يسرني أنك كتبت عنوانك، فكان سيشقيني ألا أتمكن من الإفصاح لك عن شعوري.

لا أحد يحب الاعتراف بالحقيقة، لكنك حين لا تعمل تؤول بك الحال إلى السأم قليلاً، على الأقل شخص مثلي. في صباي كان لي العديد من المغامرات العاطفية، في أوقات فراغي كنت أرفع الشص وغالباً ما يكون ثمة صيد ؛ في الخامسة والثلاثين يغدو لون الحياة في بوينس أيرس حائلاً ويلوح أنها تتضاءل، على الأقل في حالة شخص يعيش وحيداً مع قطة وليس من محبي القراءة أو السير طويلاً. ولا يعني هذا أنني

Twitter: @ketab_n

أشعر بالشيخوخة ، على العكس، يتراءى لي الآخرون على هذا النحو، الأشياء نفسها تشيخ وتتشقق؛ لذا ربما يفضل المرء المساء في شقته، التدرب على **طائر في العاصفة** وحدي فيما تنظر القطة إليّ، الانتقام من تلك الأدوار التعسة بإتقانها جيداً وجعلها أدواري أنا لا أدوار ليموس، محولاً أقل العبارات إلى لعبة من المرايا لتضاعف ما في الشخصية من خطر وسحر. وهكذا لدى أداء الدور في الإذاعة يكون كل شيء قد أعد له، الفاصلة، كل تغيير في نبرة الصوت، ومدرِّجا سبل الكراهية(مرة أخرى كنت واحداً من هؤلاء الشخوص من ذوي المظهر الذي لا بأس به لكنه يسقط رويداً رويداً في العار حتى خاتمة من المطاردة على حافة هاوية وقفزة أخيرة بفرح عظيم من جانب المستمعين). حين عثرت، بين قدحين من شراب الماتي، على رسالة لوثيانا مهملة على رف المجلات، وأعدت قراءتها لشدة شعوري بالسأم، حدث أنني من جديد رأيتها، إذ كنت دائماً ذا خيال بصري وأصور أي شيء بسهولة؛ في البداية خطرت لي لوثيانا أميل إلى صغر الجسم ومن سني أو أقرب إليها، ولها قبل أي شيء عينان خضراوان وشفيفتان، ومرة أخرى تخيلتها هكذا، وعدت فرأيتها كأنها تفكر قبل كتابة كل جملة ثم تقرر كتابتها. وكنت متيقناً من شيء واحد، لم تكن لوثيانا امرأة مسوّدات، قد تكون ترددت قبل أن تكتب لي ، لكنها فيما بعد، وهي تستمع إليّ في **ورود العار**، واتتها الجمل إذ ثمة شعور بأن الرسالة تلقائية وفي نفس الوقت ـ ربما بسبب الورق ولون الليلك ـ خلّفت فيّ انطباعاً بشراب راح في سبات طويل داخل قنينة.

ما إن قلّبت عينيّ، تخيلت حتى منزلها؛ لابد من أنه واحد من تلك المنازل التي لها فناء مغطى، أو لها على الأقل شرفة بها نباتات، كلما فكرت

Twitter: @ketab_n

في لوثيانا كنت أراها في نفس المكان، الشرفة تحل في النهاية محل الفناء، شرفة مغلقة وبها كوات من الزجاج الملون وحواجز تسمح فقط بمرور الضوء رمادياً، ولوثيانا جالسة على مقعد من الصفصاف المجدول تكتب لي أنت جد مختلف عن الأمير القاسي في **ورود العار**، تحمل القلم إلى فمها قبل أن تستأنف الكتابة، لا أحد يعرفك ، فمن عِظم موهبتك يمقتك الناس، شعرها كستنائي يلفه ضوء صورة قديمة، تلك الرمادية والنصاعة معاً لشرفة مغلقة، كم تمنيت أن أكون الوحيدة القادرة على النفاذ إلى الجانب الآخر من أدوارك وصوتك.

عشية أول فصل من **طائر**... اضطررت إلى العشاء مع ليموس والآخرين، قمنا ببروفات على مسامع من تلك التي يسميها هو محورية ونسميها نحن مزعجة، صدام في الطباع، عبارات درامية شديدة اللهجة، راكيليتا بايلي مناسبة تماماً في دور خوسيفينا، الفتاة المتغطرسة التي سأورطها أنا على مهل في أحابيل شروري المعروفة والتي لم يكن ليموس يألو جهداً في حبكها. كما كانت أدوار الآخرين تناسبهم تماماً ؛ ففي نهاية المطاف أي فارق لعين بين هذا المسلسل والثمانية عشر الأخرى التي قدمناها من قبل ! إذا كنت ذكرت البروفات فمرد ذلك أن الساعي ماثا سلمني رسالة لوثيانا الثانية. في هذه المرة ، رغبت في قراءتها في الحال، ذهبت هنيهة إلى دورة المياة فيما كانت أنخيليتا وخورخي فوينتس يتعاهدان حباً إلى الأبد في حفلة راقصة في نادي «الجمباز والشيش»، أماكن ليموس تلك التي كانت تثير حماس مستمعيه وتعزز التماهي النفسي للشخوص، على الأقل من وجهة نظر ليموس وفرويد.

قبلت دعوتها البسيطة والجميلة للقاء في كافيتريا بشارع ألماجرو. كانت تحمل اللفتة الرتيبة للتعارف، هي في رداء أحمر، وأنا أحمل الجريدة

Twitter: @ketab_n

مطوية أربعاً، كان لزاماً أن يكون بهذه الطريقة والبقية كانت لوثيانا وهي تكتب لي من جديد في الشرفة المغلقة، وحيدة مع والدتها أو ربما مع أبيها؛ منذ البداية كنت رأيت رجلاً شيخاً معها في منزل يصلح لعائلة أكبر وهو الآن مترع بالفجوات التي يسكنها حنين الأم إلى ابنة أخرى متوفاة أو غائبة، لأن من المحتمل أن الموت مر بالمنزل منذ وقت ليس بالبعيد، وإذا لم ترد أو لم تستطع فسأتفهّم، فلست الأجدر بالمبادأة، على أنني أدرك أيضاً ـ قالت بلا تفخيم ـ أن شخصاً في منزلتك أسمى من العديد من الأشياء. ثم أضافت شيئاً لم يكن جال بخاطري وأعجبني، أنت لا تعرف عني سوى الرسالة الأخرى لكنني منذ ثلاثة أعوام وأنا أحيا حياتك، أحس بك حقيقةً في كل شخصية جديدة، أنتزعك من المسرح، وأنت دائماً نفس الشخص عندي حين لا تضع قناع الدور. (هذه الرسالة الثانية فُقدت، لكن الجمل كانت على هذا النحو، كانت تقول هذا؛ في المقابل، أتذكر أنني احتفظت بالرسالة الأولى في كتاب لمورافيا كنت أقرؤه، من المؤكد أنها مازالت هناك في المكتبة).

لو أنني حكيت ذلك لليموس لكنت أعطيته فكرة لدراما إذاعية جديدة، ويقيني أن اللقاء كان سيتحقق بعد عدة خيارات مثيرة وحينئذٍ يكتشف البطل أن لوثيانا مطابقة لما تخيله، برهان أن الحب يسبق الحب والنظرة تسبق النظرة، نظريات قد تكون مفيدة في راديو بلجرانو. لكن لوثيانا كانت امرأة تجاوزت الثلاثين، بيد أنها بالفعل كانت تحتفظ بشبابها على خير وجه، أكبر في الحجم كثيراً من امرأة الرسالتين، ولها شعر أسود رائع يحيا كأنما على هواه حين تحرك رأسها. عن محيا لوثيانا لم أكن كونت صورة معينة فيما خلا عينيها الخضراوين والحزن؛ أما العينان اللتان كانتا تستقبلانني وتضحكان لي فكانتا بنيتين وغير حزينتين البتة

Twitter: @ketab_n

تحت ذلك الشعر المتحرك. أن تحب الويسكي عن لي ظريفاً، فمن ناحية ليموس تبدأ كافة اللقاءات الرومانسية بالشاي(ومع برونا كانت قهوة بالحليب في عربة قطار).

لم تعتذر عن دعوتها لي، وأنا الذي أحياناً أبالغ في التمثيل لأنني في الواقع لا أعتقد كثيراً في أي شيء يحدث لي، أحسست بأنني طبيعي جداً، ولأول مرة لم يكن الويسكي زائفاً. الحق أننا قضينا وقتاً ممتعاً وبدا الأمر كأن أحداً قدم كلاً منا للآخر وبلا أفكار مضمرة، كما تبدأ العلاقات الحميمة حيث لا حاجة لأحد في الاستعراض أو المداراة؛ وكان منطقياً أن يدور الحديث حولي أولاً إذ إنني كنت أنا المعروف وهي كانت فقط رسالتين ولوثيانا؛ لذا، دون أن أبدي زهواً، تركتها تذكرني في العديد من المسلسلات الإذاعية، في ذلك الذي كانوا يعذبونني فيه حتى الموت أو في ذلك الذي كان يدور حول العمال المدفونين في منجم، وأدوار أخرى. رويداً رويداً جعلت أضبط الوجه والصورة، متخلصاً في مشقة من الرسالتين، من الشرفة المغلقة ومقعد الصفصاف المجدول. قبل أن نفترق علمت أنها تقطن شقة صغيرة في الدور الأرضي ومع خالتها بولي التي كانت في الثلاثينيات تعزف البيانو في برجامينو. ولوثيانا بدورها كانت هي أيضاً تركب الصوت على الصورة كما هي العادة في مثل هذه العلاقات من صنف الدجاجة العمياء، فقبيل نهاية اللقاء قالت لي إنها تخيلتني أطول قامة وبشعر مجعد وعينين رماديتين. مسألة الشعر المجعد باغتتني لأنني لم أشعر في أي من أدواري بأن لي شعراً مجعداً، لكن فكرتها هذه ربما كانت حاصل جمع، تراكماً لكل حقارات وخيانات مسلسلات ليموس. قلت لها ذلك مازحاً لكنها قالت لا، إذ كانت ترى الشخوص كما رسمهم ليموس وكانت في ذات الوقت قادرة على تجاهلهم، قادرة

Twitter: @ketab_n

على البقاء على نحو جميل معي فقط، مع صورتي، ولا تدري لـمَ في صورة شخص أطول قامة، شخص له شعر مجعد.

لو أن برونا بقيت حتى الآن في حياتي لا أعتقد أنني كنت سأحب لوثيانا؛ كان غيابها لايزال شديد الحضور ، فجوة في الهواء جعلت لوثيانا تملؤها دون أن تدري، وربما دون أن تتوقع. ومع ذلك كل شيء فيها سار بإيقاع أسرع، الانتقال من صوتي إلى تيتو بالكارثيل الآخر ذي الشعر الأملس والشخصية الأضعف من وحوش ليموس؛ لم تكد كافة هذه العمليات تستغرق منها شهراً إذ تمت في لقائين في مقهيين وثالث في شقتي؛ القطة قبلت عطر لوثيانا وبشرتها، نامت في حجرها، لم تبدِ ارتياحاً لمغيب أمست فيه غير مرغوب فيها واضطرت إلى القفز إلى الأرض وهي تموء. الخالة بولي رحلت إلى برجامينو لتعيش مع أخت لها، كانت مهمتها قد أنجزت ولوثيانا انتقلت إلى شقتي في نفس الأسبوع؛ حين عاونتها في إعداد أغراضها آلمني غياب الشرفة المغلقة والضوء الرمادي، كنت متيقناً من أنني لن أجدهما ومع ذلك ران شيء كالنقصان، عيب. في مساء الانتقال سردت لي الخالة بولي في عذوبة التاريخ العائلي المتواضع، طفولة لوثيانا، العريس الذي كانت تهفو إليه والذي فضل عرضاً للثلاجات في شيكاغو، الزواج من صاحب فندق في بريميرا خونتا والانفصال بعد ذلك بست سنوات، أشياء علمتها من لوثيانا لكن بشكل آخر، كأنها لم تقل الحقيقة عن نفسها الآن وهي فيما يبدو تبدأ بنفسها العيش في حاضر آخر، حاضر جسدها لصق جسدي، أطباق الحليب للقطة، السينما في كل آن، الحب. أذكر أنها كانت فترة دم في السنابل تقريباً حين طلبت من لوثيانا أن تصبغ شعرها بلون فاتح. في البداية ظنتها نزوة ممثل، إن شئت سأشتري باروكة، قالت ضاحكة،

Twitter: @ketab_n

وفي نفس الوقت قد تناسبك واحدة بشعر مجعد، مادمنا في ذلك. لكنني حين ألحفت بعد ذلك بأيام، قالت حسنٌ ففي نهاية الأمر لافارق هنالك بين الأسود والكستنائي، ولاح لي أنها انتبهت إلى أن ذلك عندي لايمت بصلة إلى جنون ممثل وإنما إلى أشياء أخرى، شرفة مغلقة، مقعد من الصفصاف المجدول. لم أضطر إلى طلب ذلك مرة أخرى، وسرني أنها فعلته من أجلي، صرحت لها به فيما كنا نتحابب، فيما كنت أغيب في شعرها وبين نهديها وأدع نفسي تغوص معها في حلم طويل آخر من الشفاه. (ربما حدث في اليوم التالي، أو قبل الخروج للشراء، لست متيقناً، إذ ضممت شعرها بكلتا يدي وعقصته عند قفاها، أكدت لها أنه كان أجمل. وهي نظرت إلى نفسها في المرآة ولم تقل شيئاً وإن أحسست بأنها لم تكن توافقني وكانت على صواب، لم تكن امرأة ممن يعقصن شعرهن، ومن المستحيل إنكار أنه كان أبهى وهو منسدل وقبل أن يكون فاتحاً، لكنني لم أقل لها هذا إذ كان يروقني أن أراها هكذا، أراها أجمل مما رأيتها في ذلك المساء حين دخلت الكافيتريا للمرة الأولى).

لم يرقني قط سماع صوتي وأنا أمثل، كنت أؤدي عملي وكفى، وكان زملائي يتعجبون من زهدي في الخيلاء التي كانت شديدة الظهور عليهم؛ قد يظنون، وقد لا يجانبهم الصواب، أن طبيعة أدواري لم تكن تشجعني على تذكرها ؛ لذا، نظر إليّ ليموس رافعاً حاجبيه حين طلبت منه أسطوانات **ورود العار** ، سألني لـمَ أريدها فأجبته بأي شيء ، مشاكل في النطق أود تجاوزها أو أي شيء من قبيله. حين عدت ومعي ألبوم الأسطوانات فوجئت لوثيانا أيضاً بشكل ما لأنني لم أكن أحدثها قط عن عملي، كانت هي التي تفصح لي من آن لآخر عن انطباعاتها، كانت تستمع إليّ كل مساء والقطة فوق تنورتها. رددت ما كنت قلته

Twitter: @ketab_n

لليموس، لكن بدل أن أستمع إلى الأسطوانات في حجرة أخرى أحضرت الفونوغراف إلى الصالون وطلبت من لوثيانا أن تمكث برهة معي، وأنا نفسي أعددت الشاي وغيرت الأضواء لكي تكون أكثر راحة. لماذا تحرك هذا المصباح من مكانه ؟ ، سألت لوثيانا، مكانه هناك أفضل. كان أفضل هناك كقطعة أثاث ولكنه كان يشع ضوءاً مؤذياً وحاراً فوق الأريكة التي تجلس عليها لوثيانا، من الأفضل أن يصلها ضوء المغيب الكابي من النافذة، ضوء رمادي إلى حد ما يتسلل إلى شعرها ويدها وهي تشرب الشاي. قالت لوثيانا: تدللني كثيراً، كل شيء من أجلي وأنت هناك في ركن ودون أن تجلس حتى !

بالطبع، وضعت بعض أجزاء فقط من ورود... ، زمن فنجاني شاي وسيجارة. كنت أستشعر راحة وأنا أرنو إلى لوثيانا وهي مستغرقة في الدراما، ترفع أحياناً رأسها حين تتعرف صوتي وتبتسم لي كأنها لا تهتم في شيء حين تعلم أن زوج أخت كارمنثيتا البائسة راح يدس دسائسه ليغتصب ثروة أسرة باردو، وأن المهمة النحسة سوف تستمر على مدار عدة حلقات حتى النصر الحتمي للحب والعدالة ، طبقاً لليموس. من ركني(كنت قبلت فنجاناً من الشاي إلى جانبها ثم عدت إلى نهاية الصالون كأنما الصوت يسمع من هناك بشكل أفضل) كنت أشعر بالسعادة ، كأنما عثرت على شيء كان ينقصني ؛ وتمنيت أن يدوم ، أن يظل ضوء المساء قريب الشبه من ضوء شرفة مغلقة. بيد أن ذلك بات محالاً بالطبع، فأوقفت الفونوغراف وخرجنا معاً إلى الشرفة بعد أن أعادت لوثيانا المصباح إلى مكانه لأنه حقيقةً لم يكن مناسباً هناك إلى حيث كنت حركته. قالت وهي تداعب يدي:أأفدت من سماع صوتك؟ أجل، كثيراً، وتحدثت عن مشاكل في التنفس، في الأحبال الصوتية، أي

Twitter: @ketab_n

شيء وكانت هي تقبله في احترام؛ ما لم أقله هو إنني في تلك اللحظة الرائعة افتقدت مقعد الصفصاف المجدول، وربما أيضاً أن تكون هي حزينة كمن ينظر إلى الفراغ قبل أن تواصل فقرة في رسالة.

كنا نقترب من نهاية **دم في السنابل** ، ثلاثة أسابيع أخرى وأحصل على إجازة. عند عودتي من الإذاعة، كنت أجد لوثيانا تقرأ أو تلاعب القطة في المقعد الذي كنت أهديته لها في عيد ميلادها إلى جانب منضدة الصفصاف المجدول التي تكمله. ليس لهما أي صلة بهذا المناخ، قالت لوثيانا بين ضاحكة وحائرة، لكن إذا كانا يروقانك فهما يروقانني كذلك، إنه لطاقم رائع وجد مريح. قلت لها: ستجدين راحة على هذا المقعد إذا أردت كتابة رسائل. أجابتني لوثيانا: أجل ، فأنا بالفعل مدينة برسالة لخالتي بولي، العزيزة. وبما أن الضوء في المساء لم يكن كافياً وهي جالسة في المقعد(لا أعتقد أنها انتبهت إلى أني غيرت لمبة المصباح)، انتهت إلى تقريب المنضدة والمقعد إلى الشرفة، كي تغزل أو تطالع المجلات، ربما كان في تلك الأيام الخريفية أو بعدها بقليل حين جلست بجانبها فترة طويلة في أحد المساءات وقبلتها كثيراً وقلت لها إنني لم أحبها قط كما كنت أحبها في تلك اللحظة، على نفس الهيئة التي كنت أراها عليها، وكما كنت أرغب في رؤيتها دائماً. هي لم تقل شيئاً، كانت يداها تعبثان بشعري وتشعثانه، ومال رأسها على كتفي وظلت ساكنة، كالغائبة. لماذا أنتظر من لوثيانا شيئاً آخر، هكذا، على حافة المغيب؟ هي كانت كمظروف الليلك، مثل رسائلها البسيطة وشبه الحيية. من الآن سيشق عليّ تصور أنني عرفتها في كافيتريا، وأن شعرها الفاحم كان يتموج كالسوط حين حيتني، في لحظة مغالبة الحيرة المبدئية للقاء. في ذاكرة حبي كانت هناك الشرفة المغلقة ، ظل مقعد من الصفصاف المجدول

Twitter: @ketab_n

يتناءى بها عن الصورة الأطول قامة والأكثر نشاطاً التي تجول صباحاً بالمنزل أو تلاعب القطة، تلك الصورة التي كانت في المساء تدخل فيما كنت أحب، فيما كان يجعلني أحبها ذلك الحب.

أأقول ذلك لها؟ لم يسعني الوقت، أعتقد أنني ترددت لأنني كنت أفضل الاحتفاظ بها هكذا، كان الاكتمال عظيماً للغاية فلم أشأ التفكر في صمتها المبهم، في شرود لم أعهده فيها من قبل، في طريقة النظر إلي كأنها تبحث، تبحث عن شيء، تحليق نظرة تعود في الحال إلى ماقبل، إلى القطة، إلى الكتاب. وهذا أيضاً كان يدخل ضمن طريقتي في حبها، المناخ الحزين للشرفة المقفلة، رسائل الليلك. في بعض مرة ، حين صحوت في ساعة متأخرة ليلاً، وأنا أنظر إليها وهي نائمة وملتصقة بي، شعرت بأن الأوان قد آن كي أبوح لها، كي أجعلها ملكي بقبولها التام لشَرَكي البطيء والعاشق.

لم أفعل لأن لوثيانا كانت نائمة ، لأن لوثيانا كانت مستيقظة، لأن ذلك الثلاثاء كنا سنذهب إلى السينما، لأننا كنا نبحث عن سيارة لقضاء العطلة، لأن الحياة كانت تأتي في مساحات كبيرة من الضوء قبل وبعد الغروبات التي لاح فيها الضوء الرمادي مكثّفاً تمامه في لحظة مقعد الصفصاف المجدول. أما مسألة أنها تكلمني قليلاً إلى هذا الحد، أن تعاود النظر إليّ أحياناً كأنها تبحث عن شيء مفقود، فكانت تحبس في داخلي حاجتي الغامضة إلى الإفصاح لها عن الحقيقة، تفسير الشعر الكستنائي، ضوء الشرفة. لم يسعني الوقت. مصادفة مردها تغيير المواعيد قادتني إلى وسط المدينة في نهاية صباح أحد الأيام. رأيتها تخرج من أحد الفنادق، لم أتعرفها حين تعرفتها، لم أفهم حين فهمت أنها كانت تخرج وتشد على ذراع رجل أطول قامة مني، رجل ينحني قليلاً ليقبلها في أذنها، ليفرك شعره المجعد في شعر لوثيانا الكستنائي.

Twitter: @ketab_n

وأنتِ استلقيتِ إلى جانبكَ

متى رأيتِه عارياً آخر مرة ؟

لم يكن هذا سؤالاً تقريباً،كنتِ تخرجين من الكابينة تشبكين مشد البكيني فيما تبحثين عن ظل ابنكِ الذي كان ينتظركِ على حافة الماء،حينئذٍ حدث ذلك وأنتِ في كامل شرودكِ،السؤال،سؤال بلا إرادة حقيقية في الإجابة،عوز وعيتِه بغتةً على الأحرى: جسد روبرتو الصغير تحت الدوش،تدليك ركبته المصابة،صور غائبة لاتعلمين منذ متى،على أية حال منذ شهور وشهور،منذ آخر مرة رأيتِه عارياً؛ أكثر من عام، زمن كافٍ كي يصارع روبرتو خجله كلما خانه صوته عند الكلام، نهاية الثقة، الملجأ السهل بين ذراعيكِ عندما يؤلمه أو يحزنه شيء؛ يوم ميلاد آخر، عامه الخامس عشر، سبعة شهور إلى الوراء، وحينئذٍ المفتاح في باب الحمّام، تصبحين على خير مرتدياً بيجامته وحده في غرفة نومه، لايكاد يتنازل من حين إلى حين لعادة القفز حول رقبتكِ والحنان العنيف والقبلات الرطبة، ماما، ماما، ماما العزيزة، دنيس العزيزة، ماما أو دنيس حسب المزاج والساعة، أنتَ الجرو، أنتَ روبرتو جرو دنيس، مستلقياً على الشاطىء تنظر إلى الأعشاب البحرية التي ترسم خط المد، ترفع رأسكَ قليلاً للنظر إليكِ وأنتِ آتية من ناحية الكبائن تضغطين السيجارة بين شفتيكِ كإيماءة حازمة فيما أنتَ تنظر إليها.

Twitter: @ketab_n

وأنتِ استلقيتِ إلى جانبكَ وأنتَ تمددتَ لتبحث عن علبة السـجائر والقداحة.

ـ كلا، شكراً،ليس الآن ـ قلتِ وأنتِ تخرجين نظارتكِ الشمسية من حقيبة يدكِ التي كنتَ أنتَ تحتفظ بها بينما تغير دنيس ملابسها.

سألتها:

ـ أتريدين أن أحضر لكِ كأس ويسكي ؟

ـ ليكن بعد السباحة. هيا بنا ؟

ـ أجل،بالطبع.

ـ يستوي لديكَ الأمر،أليس كذلك، يستوي لديكَ كل شيء هذه الأيام ياروبرتو.

ـ دعكِ من هذا المكر يادنيس.

ـ ليس لوماً، أتفهّم أنكَ شارد الذهن.

ـ أف ـ قلتَ وأشحتَ بوجهكَ.

ـ لـمَ لم تأتِ إلى الشاطىء ؟

ـ من ؟ ليليان ؟ كيف لي أن أعرف ! ليلة أمس كانت متوعكة،قالت لي ذلك.

قلتِ وأنتِ تمسحين الأفق بنظرة وئيدة يشوبها شيء من قصر النظر:

ـ كما أني لا أرى أبويها. سيتعين أن نسأل في الفندق إذا كان ثمة مريض.

قلتَ أنتَ متجهماً ومقاطعاً:

Twitter: @ketab_n

ـ سأذهب فيما بعد.

وأنتِ نهضتِ وأنتَ تبعتها بعدة خطوات، وانتظرتَ أن تلقي بنفسها في الماء كي تهبط متمهلاً وتسبح بعيداً عنها فرفعت ذراعيها وأرسلت لكَ تحية،عندئذٍ أطلقت أسلوب الفراشة وعندما تصنعتَ أنكَ اصطدمت بها عانقتِه أنتِ ضاحكة، تصفعينه، دائماً نفس الطفل المتوحش،حتى في البحر تدوس قدمي. بعدَ أن لعبتما وفررتما من بعضكما البعض انتهيتما إلى العوم في أناة نحو البر؛ وعلى الشاطىء المتضائل الآن كان ظل ليليان الفجائي برغوثة صغيرة حمراء تائهة على نحو ما.

قلتَ أنتَ قبل أن ترفعي أنتِ ذراعكِ نحوها تنادينها:

ـ إلى الجحيم، إذا جاءت متأخرة فهي الخاسرة،نحن سنبقى هنا،فالماء رائع.

ـ ليلة أمس أخذتها في نزهة وعدت متأخراً. ألم تغضب أورسولا من ليليان؟

ـ ولمَ كانت ستغضب ؟ لم يكن الوقت متأخراً، وليليان لم تعد طفلة.

ـ في رأيكَ، وليس في رأي أورسولا التي مازالت تراها بمرولتها، ولن نتحدث عن خوسيه لويس لأن هذا لن يقتنع مطلقاً بأن طفلته الصغيرة تأتيها دورتها في الموعد المحدد.

ـ آهٍ منكِ ومن فظاظتكِ ـ قلتَ أنتَ معتداً وحائراً ـ لنتسابق حتى الحاجز يادنيس،أدعكِ تتقدمينني خمسة أمتار.

ـ لنبقَ هنا، ولتسابق ليليان، من المؤكد أنها تهزمكَ. أرقدت معها ليلة أمس؟

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا ؟ كيف... ؟

قلتِ له وأنتِ ممسكة بذقنه ومحاولة دفعه على ظهره:

ـ بلعت ماء يا أبله. ربما كان منطقياً، أليس كذلك ؟ اصطحبتها ليلة أمس إلى الشاطيء وعدتما في وقت متأخر، والآن تظهر ليليان في آخر لحظة،انتبه أيها الحمار، لقد ركلتني مرة أخرى في كاحلي، ولا حتى خارج البحر يؤتمن جانبكَ.

تمددتَ على لوح خشبي ـ وأنتِ قلدته بلا عجالة ـ ولذتَ بالصمت كأنكَ تنتظر، لكنكِ كنتِ تنتظرين أنتِ أيضاً وكانت الشمس تلهب عيونكما.

قلتَ:

ـ أنا كنت أرغب يا ماما لكنها لم تُرد، هي...

ـ أرغبتَ حقاً أم بالكلام فقط ؟

ـ يبدو لي أنها هي أيضاً كانت ترغب، كنا على مقربة من الجرف وكان الأمر يسيراً إذ أعرف هناك مغارة يمكن أن... لكنها، فيمابعد، لم تُرد، انتابها ذعر... أي حيلة لي ؟

وأنتِ فكرتِ في أن خمسة عشر عاماً ونصف العام أعوام قليلة جداً، فأمسكتِ برأسه وقبلتِ شعره فيما كنتَ أنتَ تحتج ضاحكاً؛ والآن نعم،الآنَ حقيقةً كنتَ تنتظر أن تواصل دنيس حديثها معكَ عن ذلك، وأن تكون هي على نحو لايصدق من يحدثكَ عن ذلك.

ـ إذا كان ظهر لك أن ليليان كانت ترغب في ذلك فإن ما لم تفعلاه أمس ستفعلانه هذه الليلة أو غداً، ومن المؤكد أنكما ستفعلان الأشياء بحمقكما المعهود.

Twitter: @ketab_n

نظرتَ إليها وسط الأمواج الناعمة، وأنتِ كدتِ تضحكين في وجهه لأن من الواضح أن روبرتو لم يكن يفهم،وأنكَ كنتَ شبه مستاء، خائفاً تقريباً من أن تكون دنيس تحاول أن تشرح لكَ الأبجدية، بحق السماء،ليس أقل من ذلك !

ـ أقول إنكما لاأنتَ ولا هي ستأخذان أقل حذر، أيها العبيط، وأن نتيجة نهاية هذا الصيف هيَ أن أورسولا وخوسيه لويس،في أحد الأيام، سيفاجآن بالطفلة حاملاً. أتفهم الآن ؟

لم تقل شيئاً ولكنكَ بالطبع فهمت، كنتَ شرعتَ في فهم ذلك منذ أول قبلة مع ليليان، كنتَ طرحتَ هذا السؤال ثم فكرتَ في الصيدلية ولا شيء أكثر،لم تتعدَ ذلك.

ـ قد أكون مخطئة، لكن من تعبير وجه ليليان يعن لي أنها لاتفقه شيئاً عن أي شيء إلا نظرياً وهو ما لا يعني شيئاً. يسرني الأمر من أجلكَ،إن أردت، ولكن بما أنكَ أكبر سناً عليك أن تقوم بهذا الدور.

رآكِ تغمرين وجهكِ في الماء وتفركينه بشدة، رأتكَ تديم النظر إليها كمن يذعن مرغماً. سبحتِ على ظهركِ في بطء وانتظرتِ أن تقترب أنتَ منها مرة أخرى كي تحدثكَ عن الشيء نفسه، عما طفقتَ تفكر فيه جل الوقت كأنكَ أمام طاولة الصيدلية.

ـ ليس الحل الأمثل، لكن إذا كانت هي لم تفعل ذلك قط يبدو لي عسيراً أن تحدثها عن الحبوب، فضلاً عن أن ذلك هنا...

قلتَ بصوت أجش:

ـ أنا أيضاً فكرت فيها.

Twitter: @ketab_n

ـ فيم انتظاركَ إذن ؟ تشتريها وتحتفظ بها في جيبكَ؛ وقبل كل شيء، عليكَ ألا تفقد عقلكَ وأن تستخدمها.

غصتَ أنتَ في الماء بغتةً ودفعتها من أسفل حتى جعلتها تصرخ وتضحك، وأحطتها بغطاء من الزبد ورميتها بصفعات مائية وصدرت عنكَ الكلمات ممزقة،مهشمة من جراء العطس وضربات الماء، لم تواتكَ الجرأة، لم تكن ابتعتَ ذلك من قبل، ولن تفعل، ففي الصيدلية كانت هناك العجوز ديلكاسي، لم يكن هنالك بائعون من الرجال،أتلتفتين إلى ذلك يا دنيس ؟ كيف لي أن أطلب ذلك؟ لن أستطيع، أشعر بالحرج.

في سن السابعة، كنتَ عدتَ في المساء من المدرسة وعليكَ أمارات الخجل،وأنتِ التي لم تسببي له حرجاً بصدد هذه الأشياء انتظرتِ حتى تكومتَ أنتَ ساعة النوم،بين ذراعيها، تلعبان لعبة العناق قبل النوم، لعبة الأناكوندا المميتة كما كنتما تسميانها؛ سؤال بسيط كان كافياً لتعرف أنكَ في أحد أوقات الراحة أخذتَ تشعر بوخز بين فخذيكَ ومؤخرتكَ وأنكَ جعلت تحك نفسكَ حتى نزفت وكنتَ مذعوراً وخجلان لأنكَ ظننته جرباً وأن جياد السيد ملشـــور أصابتكَ بالعدوى. وأنتِ قبّـلتِه وسط دموع الخوف والحيرة التي غمرت وجهكِ وكنتِ مددتِه على بطنه وباعدتِ ما بين ساقيه، وبعد أن تفحصتِه ملياً رأيتِ قرصة بقة أو قملة، متاعب المدرسة،... ولكنه ليس جرباً يا عبيط، كل ما في الأمر أنكَ حككت جلدكَ حتى أدميته. كان كل شيء يسيراً، كحول ومرهم وتلك الأنامل التي تداعب وتهديء، وشعوركَ على الجانب الآخر من الحيرة، سعيداً ومطمئناً، أجل، بالطبع، لا شيء هنالك أيها الأبله، نم وغداً صباحاً ننظر من جديد. أيامٌ كانت فيها الأشياء على هذا النحو، صورٌ تعود من ماضٍ جد قريب، بين موجتين وضحكتين

Twitter: @ketab_n

والتنائي المفاجيء قررتَه بعد تبدل الصوت، تفاحة آدم،منبت الشارب، الصورة الساذجة للملائكة تطردكَ من الفردوس. كان أمراً مثيراً للسخرية، وأنتِ ضحكتِ تحت الماء، تغطيكِ موجة كملاءة، كان أمراً مثيراً للسخرية إذ لم يكن هنالك في الحقيقة أي فارق بين الخجل من الاعتراف بحرقان مريب وعدم إدراك أنه كبر كي يواجه العجوز ديلكاسي. وحين اقترب من جديد، دون أن تنظر إليها، سابحاً كجرو حول جسدها الطافي على ظهره، أنتِ كنتِ مدركة ما تنتظره أنتَ بين متلهف ومهين، كما كان يحدث من قبل عندما تضطر إلى الاستسلام لعينيها ويدها التي كان عليها أن تؤدي الأشياء الضرورية،كان شيئاً مخجلاً وعذباً، كانت دنيس تخرجكَ مرة أخرى من ألم ببطنكَ أو من شد عضلي بربلة ساقكَ. قلتِ أنتِ:

ـ إذا دعت الحاجة سأذهب أنا نفسي. لا أصدق أن تكون بهذا الجبن يابني.

ـ أنتِ ؟ أنتِ ستذهبين ؟

ـ طبعاً أنا، والدة الطفل. فعلى حد اعتقادي، لن ترسل ليليان...

ـ دنيس، بحق الجحيم...

ـ أشعر بالبرد ـ قلتِ أنتِ صارمة تقريباً ـ والآن أقبل كأس الويسكي؛ قبل ذلك،أسابقكَ حتى الحاجز دون أن أتقدمكَ،لأنني سأفوز على أية حال.

كان الأمر مثل رفع ورقة كربون ورؤية نسخة مطابقة لليوم التالي تحتها،الغداء مع والدي ليليان والسيد جوتسي الخبير في القواقع البحرية، القيلولة الطويلة والحارة، الشاي معكَ أنتَ الذي كنت تختفي

Twitter: @ketab_n

طويلاً لكنكَ في تلك الساعة كنتَ تؤدي نفس الطقس، تناول الشطائر في الشرفة،هبوط الليل شيئاً فشيئاً،وأنتِ كنتِ تشعرين بما يشبه الأسى لرؤيتكَ وذيلكَ بين رجليكَ، لكنكِ لاتودين كسر الطقوس، ذلك اللقاء المسائي أينما كنتما، الشاي قبل الاهتمام بشؤونكِ. كان جلياً ومؤسياً ألا تستطيع حماية نفسكَ، مسكين ياروبرتو، أن تكون جرواً صغيراً تناولها الزبد والعسل، أن تبحث عن ذيلكَ،كلباً دوامة، تزدرد الشطائر بين عبارات تزدردها أيضاً بين بين،ومرة أخرى الشاي،مرة أخرى سيجارة.

مضرب تنس،خدان من الطماطم، لون برونزي في كل مكان،ليليان تمر بكَ لكي تشاهدا ذلك الفيلم قبل العشاء. وأنتِ ابتهجتِ حين ذهبا، وأنتَ كنتَ تائهاً حقيقةً ولم يكن بوسعكَ العثور على ركنكَ، كان ينبغي أن تجد النجاة من جانب ليليان، مدفوعين إلى تبادل كلمات قصيرة لاتفهمينها، ضحكات ولكزات من صنف الموجة الجديدة التي ليس في وسع أية قواعد نحو أن تفسرها والتي هي الحياة نفسها تسخر من جديد من قواعد النحو. وأنتِ كنت تستشعرين الراحة هكذا، وحدكِ، بيدأنكِ، بغتةً، يداخلكِ شيء كالحزن، ذلك الصمت المهذب، ذلك الفيلم الذي في وسعهما هما فقط أن يشاهداه. ارتديتِ سروالاً وقميصاً تشعرين دائماً بالراحة لارتدائه وهبطت شارع البحر لتتوقفي عند المحال التجارية وعند الكشك لشراء مجلة وتبغ. بواجهة صيدلية القرية كان ثمة إعلان بالنيون يذكر بهيكل معبد شائه، وتحت ذلك الغطاء الشاذ الأخضر والأحمر، القاعة الصغيرة تعبق برائحة الأعشاب الطبية، والسيدة ديلكاسي العجوز والفتاة الصغيرة السن التي كانت تثير خوفكِ بالفعل وإن كنتِ تحدثتِ فقط عن السيدة ديلكاسي. كان ثمة عميلان متغضنان وثرثاران يطلبان أسبرين وحبوباً للمعدة، كانا

Twitter: @ketab_n

يدفعان ثمنها دون أن ينتهيا إلى الرحيل، يتفقدان الواجهة ويطيلان دقيقة أقل سأماً بقليل من تلك الدقائق التي يقضيانها في منزليهما. وأنتِ استدبرتهما مدركة أن المكان كان ضيقاً للغاية ولن تفوت أحداً أية كلمة، وبعد أن وافقتِ السيدة ديلكاسي في أن الطقس كان رائعاً، طلبت زجاجة كحول كأنكِ تعطين مهلة أخيرة لكلا العميلين اللذين لم يعد لوجودهما أي مبرر، وحين جاءتكِ بزجاجة الكحول فيما ظل كلاهما يشاهدان الواجهة التي تعرض أغذية للأطفال، خفضتِ صوتكِ إلى أقصى حد:أحتاج شيئاً لابني لأنه لايجرؤ على شرائه، أجل، بالضبط، لاأدري إن كانت تأتي في عبوات لكن على أية حال أعطيني بعضاً منها،فيما بعد عليه أن يعتني بنفسه. أمر مضحك،أليس كذلك ؟

والآن،بعد أن قالت هي ذلك، أنتِ نفسكِ كان في وسعكِ الإجابة: بلى،كان أمراً مضحكاً،وتطلقين ضحكة في وجه العجوز ديلكاسي، كان صوتها، صوت ببغاء متيبسة، يشرح من شهادة الدبلوم الصفراء المعلقة بين الفترينات: تأتي في أكياس فردية وأيضاً في عبوة من اثني عشر أو أربعة وعشرين. ظل أحد العميلين ينظر كأنه لا يصدق؛ والآخر، عجوز محشورة في قصر نظرها وفي رداء حتى الأرض،كانت تتراجع رويداً رويداً قائلة طابت ليلتك، طابت ليلتك، والبائعة الأصغر سناً في غاية المرح، طابت ليلتك يا سيدة باردو، والسيدة ديلكاسي تزدرد لعابها أخيراً، وقبل أن توليكِ ظهرها: على أية حال إنه لأمر محرج لكِ، لمَ لم تقولي لي أن ندخل في الحجرة الخلفية ؟ فيما كنتِ أنتِ تتخيلينه في هذا الموقف، تشعر بالأسى من أجلكَ لأن المؤكد أنكَ لن تستطيع أن تطلب من العجوز ديلكاسي أن تقودكَ إلى الحجرة الخلفية، لكونكَ رجلاً ومثل هذه الأشياء. كلا،قلتِ أو فكرتِ (لم تتيقني من ذلك البتة وكان يستوي

Twitter: @ketab_n

الأمر)،لا أرى مبرراً لأن أجعل من علبة عوازل طبية سراً أو دراما،لو كنت طلبت ذلك منها في الحجرة الخلفية لكانت خانتني، لأمست شريكة لكَ، وفي غضون أسابيع ربما كنت سأضطر لتكرار الموقف، وهذا لا يا روبرتو،مرة واحدة تكفي، والآن كل منا يعرف طريقه، فأنا لن أعاود رؤيتكَ عارياً يا بني، هذه المرة كانت الأخيرة،أجل،عبوة من اثني عشر يا سيدتي.

قالت البائعة الشابة غارقة في الضحك وهي تفكر في العميلين:

ـ لقد أصبتها بالذعر تماماً.

فقلتِ وأنتِ تخرجين النقود:

ـ لقد التفت إلى ذلك، ليست هذه أشياء تفعل حقيقةً.

قبل أن ترتدي ثيابكِ للعشاء، وضعت المغلّف على فراشكَ وعندما عدتَ من السينما مسرعاً لأن الوقت تأخر رأيتَ العلبة البيضاء على الوسادة وتلون وجهكَ بكافة الألوان وفضضتها، حينئذٍ دنيس، ماما، دعيني أدخل، ماما،وجدت ما تركته لي. كنتِ ترتدين رداء مكشوفاً، في غاية الشباب في ردائكِ الأبيض، استقبلتكَ ناظرة إليكَ من المرآة، من شيء بعيد ومختلف.

ـ نعم، والآن اعتنِ بنفسكَ وحدكَ يا صغيري،لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك من أجلكما.

منذ زمن بعيد اتفقتما ألا تناديكَ بالصغير، أدركتَ أنها كانت تنتقم،تسترد منكَ الثمن. لم تكن تدري ماذا تفعل، ذهبتَ إلى الشرفة ثم اقتربتَ من دنيس وأمسكتَ بكتفيها، التصقتَ بظهرها وقبّلتَ

Twitter: @ketab_n

عنقها،عدة مرات،رطباً وصغيراً، فيما كنتِ أنتِ تنتهين من إصلاح شعركِ وتبحثين عن العطر. حين شعرتِ بدفء الدمعة على جلدكِ، درتِ دورة كاملة ودفعتكَ بنعومة إلى الخلف، ضاحكة دون أن يسمع صوتكِ، ضحكة وئيدة كما في السينما الصامتة.

ـ تأخرنا يا أبله، تعلم أن أورسولا لا تحب الانتظار على المائدة، أكان الفيلم جيداً ؟

الفكرة مرفوضة وإن كان ذلك عسيراً بين اليقظة والمنام، في منتصف الليل،وبعوضة حليفة السقوبة حتى لا تتركِ تروحين في النوم. أشعلتِ مصباح الفراش وشربتِ جرعة طويلة من الماء، واستلقيتِ مرة أخرى على ظهركِ، كان الحر لايحتمل لكن،في المغارة، سيكون الجو بارداً، وتقريباً على حافة النوم تخيلتِ المغارة برملها الأبيض،والآن حقيقةً هو سقوبة تميل فوق ليليان المستلقية على ظهرها وعيناها جاحظتان ومبللتان فيما كنتَ تقبل نهديها وتتمتم بكلمات لامعنى لها، لكنكَ بالطبع لم تكن قادراً على فعل الأشياء كما ينبغي وحين تنتبه يكون الأوان قد فات، وكانت السقوبة تود التدخل دون أن تضايقهما،المساعدة حتى لايقعا في الخطأ، مرة أخرى العادة القديمة، معرفة جسدكَ جيداً ووجهكَ إلى أسفل يبحث عن مدخل بين الشكوى والقبل، معاودة النظر عن قرب إلى عضلاتكَ وظهركَ، تكرار الوصفات إزاء الخبطات أو الزكام،ارخ جسدكَ، لن يؤلمكَ،ولد كبير لا يبكي من حقنة صغيرة هكذا، هيا. ومرة أخرى المصباح، الماء، مواصلة قراءة المجلة الغبية، سوف تنامين فيما بعد، بعد أن تعود أنتَ على أطراف أصابعكَ وتسمعينه في الحمّام، لايكاد البلاستيك يصدر صوتاً، همس شخص يتكلم في المنام أو يكلم نفسه من أجل أن يداعبه الكرى.

Twitter: @ketab_n

كان الماء أكثر برودة ولكنكِ سررتِ للسعته اللاذعة، سبحتِ حتى الحاجز بلا توقف ومن هناك نظرتِ إلى من كانوا يلهون على الشط، إليكَ وأنتَ تدخن في الشمس بلا رغبة في القفز في الماء. استرحتِ على اللوح الخشبي ولدى عودتكِ التقيتِ بليليان التي كانت تسبح في بطء،تولي اهتمامها لأسلوب السباحة،وقالت لكِ «أهلاً» التي كانت فيما يبدو أقصى تنازل من جانبها تجاه الكبار. أما أنتَ فقد نهضتَ بقفزة واحدة وأحطتَ دنيس بمنشفة وأفسحتَ لها مكاناً على الجانب الأفضل من الريح.

ـ لن يعجبكَ الماء،إنه متجمد.

ـ تصورت ذلك،جلدكِ مقشعر. انتظري، هذه القداحة لاتعمل، لدي أخرى هنا. أأحضر لكِ نسكافه ساخناً ؟

مستلقية على بطنكِ،بدأ نحل الشمس طنينه فوق جسدكِ، وقفاز الرمل المخملي، لحظة انتقالية. وأنتَ أحضرتَ القهوة وسألتها إذا كنتما ستعودان يوم الأحد أم أنها تفضل البقاء مدة أطول. كلا، ما الداعي ؟ أصبح الطقس بارداً.

قلتَ لها وأنتَ تنظر إلى البعيد:

ـ ذاك أفضل. نعود وينتهي الأمر، فالشاطيء جميل خمسة عشر يوماً،بعد ذلك،يتيبس المرء.

انتظرتَ بالطبع، لكنه لم يحدث كما أردتَ،جاءت يدها فقط لتداعب شعركَ،بالكاد.

ـ قولي شيئاً يادنيس، لاتظلي هكذا،أنا...

Twitter: @ketab_n

ـ شش، إذا كان على أحد أن يقول شيئاً فعليكَ أنتَ،لا تضعني في صورة الأم العنكبوت.

ـ كلا يا ماما، فالأمر...

ـ ليس لدينا مانقوله، فأنتَ تعلم أن ما فعلته كان من أجل ليليان ومن أجلكَ. والآن بما أنكَ تشعر برجولتكَ تعلّم أن تتصرف بنفسكَ. إذا كانت حنجرة الصغير تؤلمه فهو يعرف أين يجد الدواء.

واليد التي كانت داعبت شعركَ انزلقت فوق كتفكَ وسقطت على الرمل. وأنتِ كنتِ ضغطتِ بصرامة كل كلمة لكن اليد كانت يد دنيس التي لم تتغير، الحمامة التي تطرد الآلام، صاحبة الدغدغات واللمسات وسط القطن وماء الأكسجين. هذا أيضاً كان ينبغي أن يتوقف إن آجلاً أم عاجلاً، وعيتِ ذلك مثل ضربة مكتومة، حافة الحد كان يجب أن تسقط في أية ليلة أو في أي صباح. وأنتَ كنت بادرتَ بأولى إشارات التنائي، تحبس نفسكَ في الحمّام وتبدّل ملابسكَ وحدكَ وتختفي لساعات طويلة في الشارع، لكن وجب عليكِ أنتِ أن تسقطي حافة الحد في لحظة ربما كانت الآن، تلك اللمسة الأخيرة لظهركَ. إذا كانت حنجرة الصغير تؤلمه فهو يعرف أين يجد الدواء.

ـ لا تهتمي يا دنيس ـ قلتَ وقد أظلم محياكَ وفمكَ شبه مغطى بالرمال ـ لاتهتمي بأمر ليليان. لم تُرد، أتعلمين ؟، في النهاية لم تُرد. هذه البنت بلهاء لا أكثر.

وأنتِ تمددتِ وملأتِ عينيكِ بالرمل بحركتكِ المفاجئة. وسط الدموع رأيتِ فمه يختلج.

ـ قلت لكَ كفى،أتسمعني ؟ كفى،كفى !

Twitter: @ketab_n

ـ ماما...

لكنها استدبرتكَ وغطت وجهها بقبعتها الخوصية. السقوبة، الأرق، العجوز ديلكاسي، كله باعث على الضحك. حافة الحد ؟... أي حد ؟ مازال محتملاً في يوم من هذه الأيام ألا يكون باب الحمّام مغلقاً بالمفتاح وتدخلين وتفاجئكَ عارياً ومغطى بالصابون ونهباً للحيرة المباغتة. أو على العكس، أن تحدجها بنظركَ من الباب عندما تخرجين من الدوش، كما كان بعضكما ينظر إلى بعض على مدار سنين طويلة وتلهوان فيما تجففان نفسيكما وترتديان ثيابكما. أين هو الحد، أين الحد حقيقةً ؟

ـ أهلاً ـ قالت ليليان وهي تجلس بينكما.

Twitter: @ketab_n

لقاء في دائـرة حمراء

إلى خورخي لـويس بورخِس

يبدو لي يا خاكوبو أنك في تلك الليلة كنت تشعر ببرد شديد، وأن مطر فيسبادن العنيد جاء ليعضد قرارك بدخول مطعم «زغرب» . ربما كانت شهيتك إلى الطعام المبرر الأساسي، إذ كنت أمضيت طيلة النهار في العمل وحان الوقت للعشاء في أي مكان هادىء وصامت، ورغم المزايا الأخرى التي كان يفتقر إليها «زغرب»، اجتمعت له هاتان السمتان. وأنتَ ـ أعتقد أنك هززت منكبيك كأنك تحتال على نفسك ـ قررت العشاء هناك. على أية حال، كانت ثمة مناضد كثيرة في الضوء الخافت للقاعة البلقانية الغامضة على نحو ما، وكان طيباً أن تتمكن من وضع معطفك المبتل على المشجب العتيق وأن تعثر على ذلك الركن الذي كانت الشمعة الخضراء تحرك ظلاله بنعومة وتتيح لك رؤية أدوات مائدة قديمة وكأس مرتفعة جداً كان الضوء يحتمي بها كطائر.

في باديء الأمر، كان ذلك الإحساس المعتاد في أي مطعم خاوٍ، شعور بين الضيق والراحة. في مظهره لم يكن به ما يعيبه، لكن غياب الزبائن في تلك الساعة كان محيراً. في مدينة غريبة لا تدوم مثل هذه الأفكار طويلاً، فماذا يعرف المرء عن عاداتها ومواقيتها. المهم الدفء وقائمة الطعام التي تعد بالمفاجآت أو باللقاءات المتجددة والمرأة الضئيلة الجسم ذات العينين الواسعتين والشعر الفاحم التي جاءت كأنما من

Twitter: @ketab_n

العدم ورسمت فجأةً إلى جانب المفرش الأبيض ابتسامة خفيفة ساكنة تنتظر. وأنت فكرت في أن الوقت قد يكون متأخراً وفق روتين المدينة بيد أنه لم يُتح لك وقت تقريباً كي ترفع نظرة استفهام سياحية لأن يداً صغيرة وشاحبة كانت تضع منديلاً وتعيد الملاّحة إلى مكانها الصحيح. وأنت منطقياً اخترت شواء قطع اللحم بالبصل والفلفل الأحمر ونبيذاً لزجاً وعطراً لاينتمي في شيء إلى الغرب، وكنت تفضل ـ مثلما كنت أفعل أنا في زمن آخر ـ الفرار إلى طعام الفنادق، إلى حيث يستحيل الخوف من الأطباق التقليدية أو المثيرة للغرائز طعاماً بلا مذاق. بل وطلبت خبزاً أسود قد لا يناسب الشواء؛ ومع هذا، أحضرته المرأة في الحال. في تلك اللحظة فقط، وأنت تدخن أولى سجائرك، نظرت بشيء من التفصيل إلى الموقع الترانسلفاني الذي كان ملاذك من المطر ومن مدينة ألمانية لا تشد الانتباه. وأمسى الصمت والغياب وضوء الشموع الغامض أصدقاءك تقريباً إذ كانت تتناءى بك على أية حال عن بقية الأشياء وتتيح لك، في روعة، أن تمكث وحيداً مع سيجارتك وتعبك.

كانت اليد التي تصب النبيذ في الكأس المرتفعة مغطاة بالشعر، وحَدَت بك ثانيةٌ مفزّعةٌ إلى أن تكسر تلك السلسلة المنطقية ـ العبثية وتعي أن المرأة الشاحبة لم تعد إلى جانبك وأن ساقياً أسمر وصامتاً في مكانها كان يدعوك إلى تذوق النبيذ بإيماءة نمت عن انتظار روتيني، فمن النادر أن يجد أحد النبيذ رديئاً. ثم أتم الساقي ملء الكأس كأنما انتظاره لم يكن إلا جزءاً هيناً من الطقوس.

في نفس الوقت تقريباً، وضع نادل ثانٍ شبيه بالأول على نحو عجيب(لكن الزي التقليدي والفودين الأسودين قربا فيما بينهما) وضع على المنضدة الصينية التي كان البخار يتصاعد منها، وأخرج قطع اللحم

Twitter: @ketab_n

من الأسياخ بحركة سريعة. تبودلت العبارات التقليدية الضرورية بألمانية رديئة متوقعة في العميل وفيمن قام على خدمته؛ ومن جديد، لفّتكَ الدعة في ضوء القاعة الخافت وفي تعبك. في تلك اللحظة اشتد وشيش المطر في الشارع بيد أنه توقف في الحال حين أدركت دون أن تلتفت تقريباً أن باب المطعم قد فتح ليدخل عميل آخر، امرأة لاحت ضعيفة البصر ليس لسمك عدستيها وحسب بل وللثقة الرعناء التي تقدمت بها وسط المناضد إلى أن جلست في الركن المقابل من القاعة الذي كانت تضيئه بالكاد شمعة أو شمعتان اهتزتا عند مرورها ومزجتا ظلها الغامض بالأثاث والجدر والستر الحمراء الكثيفة في الخلفية، هناك حيث تراءى المطعم ملتصقاً ببقية منزل خفي.

فيما كنت تتناول طعامك استشعرت لذة مضمرة إزاء محاولة السائحة الانجليزية (لا يمكن أن تكون شيئاً آخر بمعطفها ذاك وبما برز من قميصها وكان لونه بين الكبريتي وحمرة الطماطم) أن تقدح زناد فكرها، بكل قصر نظرها، في قائمة الطعام التي يبدو أنها كانت مستغلقة تماماً على فهمها، بينما مكثت المرأة ذات العينين النجلاوين السوداوين في الركن الثالث من القاعة، حيث كان ثمة بار بمرايا وزهور ذابلة، في انتظار أن تنتهي السائحة من ترددها كي تقترب منها. وكان الساقيان قد اتخذا موقعيهما خلف البار على جانبي المرأة، كانا هما أيضاً ينتظران وقد شبكا أذرعهما، شديدي الشبه فيما بينهما إلى حد أن انعكاس ظهريهما على زجاج المرآة القديم شابه نحو من الزيف كتكرار رباعي مستحيل وخادع. كانوا جميعاً ينظرون إلى السائحة الانجليزية التي لاحت على غير وعي بمرور الوقت ولايزال وجهها لصق قائمة الطعام. كان الانتظار قائماً حين أخرجتْ سيجارة أخرى ثم اقتربت المرأة من مائدتك لتسألك إن كنت تفضل الحساء أو ربما جبن الماعز على الطريقة اليونانية.

Twitter: @ketab_n

كانت تتقدم في أسئلتها بعد كل نفي مهذب من جانبك: كان الجبن طيباً جداً لكن، حينئذٍ، ربما كنت تفضل بعض حلوى الإقليم. وأنت فقط كنت تريد قهوة تركية لأن الطعام كان وفيراً وكنت بدأت تشعر بالخدر. عنت المرأة حائرة، كأنما تتيح لك فرصة كي تغير رأيك وتقرر طلب صينية الجبن، وحين لم تفعل رددت هي آلياً: قهوة تركية، فقلت أنت: نعم، قهوة تركية، فزفرت المرأة زفرة قصيرة وسريعة ورفعت يدها صوب النادلين ثم استأنفت سيرها نحو منضدة السائحة الانجليزية.

على عكس بدء العشاء السريع، تأخروا في إحضار القهوة وأُتيح لك وقت لتدخن سيجارة أخرى وتأتي وئيداً على زجاجة النبيذ فيما تستمتع بمراقبة السائحة الانجليزية وهي تجوب أرجاء القاعة بنظرة عدستيها السميكتين ودون أن تتوقف إزاء شيء بوجه خاص. كان يشوبها شيء من التثاقل أو الحياء إذ راحت لبرهة تأتي بإيماءات حتى قررت خلع معطفها اللامع بماء المطر ووضعته على أقرب مشجب. وبالطبع، حين عاودت الجلوس، يبدو أن مؤخرتها ابتلت لكن ذلك ربما لم يثر قلقها وهي تستأنف استكشافها الحائر للقاعة ثم تسكن تماماً ناشبة بصرها في مفرش المائدة. عاد الساقيان إلى مكانيهما خلف طاولة البار وانتظرت المرأة إلى جانب النافذة المتصلة بالمطبخ. كان ثلاثتهم يرمق السائحة الانجليزية ببصره، ينظرون إليها كأنهم يتوقعون شيئاً: أن تطلب منهم شيئاً إضافياً أو تستبدل طلبها بشيء آخر أو ترحل. ينظرون إليها على نحو عنّ لك مفرط الحدة وبلا مبرر على أية حال.

كانوا قد تحولوا عنك، وشبك الساقيان أذرعهما ثانيةً وخفضت المرأة رأسها، وكان شعرها الأملس الطويل يغطي عينيها بيد أنها ربما كانت أكثر من يحدج السائحة ببصرها، وتراءى لك ذلك فظاً وغير مهذب على الرغم من أن الخَلَد القصير النظر لم يكن يدرك أي شيء في

Twitter: @ketab_n

تلك اللحظة إذ كانت تقلب في حقيبة يدها وتخرج شيئاً لا تمكن رؤيته في الضوء الخافت ولكنه مالبث أن استبان من الصوت الذي أصدره الخلد عند تمخطه.

حمل أحد النادلين إليها طعامها(جلاش، على ما يبدو)، وعاد في الحال إلى موقع المراقبة. وكان يمكن لعادة شبك الذراعين المزدوجة، كلما انتهيا من مهمتهما، أن تغدو مبهجة، لكنها بشكل ما لم تكن كذلك ولم يكن مبهجاً أيضاً أن تنتحي المرأة الركن القصي من طاولة البار ولا أن تراقب من هناك ببالغ الاهتمام طقس احتساء القهوة الذي كنتَ تؤديه بكل التؤدة التي كانت تتطلبها جودة القهوة وأريجها.

بغتةً، لاح أن بؤرة الاهتمام قد تغيرت، لأن النادلين كانا أيضاً يرقبانك وأنت تشرب القهوة. قبل أن تنتهي من تناولها، اقتربت المرأة لتسألك هل تريد أخرى، وأنتَ قبلت متحيراً لأن في كل ذلك، ولم يكن ذا بال، كان ثمة شيء يستعصي على فهمك وكنتَ تود لو أدركته على نحو أفضل. السائحة الانجليزية، مثلاً، لماذا بدا النادلان فجأةً كأنهما يتعجلانها كي تنتهي من طعامها وتذهب؟ إذ كانا يرفعان كل طبق مع آخر لقمة ويقربان قائمة الطعام المفتوحة من وجهها ويذهب أحدهما بالطبق الفارغ فيما ينتظر الآخر كأنه يستحثها أن تستقر على رأي.

وأنتَ، كما كان يحدث في العديد من المرات، لم تستطع أن تحدد اللحظة التي اعتقدت فيها أنك فهمت. في الشطرنج أيضاً وفي الحب هنالك مثل هذه اللحظات التي ينقشع فيها الضباب وحينئذٍ تتم اللعبة أو الفعل الذي كان مستحيلاً قبل ذلك بثانية واحدة. بلا أية فكرة واضحة أقل وضوحاً، اشتممتَ رائحة الخطر وقلت لنفسك إنك مهما تتأخر السائحة الانجليزية في تناول عشائها عليك أن تلبث هناك تدخن

Twitter: @ketab_n

وتشرب إلى أن يقرر الخلد الأعزل أن ينحشر في فقاعته البلاستيكية ويخرج من جديد إلى الشارع. وبما أنك كنت دائماً تهوى الرياضة والعبث، وجدت تسلية في أن تأخذ على هذا النحو شيئاً كان أبعد ما يكون عن ذلك على مستوى المعدة، التفت كأنك تنادي وطلبت قهوة أخرى وقدحاً من شراب الباراك الشهير في ذلك المكان. تبقت معك ثلاث سجائر وفكرت في أنها تكفيك حتى تستقر السائحة الانجليزية على نوع من الحلوى البلقانية؛ وهي بالطبع لن تحتسي قهوة ولن تطلب شاياً إذ إن هنالك أشياء لا يقدم عليها المرء خارج الوطن. وبقليل من حسن الطالع يمكنها أن تدفع الحساب وترحل في غضون خمس عشرة دقيقة.

أحضروا لك القهوة بيد أنهم لم يأتوك بـالباراك ، وأطلت عينا المرأة من بين خصائل شعرها لتتخذ تعبيراً يلائم التأخير: كانوا يبحثون عن زجاجة جديدة في القبو وعلى السيد أن يتكرم بالانتظار بضع دقائق. كان الصوت يلفظ الكلمات في نقاء رغم سوء النطق، لكنك لاحظت أن المرأة تولي اهتمامها إلى المنضدة الأخرى حيث كان النادل يقدم الحساب بإيماءة آلية فيما يمد يده ويتوقف بلا حراك، في غلظة محكمة ومهذبة. وكانت السائحة تقلب في حقيبة يدها وكأنها أخيراً فهمت؛ كان كل شيء فيها أخرق، ويحتمل أنها وجدت المشط أولاً أو مرآة بدلاً من النقود التي لابد أنها ـ أخيراً ـ طفت على السطح لأن النادل ابتعد بغتةً عن منضدتها في ذات اللحظة التي دنت فيها المرأة من منضدتك حاملة كأس الباراك. وأنتَ لم تع جيداً لـمَ رجوتها أن توافيك بالحساب في الحال رغم تيقنك من أن السائحة سترحل قبلك وكنت تستطيع أن تفرغ إلى استعذاب مذاق الباراك وتدخن آخر ما تبقى من سجائرك.

Twitter: @ketab_n

ربما كانت فكرة البقاء وحيداً مرةً أخرى، وهو ما كان محبباً لدى دخولك المطعم ثم تبدل الآن، فضلاً عن أشياء أخرى كصورة الساقيين المزدوجة خلف البار والمرأة التي تبدو مترددة كلما اقتربت من منضدتك، كأن من غير اللائق أن تسرع على ذلك النحو، ثم تستدبرك وتعود إلى طاولة البار ليكتمل الثالوث من جديد وكذا الانتظار. على أية حال، لابد أن العمل في مطعم خاوٍ كهذا يثير الكآبة، بعيداً عن الضوء والهواء النقي، إذ ظهرت عليهم علائم الإنهاك، وكان شحوبهم وإيماءاتهم النتيجة الوحيدة المحتملة لتلك الليالي التي لا تنتهي.

أما السائحة فكانت تعمل يدها في معطفها ثم تعود إلى المائدة كأنما يخيل إليها أنها نسيت شيئاً فتنظر تحت المقعد؛ حينئذٍ، نهضت أنت على مهل، غير قادر على البقاء ثانية أخرى واحدة، والتقيت في منتصف الطريق أحد النادلين مد إليك الصينية الفضية فتركت أنت عليها ورقة مالية دون أن تنظر إلى قائمة الحساب. واتفقت دفقة الهواء وإيماءة النادل الذي راح يفتش في جيبي صدارته الحمراء ليرد إليك باقي الحساب. لكنك كنت تعلم أن السائحة فتحت الباب فلم تنتظر بل رفعت يدك في تحية شملت النادل ومن كانا يحدجان ببصرهما من ناحية البار. وبعد أن قدرت المسافة بدقة، التقطت معطفك في طريقك وخرجت إلى الشارع حيث توقف المطر. هناك فقط تنفست الصعداء، كأنك حتى تلك اللحظة ودون أن تنتبه كنت حبست أنفاسك، هناك فقط انتابك شعور حقيقي بالخوف والراحة معاً.

كانت السائحة على بعد خطوات تسير في بطء في اتجاه فندقها، وأنت تبعتها بخوف مبهم من أن تتذكر فجأة أنها نسيت شيئاً وتجرؤ على العودة إلى المطعم. لم يكن الأمر حينئذٍ يتعلق بفهم أي شيء، فكان كل

Twitter: @ketab_n

شيء كتلة واحدة، أمراً بديهياً بلا مبررات: كنت قد أنقذتها وكان عليك أن تتيقن من أنها لن تعود وأن الخلد الأحمق المحشور في فقاعته الرطبة سيصل بكل رعونته السعيدة إلى فندقه، إلى غرفة لن ينظر إليه فيها أحد مثلما كانوا ينظرون إليه قبل برهة.

عندما اختفت عند ناصية الشارع، ورغم غياب أي مبرر للإسراع، سألت نفسك هل من الحكمة أن تتبعها عن كثب لتتيقن من أنها لن تدور حول البناية برعونة التائه القصير النظر، فأسرعت في بلوغ ناصية الشارع ورأيت الزقاق الخاوي والسيء الإضاءة. لم يكن بالسياجين الحجريين سوى باب وحيد على مسافة بعيدة، ولم يكن محتملاً أن تكون السائحة بلغته؛ فهناك فقط كان ثمة ضفدع سعيد بالمطر يعبر قفزاً من طوار إلى آخر.

تملكك الغضب وهلة: كيف لهذه الغبية أن... بعد ذلك، ارتفقت أحد السياجين وانتظرت. لكنك كنت كمن ينتظر نفسه، تنتظر شيئاً كان يجب أن ينفتح ويعمل في أعماقك حتى يصبح لكل ذلك معنى. كان الضفدع عثر على شق أسفل السياج وأخذ هو أيضاً ينتظر، ربما ينتظر حشرة تعشش في الشق أو ممراً كي يلج بستاناً. لم تدرِ قط كم مكثت من الوقت هناك أو لـمَ عدت إلى شارع المطعم. كانت الواجهة مظلمة بيد أن الباب الضيق ظل مواربا، ولم تر غرابة تقريباً في أن تكون المرأة هناك كأنها تنتظرك في غير دهشة. قالت:

ـ فكرنا في أنك ستعود. كما ترى، لم يكن هنالك مبرر كي ترحل بتلك السرعة!

فتحت الباب قليلاً وانتحت جانباً. حينئذٍ، ماكان عليك إلا أن

Twitter: @ketab_n

تستدبرها وتذهب دون حتى أن ترد، لكن الشارع والسياجين والضفدع لاحوا لك تكذيباً لكل ما تخيلته، لكل ما كنت تعتقد أنه واجب مبهم. وعلى نحو ما كان يستوي لديك الدخول والرحيل مع أنك كنت تشعر بتوتر يشدك إلى الوراء. دخلت قبل أن تبت في الأمر، بنفس ترددك الذي لازمك طيلة تلك الليلة، وسمعت صرير الباب والرتاج وراء ظهرك. كان الساقيان لصق جانبيك وثمة فقط شموع قليلة مضيئة في القاعة. قال صوت المرأة من أحد الأركان:

ـ تعال، كل شيء معد.

عنّ لك صوتك بعيداً، كأنه صادر من الجانب الآخر لمرآة البار. تمكنت من قول:

ـ لا أفهم ، هي كانت هناك وفجأةً...

ضحك أحد الساقيين ، فقط بداية ضحكة جافة. قالت المرأة وهي تقترب في مواجهتك:

ـ أجل، هذا دأبها. لقد بذلت ما في وسعها كي تمنعه، هي دائماً تحاول، التعسة، بيد أنهم يفتقرون إلى القوة، في مستطاعهم فقط فعل بعض الأشياء وغالباً ما يفعلونها على نحو أخرق، إنه لأمر جد مختلف عما يتخيله الناس.

وأنت شعرت بالساقيين إلى جوارك، بصدارتيهما تحكان معطفك. أردفت المرأة:

ـ كدنا نشعر نحوها بالأسى، فهذه هي المرة الثانية التي تحضر فيها وتضطر إلى الذهاب، فما من شيء يجري كما تود. لم يحدث قط أن فعلت شيئاً كما ينبغي، يكفي أن تنظر إليها.

Twitter: @ketab_n

ـ لكن هي ...

ـ جيني. هذا كل ما نعلمه عنها. حين عرفناها تمكنت فقط من قول إن اسمها جيني، إلا إذا كانت تنادي امرأة أخرى... فيما بعد لم تُسمع سوى صرخات، ما أسخف أن يصرخوا بهذا الشكل...

وأنت نظرت إليهم في صمت مدركاً أن مجرد النظر إليهم كان ضرباً من العبث. وأنا يا خاكوبو شعرت نحوك بأسى شديد. أنّى لي أن أعرف أنك ستفكر فيما فكرت فيه بشأني وأنك ستحاول حمايتي، حمايتي أنا التي ذهبت إلى هناك لنفس السبب ، أنا التي كنت هناك من أجل أن يدعوك ترحل. كانت ثمة مسافة بعيدة وعقبات جمة تحول بيني وبينك. كنا نلعب نفس اللعبة بيد أنك كنت لاتزال حياً ولم أكن أملك وسيلة تجعلك تفهم. من الآن سيكون الأمر مختلفاً إن شئت، من الآن سنكون اثنين نحضر في ليالي المطر ، ربما هكذا يحالفنا الحظ وإلا سنكون مجرد اثنين في ليالي المطر.

Twitter: @ketab_n

نظـــــــرة القـــــــطط

إلى خــوان سوريانو

عندما تنظر آلانا وأوزيريس إليّ ليس لي أن أشكو من أقل مداراة، أقل ازدواجية. فهما ينظران إليّ نظرة صريحة: آلانا بضوئها الأزرق وأوزيريس بشعاعه الأخضر. هما أيضاً فيما بينهما ينظران هكذا بعضهما إلى بعض: آلانا تداعب ظهر أوزيريس الأسود وهو يرفع خطمه من طبق الحليب ويموء راضياً، امرأة وقط يتعرف بعضهما بعضاً من مستويات تفر مني ولا يمكن للمساتي أن تجاوزها. منذ زمن طويل أقلعت عن أية سيطرة على أوزيريس، نحن صديقان من مسافة لا يمكن تخطيها؛ لكن آلانا زوجتي والمسافة بيننا من نوع آخر، شيء لايبدو أنها تستشعره ولكنه يقف في طريق سعادتي حين تنظر آلانا إليّ، حين تنظر إليّ مباشرة مثل أوزيريس وتبتسم لي أو تحدثني بلا أدنى تحفظ، تعطي من نفسها في كل إيماءة وفي كل شيء كما تعطي في الحب، حيث يكون جسدها كعينيها، عطاءً مطلقاً، تبادلاً لاينقطع.

هذا غريبٌ، لكنني على الرغم من أنني أحجمت تماماً عن الدخول في عالم أوزيريس، لا يقبل حبي ذلك التبسيط كشيء اكتمل، كزيجة إلى الأبد، حياة بلا أسرار. فوراء تلك العينين الزرقاوين ثمة المزيد، وفي غور الكلمات والأنات والسكونات تنبض مملكة أخرى، تتنفس آلانا

Twitter: @ketab_n

أخرى. لم أقل لها ذلك قط، فمن شدة حبي لها لا أريد أن أكسر ذلك السطح السعيد الذي انزلقت فوقه الأيام والأعوام. وأنا بطريقتي ألح في الفهم وفي البحث، فأنا أراقبها لكن دون أن أتلصص عليها ، أتابعها لكن دون ارتياب؛ أحب تمثالاً رائعاً محطماً، نصاً ناقصاً، قطعة من السماء منقوشة في شرفة الحياة.

مضى زمن لاحت فيه الموسيقى الطريق الذي سيقودني حقاً إلى آلانا، فحين كنت أشاهدها وهي تنصت إلى أسطوانات بارتوك وديوك إلينجتون وجال كوستا كانت ثمة شفافية تدريجية تغوص بي في أعماقها، فالموسيقى كانت تعريها بشكل آخر، تحولها إلى آلانا الأقرب إلى آلانا، لأن آلانا لا يمكن أن تكون فقط تلك المرأة التي نظرت إليّ دائماً نظرة صريحة ودون أن تخفي عني شيئاً. ضد آلانا، فيما وراء آلانا، كنت أبحث عنها لأحبها أفضل، وإذا كانت الموسيقى، في البداية، جعلتني ألمح «آلانات» أخرى، جاء يوم، أمام صورة لرمبرانت، رأيتها فيه تتبدل أكثر، كأن لعبة من السحب تبدل فجأة أضواء وظلال منظر طبيعي. شعرت بأن التصوير يمضي بها إلى ما وراء نفسها، في عيني ذلك المشاهد الذي في وسعه هو وحده أن يقيس التحولات اللحظية التي لا تتكرر البتة، في وسعه أن يلمح آلانا في آلانا. وسطاء بغير قصد، كيث جاريت وبيتهوفن وأنيبال ترويلو، عاونوني في الاقتراب، لكن آلانا أمام لوحة أو صورة كانت تتخلص من أكثر مما كانت تعتقد أنه ذاتها، ولوهلةٍ كانت تلج عالماً خيالياً لكي تخرج من نفسها دون وعي منها وهي تمضي من لوحة إلى أخرى أو تعقّب عليها أو تسكن، ورق لعب كانت هي، في كل تأملٍ، تعيد توزيعه لذلك الذي كان في تسلل وحذر، خلفها قليلاً

Twitter: @ketab_n

أو ممسكاً بذراعها، يرى أوراق البنت والآس والبستوني والسباتي، يرى آلانـــا.

ماذا نفعل بأوزيريس؟ نعطيه حليبه، نتركه في كبته السوداء وفي رضائه وهريره؛ أما آلانـــا فكان بوسعي أن آتي بها إلى هذا المعرض، وهذا ما فعلته أمس، لنشهد مرةً أخرى هذا المسرح من المرايا والعدسات المعتمة، مسرح الصور الكثيفة داخل اللوحات في مقابل تلك الصورة الأخرى البهيجة للـ«جينز» والبلوزة الحمراء التي، بعد أن أطفأت سيجارتها قبل دخول المعرض، راحت تجول بين اللوحات وتتوقف تحديداً على المسافة المناسبة التي تتطلبها نظرتها وتعود إليّ من آن لآخر لتقول لي شيئاً أو تقارن. لم تلتفت قط إلى أنني لم أذهب إلى هناك لأشاهد اللوحات، وأن طريقتي في المشاهدة، إلى الخلف قليلاً أو بنظرة جانبية، لا تمت بصلة إلى طريقتها. ولن تنتبه أبداً إلى أن مرورها المتمهل والمتأمل باللوحات كان يغيّرها إلى حد أنني أغمض عينيّ مرغماً وأصارع نفسي كيلا أضمها بين ذراعي وأحملها إلى الهذيان، إلى جنون الركض في الشارع. طليقة، رهيفة في طبيعية لذتها واكتشافها، كانت توقفاتها وتمهلاتها تُنقش في زمن مختلف عن زمني، بعيدة عن انتظار ظمأي المتوتر.

حتى تلك اللحظة كان كل شيء نذيراً مبهماً، آلانا في الموسيقى، آلانا أمام رمبرانت. لكن حلمي الآن أخذ يتحقق بشكل لا أكاد أحتمله، فمنذ جئنا المعرض أسلمت آلانا نفسها للوحات ببراءة حرباء مفجعة وهي تنتقل من لوحة إلى أخرى دون أن تدرك أن مشاهداً كامناً يترصد في وقفتها، في انحناءة رأسها، في حركة يديها أو شفتيها، يترصد لونيتها الداخلية التي كانت تعتريها فتبدو أخرى، هناك حيث كانت الأخرى

Twitter: @ketab_n

هي دائماً آلانـــــا تدخل في آلانـــا، الأوراق تتراكم لتكمل ورق اللعب. إلى جانبها، متقدماً رويداً بامتداد جدران المعرض، أخذت أراها تسلم نفسها لكل لوحة، وراحت عيناي تضاعفان مثلثاً صاعقاً وممتداً: منها إلى اللوحة، ومن اللوحة إليّ ليرتد مرة أخرى إليها ويرصد التحول، الهالة المختلفة التي كانت تلفها برهة ثم تتراجع فيما بعد أمام هالة جديدة، درجة لونية تقربها من العري الحقيقي، الأخير. ومن المستحيل التكهن بمدى تكرار ذلك التناضح، كم آلانا جديدة ستقودني إلى المجمل الذي سنخرج منه معاً مترعين؟ أما هي، على غير وعي منها بذلك، فستشعل سيجارة أخرى قبل أن تطلب مني أن نذهب لاحتساء شيء، وأنا، على وعي بأن بحثي الطويل بلغ غايته وأن حبي من الآن سيحيط بالمرئي وغير المرئي، سيقبل نظرة آلانـــا الناصعة بلا ارتياب من الأبواب المغلقة أو من الممرات المحرمة.

أمام زورق وحيد ومستوى أول من الصخور السوداء رأيتها تتوقف ساكنة وقتاً طويلاً؛ وجعلتها إيماءة تموج غير مرئية من يديها تتراءى كأنما تسبح في الهواء، تبحث عن عرض البحر، انديا الأفق. ولم يعد يثير دهشتي أن لوحة أخرى ـ سور حديدي له رؤوس مدببة يحول دون بلوغ الأشجار المتاخمة ـ ستجعلها تتراجع كأنها تبحث عن زاوية للنظر، وبغتةً الاستنكار، رفضٌ لتخم غير مقبول. طيور، وحوش بحرية، شرفات تطل على الصمت أو تسمح بدخول صورة زائفة للموت، كل لوحة كانت تشد آلانـــا وتجردها من لونها السابق وتطلق منها تنويعات الحرية، التحليق، الفضاءات الرحبة، لتؤكد رفضها لليل والعدم، لهفتها إلى الشمس واندفاعها الرهيب تقريباً كطائر فينيق. مكثت خلفها موقناً أنني لن أحتمل نظرتها، دهشتها المتسائلة حين ترى على وجهي انبهار

Twitter: @ketab_n

اليقين، لأن هذا هو أنا أيضاً، لأن هذا كان مشروعي ـ آلانا، حياتي ـ آلانا، لأن هذا ماكنت أرغبه أنا وكبحه حاضر مدينة وبطء، وهذا ـ في نهاية الأمر ـ هو آلانا، آلانا وأنا منذ الآن، منذ هذه اللحظة نفسها. كنت أود أن أضمها عارية بين ذراعي وأحبها بحيث يغدو كل شيء جلياً، بحيث يغدو كل شيء صريحاً فيما بيننا؛ وعن ليلة الحب هذه التي لن تنتهي ـ نحن اللذين قضينا الكثير منها ـ سيتمخض أول صبح في الحياة.

بلغنا نهاية المعرض، ودنوت من باب الخروج وأنا لاأزال أخفي وجهي على أمل أن يعيدني الهواء وضوء الشارع إلى ما كانت آلانا تعرفه مني. رأيتها تتوقف أمام لوحة حجبها عني زائرون آخرون، رأيتها تتوقف طويلاً، ساكنة، تنظر إلى شرفة وقط. تحوُّلٌ أخير جعل منها تمثالاً بطيئاً منفصلاً في نقاء عن الآخرين، عني أنا الذي كنت أقترب متردداً أبحث عن عينيها التائهتين في اللوحة. تحققت أن القط كان مطابقاً لأوزيريس وأنه كان ينظر عن بعد إلى شيء كان جدار النافذة يحول بيننا وبين رؤيته. ساكنة في تأملها، بدت أقل سكوناً من سكون آلانـا. على نحو ما شعرت بأن المثلث انكسر؛ حين التفتت آلانـــا برأسها نحوي تلاشى المثلث، هي كانت ذهبت إلى اللوحة ولكنها لم تعد، ظلت إلى جانب القط تنظر إلى ماوراء النافذة حيث ليس في وسع أحد أن يرى ماكانا يريان، ما كانت آلانـــا وأوزيريس يريانه وحدهما كلما نظرا إليّ نظرة مباشرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أسقط وأنهض

ليس في وسع أحد أن يرتاب في أن الأشياء تنتكس. يمرض أحد السادة وفجأةً، في يوم أربعاء، ينتكس. وعلى المنضدة، ينتكس أي قلم في الحال. والنساء... كيف ينتكسن! نظرياً، لا يجول بخاطر شيء أو أحد أن ينتكس، لكن لا يعني شيئاً كونه قائما لأنه، أولاً، ينتكس على غير وعي منه، ينتكس كما لم يحدث له من قبل. الياسمين ـ لنضرب مثلاً معطراً ـ، ذلك البياض... من أين تأتيه تلك الصداقة المؤلمة للون الأصفر؟ مجرد البقاء في حد ذاته انتكاس، انتكاس ياسمين في هذه الحالة. ولن نتحدث عن الكلمات، تلك المنتكسات المؤسفات، أو عن الكعك البارد الذي هو الانتكاس بعينه. وضد ما يحدث يفرض النهوض نفسه في صبر، ففي أشد حالات الانتكاس هنالك شيء يصارع من أجل النهوض، في الفطر الذي نطؤه، في الساعة المعطلة، في قصائد بيريث إي بيريث... ففي كل منتكس ثمة مُنهِض. لكن في حالتنا نحن الذين نفكر في حياتنا، المسألة مشوشة ولانهائية تقريباً. فالقوقعة تفرز والسحابة تتنفس، وربما انتكستا، غير أن تعويضاً خارجاً عنهما ينهضهما، يجعلهما رويداً تتسلقان خير ما فيهما قبل الانتكاسة المنتظرة. لكننا، يا عمتي، ماذا نفعل؟ كيف ننتبه إلى أننا انتكسنا إذا كنا في الصباح على هذا القدر من البهجة والقهوة بالحليب ولا نستطيع أن نقيس إلى أي حد انتكسنا في نومنا أو في الحمّام؟

Twitter: @ketab_n

وإذا ارتبنا في حالتنا الانتكاسية، كيف لنا أن ننهض؟ هنالك من ينتكس عند بلوغه قمة جبل أو انتهائه من رائعة أعماله أو حلاقة ذقنه بلا أقل جرح. وليست كل انتكاسة تحدث من أعلى إلى أسفل، لأن أعلى وأسفل لا يعنيان أي شيء ذي بال حين لا ندري أين نحن. فمن المحتمل أن «إيكاروس» كان يعتقد أنه يلمس السماء حين سقط في البحر وحفظك الله من سقوط غير محسوب مثل ذاك! عمتي، كيف لنا أن ننهض؟ ثمة من يؤكد أن النهوض محتمل فقط بالتحول، لكنه نسي أن كل انتكاس هو ضرب من اللاتحول، عودة إلى وحل الذنب. بالفعل، لأن أفضل ما فينا أننا نتحول، نخرج من الوحل بحثاً عن السعادة والضمير والقدمين النظيفتين. لذا فإن كل فعل انتكاسي هو فعل لاتحولي، ويستتبع ذلك أن لا أحد ينهض بلا تحول... محاولة النهوض بالتحول، أي تكرار محزن في المعنى! فطبيعتنا هي الانتكاس واللاتحول. ويبدو لي أن أي منتكس عليه أن ينهض بطريقة أخرى، أجهلها بدوري. ولا أجهل هذا فحسب بل إنني لم أعرف البتة في أية لحظة ننتكس عمتي وأنا. كيف لنا أن ننهض إذن، إذا كان من المحتمل أننا لم ننتكس بعد وأن الانتكاس قد يأتينا وقد نهضنا؟ ألا تكون هذه هي الإجابة يا عمتي كما أفكر الآن؟ لنفعل ما يلي: أنتِ تنهضين وأنا سأراقبك، عدة أيام متتالية، ليكن نهوضاً مستمراً، تنهضين طوال الوقت وأنا أراقبك، أو العكس لو أنكِ تفضلين ذلك، على أنني أفضل أن تبدئي أنتِ لأنني مراقب جيد ومتواضع. على هذا النحو، إذا انتكست أنا في الفترات التي تتخلل نهوضي، بينما أنتِ لا تتيحين أية فسحة من الوقت للانتكاس، وتنهضين كما يحدث في سينما العرض المستمر، بعد مضي قليل من الوقت سيكون الفارق بيننا شاسعاً، ستكونين على القمة بشكل بديع. حينئذٍ سأدرك أن هذا النظام

Twitter: @ketab_n

ناجح، وسأشرع في النهوض بهياج شديد، سأضبط المنبه على الساعة الثالثة صباحاً وأوقف حياتي الزوجية وكافة الانتكاسات الأخرى التي أعلمها، حتى تبقى فقط التي لا أعلمها. وربما، شيئاً فشيئاً، يوماً ما نلتقي مرة أخرى، وسيكون من الرائع أن نقول: الآن نذهب إلى وسط المدينة ونشتري مثلجات، لي كلها بالفواكه ولكِ بالشوكولاتة والبسكويت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خاتمة

خوليو كورتاثر [بروكسل 1914- باريس 1984] كاتب أرجنتيني. ولد في بلجيكا وقضى السنين الأربع الأولى من حياته هناك ثم في الأرجنتين إلى عام 1951 فباريس إلى وفاته. يقول الكاتب عن الفترة الأولى من حياته: «ولدت في بروكسل عام 1914، من مواليد برج العذراء، أي من صفاتي الوهن، الميول الثقافية. كوكبي عطارد ولوني الرمادي (وإن كنت في الحقيقة أفضل الأخضر). جاء مولدي ثمرة للسياحة والدبلوماسية؛ فقد ألحق والدي بالبعثة التجارية القريبة من مقر السفارة الأرجنتينية في العاصمة البلجيكية، ولما كان تزوج حديثاً اصطحب والدتي إلى بروكسل. رأيت النور إبان احتلال الألمان بروكسل في بداية الحرب العالمية الأولى. كنت في الرابعة حين تمكنت أسرتي من العودة إلى الأرجنتين؛ كنت أتحدث أولاً الفرنسية وبتأثير منها لازمتني طريقتي في نطق حرف الراء التي فشلت في التخلص منها. نشأت في بانفيلد، بلدة قريبة من بوينس أيرس، في منزل وبستان يغص بالقطط والكلاب والسلاحف والببغاوات، أي الفردوس. لكنني في ذلك الفردوس كنت آدم، بمعنى أنني لا أحتفظ بأية ذكرى سعيدة من طفولتي: رعاية زائدة عن الحد، حساسية مفرطة، حزن غالب، ربو، كسر الذراعين، حب أول يائس [...] أتممت المرحلة الثانوية في بوينس أيرس ثم عينت مدرساً للمعلمين (1932) فمدرساً للأدب (1935). انتقلت إلى مدينة مندوثا (44 - 1945) بعد سبع سنوات

Twitter: @ketab_n

من العمل في المدارس الثانوية؛ ثم تركت مندوثا وعدت إلى بوينس أيرس بعد فشل الحركة المناهضة لحكم الجنرال بيرون وكنت أنتمي إليها. بدأت الكتابة قبل ذلك بعشر سنين لكنني لم أنشر شيئاً أو لم أنشر شيئاً تقريباً (كتيب من الشعر وربما قصة قصيرة). أقمت في بوينس أيرس (1946-1951) وحيداً مستقلاً مقتنعاً بأني أعزب لا يقهر، صديق عدد قليل من الناس، هاوٍ للموسيقى والقراءة والسينما طيلة الوقت، بورجوازي صغير ينأى عن كل ما يتعدى دائرة الجمال؛ مترجم عام رسمي، مهنة عظمى لمن كانت له حياتي حينئذٍ: انفرادية، استقلالية على نحوٍ أناني».

يقول الكاتب إن Opium لجون كوكتو أيقظت ميله إلى الكتابة، لكننا نلمح أيضاً مؤثرات من جول فيرن وألفريد جاري ولوتريامون وأرتو، فضلاً عن الأرجنتينيين العظام ماثيدونيو فرناندث وليوبولدو لوغونس وبورخس، إلخ.

ظهرت قصصه الأولى في مجلد «كتاب الحيوان» (1951) وتتجلى فيها رؤيته للعالم ـ التي ترجع أصداء من ألفريد جاري ـ ومؤداها أن الطبيعة الحقيقية للأشياء لا تكمن في قوانينها بل فيما يشذ عنها، يقول الكاتب: «تنتمي كافة القصص التي كتبتها تقريباً إلى ما يسمى بالقصص الفانتازي، في غياب مسمى أفضل، وهي تناقض الواقعية الزائفة التي ترى أن كافة الأشياء يمكن وصفها وتفسيرها كما نص على ذلك التفاؤل الفلسفي والعلمي في القرن الثامن عشر، أي في إطار القوانين والمبادئ وعلاقات السبب والنتيجة والسيكولوجيا الصارمة أو الجغرافيا وخرائطها المرسومة بعناية. أما في حالتي فقد كان حدس منظومات أخرى أكثر غموضاً واستغلاقاً واكتشاف ألفريد جاري «المثمر» (الذي رأى

Twitter: @ketab_n

أن الدراسة الحقيقية للواقع لا تكمن في دراسة قوانينه بل ما يشذ عنها) كانا أساس توجهي في سعيي الشخصي نحو أدبٍ على هامش أية واقعية ساذجة إلى ذلك الحد».

ومفهوم الفانتازي عند كورتاثر له عدة محاور: أ. فالكتابة الفانتازية سعي لارتياد آفاق إنسانية جديدة بغية تمام تحقيق الذات؛ ب. وهي أحد أشكال التحليل النفسي الذاتي («ومضات، أبعاد، ولوج احتمالات كانت ترعبني أو تأسرني فجربت التخلص منها بكتابة القصة»)؛ ج. ومحاولة لإبدال الفكر الثنائي بالقياسي («من الضروري أن تبدأ آليات جديدة عملها في المخ خلفاً للمستخدمة وأن يستبدل الفكر الثنائي بوعي قياسي يتمثل الأشكال والإيقاعات غير المدركة للبنى الدفينة»)؛ د. والتنائي عن العبث وقبوله في ذات الوقت كأنموذج طبيعي يقدم لنا واقعاً غير مفهوم، وهو ما لا يعني قبول الواقع على أنه عبثي بل اعتبار العبث تحدياً لقوانين الفيزيقا والفكر الميتافيزيقي المتمحور في الذات. أما الفانتازي فلا شأن له بالعبث لأن له، في جوهره المتماسك، آلية اليومي المألوف نفسها وإن أدرج الناس غالباً غير المألوف مدرج الشذوذ.

وعلى هذا فإن من أهم مرتكزات قصص كورتاثر: مواقف غير معتادة تطرأ على الواقع اليومي، منافذ اغتراب، أوضاع مقلقلة يتخلى فيها اليومي المعتاد عن كونه مريحاً إذ لا شيء مألوف إذا استرقنا النظر إليه وأخضعناه لتأمل صارم. ولا ينبغي لنا تحديداً أن نعد هذه المواقف بحثاً في الواقعي اليومي بل اعتبارها أصلح الطرق لفهمه، وهي مغايرة بداهةً

Twitter: @ketab_n

لطرائق الواقعية الوضعية المعتادة، والكاتب يدعونا إلى الفانتازي وتوقع ما لا يتوقع، قبول منظومة مفتوحة لا نحيط بتخومها، على الأقل بنظامنا المعرفي الحالي.

داريو بييانوبيا وبينيا ليستي يجملان بعضاً من ملامح أدب كورتاثر:

«لا تنفصل حاسة الدعابة الثابتة لديه وسخريته الميتافيزيقية وفانتازياه المكينة وتعمقه النفسي عن همومه الاجتماعية المكرسة، في إيحاء مضمر بالقطيعة مع الرضوخ السلبي للوجود اليومي. وألعابه السردية المعقدة هي بالنسبة إلى القارئ ممارسات محررة للروح تعزز لديه حالة السهاد والتبصر الذهني والتحليق التخييلي. وليس في وسعنا أن نتجاهل أن ثمة ـ إلى جانب البعد الجمالي في نتاجه ـ أبعاداً أخرى داخلة فيه: الميتافيزيقي والاجتماعي والسياسي». ويشيران أيضاً إلى تراكم التجديدات التقنية في أعماله ومنها: «ترادف عناصر لغوية بلا صلة ظاهرة يعزز إبهام الخطاب الفكري [...]، أسلوب مجزأ وإيقاع متباين، تكرارات تعكس حالات هوسية، تقطيعات غير متوقعة وعلامات حذف تدعو القارئ إلى تكملة جمل لم تنته، حذف حروف العطف وأفعال يكتفي بأن تخمن من السياق، كلمات مفتاحية تشير إلى لغز ينبغي حل شفرته، محاكاة صوتية وعبارات تؤكد النبرة الحوارية، جمل بين الأقواس توحي بمناقشة ما قيل من قبل أو تفسيره أو اختصاره أو نفيه، استخدامات عدة مستويات لغوية».

ويغلب عل قص كورتاثر الفضاءات المغلقة في حيز المدينة الرمادي وحضور قوى مجهولة يبدو أن لها يداً تحرك المصائر، كما أن الأشياء

Twitter: @ketab_n

بما أنها موجودة فإن لها حياة وقد تقاوم استخدام البشر لها؛ وأبطاله لا يسيطرون على الحدث، لا يضطلعون بالأحداث بل ليس لهم إلا ردود فعل إزاء المواقف الشاذة التي تعترض حيواتهم، وهم لذلك أقرب إلى القارئ الذي هو أيضاً ليس عليه إلا أن يتقبل الأحداث بلا قدرة على التأثير فيها؛ وتراكب مستويات الخطاب وأزمنة السرد وفضاءاته عن طريق تقنية «الانتقال» بشتى مغايراتها؛ والحكي في المضارع ـ الذي يخيل إلينا أنه من أصعب أزمنة السرد وأمتعها معاً ـ ؛ والنهايات المفتوحة، إلخ.

في قصة «رسالة إلى آنسة في باريس»، هنالك إبدال للمنطق الطبيعي بالخارق الذي يصير هنا هو العادة، عادة تقيؤ الأرانب وعاقبتها الوخيمة. وفي هذه القصة موتيفة متكررة في نصوص الكاتب وهي حاجة بطل القصة إلى قص ما يجري له على أحد والتي تتحول إلى دافع الكتابة.

في «اتصال الحدائق»، رغماً عن إيجازها، تجتمع ملامح مهمة منها تداخل الواقعي واللاواقعي عن طريق طفرة من مستوى سردي إلى آخر، ومفهوم فعل القراءة كلعبة، وتمثل شكل بلاغي قديم (metalepsis) يصطنع بموجبه الشاعر أنه يكابد ما يقوله من شعر، فهنا تتحمل شخصية قارئ الرواية، في نهاية القصة، نتيجة فعل القراءة، إذ لدينا بالفعل واقع مبدئي تجسده الشخصية المستغرقة في قراءة رواية، وواقع ثانٍ قوامه مشهد يجري داخل الرواية نفسها، ومن خلال تداخل المستوى الأول والثاني يمكن أن يُقتل قارئ الرواية على يد بطلي الرواية التي يقرؤها.

يرى تودوروف أن في الأدب الفانتازي استخداماً بعينه للخطاب المجازي يمكن من خلاله الانزلاق مباشرة من الصورة البلاغية إلى الفانتازيا، وهذا

Twitter: @ketab_n

ما نلمحه في قصة «لا ذنب لأحد» التي تعتمد المبالغة، فحدث شائع بسيط كفعل ارتداء قميص من الصوف («بلوفر») يتعقد حتى إن البطل لينحشر فيه بلا مخرج. هنالك من رصد هنا رافداً وجودياً إذ تغترب الأشياء عن الإنسان أو تتمرد لمجرد كونها موجودة. وفي الحيز الفانتازي قد يصبح أبسط الأشياء خطراً على الإنسان لأن الأشياء تستقل وتقاوم استخدامها.

في «لقاء» يتمثل الكاتب صوت تشي غيفارا ليبلغ بأسطورة الثورة مبلغاً غنائياً فريداً، وهو نص نادر من نصوص كورتاثر التي تنطوي على رتوش من التاريخ. من يتحدث في هذه القصة؟ إن ضمير المتكلم ذاك الذي يعابث الأحداث، بين نوبات الربو والضحك، ويحمل البندقية ويداوي الجرحى لا يشير إلا إلى تشي غيفارا؛ ولويس («الذي ليس اسمه لويس...») يشير بالطبع إلى فيدل كاسترو، وشقيقه المشار إليه باسم بابلو ليس إلا راؤول كاسترو. لكن اسم غيفارا لا يظهر إلا في الشاهد الذي يقدم القصة، فالكاتب يبث بعض الإحالات المبهمة (التي هي ليست مبهمة) ويدعو القارئ إلى اكتشاف هوية البطل بنفسه. بعد نجاح الثورة الكوبية كتب غيفارا أدباً مترعاً بالحيوية والذاتية، يتناول الكفاح الثوري بنحو من الأسطورية والرقة والسخرية وكورتاثر قرأه ـ فهذه القصة مستوحاة من «طريق للحرب» لغيفارا ـ وتمثل روحه الثائر وصاغ هذا النص في نثر حداثي يرتقي مستويات شائقة، ملحمية وإنسانية، لنفس متراوحة بين الخوف والغضب، بين الغنائي والعقلاني.

في «الآنسة كورا»، ينهض النص على تقنية المناجاة الذاتية لأربع شخصيات تتناوب الظهور بلا فواصل طباعية، كما ينهض على تقنية «التبئير» بحيث تتولى ضمائر الشخصيات مهمة التحكم في الكم المسرود؛

Twitter: @ketab_n

مع ذلك، يتواتر السرد في نقاء ليكشف عن طبقات تيماتية متعددة.

وعلى غياب الفواصل الانتقالية كذلك يتأسس نص «كل النيران، النار». المثلث العاطفي والنار هما المكونان الرئيسان لحكايتين تقعان في مكانين وزمنين مختلفين. الأولى بين جان ورولان وسونيا وتجري في الزمن الحاضر، والثانية بين البروقنصل وزوجه ومصارع روماني وتجري في سيرك روماني في عهد الإمبراطور أغسطس (كايوس يوليوس أوكتافيوس). يتقدم النص عن طريق سرد آني تناوبي وانتقالات فجائية من حكاية إلى أخرى، ويساور القارئ شعور بأن ثمة قوى غريبة تربط حيوات وحقباً مختلفة، وهنا نذكر مقولة الكاتب: «يراودني شعور بأننا، إلى جانب مصائرنا كأفراد، جزء من أشخاص لا نعرفهم».

في «هناك لكن أين، كيف»، ينتقل الحلم إلى الواقع ويتداخل فيه، ويبلغ النص المستوى الفانتازي من خلال حضور غريب، ليس غريباً لعدم معرفة من هو صاحب هذا الحضور، فنحن نعرف منذ البداية أنه صديق للراوية قضى نحبه قبل إحدى وثلاثين سنة، وإنما الغريب هو الكيفية والحيثية التي يتجسد بهما. ويستخدم كورتاثر هنا فعل الكتابة نفسه مادةً للسرد.

تمثل «وأنتِ استلقيتِ إلى جانبكَ» تجديداً غير مسبوق في تقنية وجهة النظر السردية، فالراوية هنا (في ضمير المخاطب) ليس امتداداً لشخصية البطل على نحو من الأنحاء، كما اعتدنا في نصوص تيار الوعي، ولا يخاطب شخصاً متخيلاً أو غائباً بل إنه، في مغاير آخر لتقنية «التبئير»، يخاطب ضميري بطلي القصة ويحكي لكل منهما أو لكليهما

Twitter: @ketab_n

أفعاله وما يعتمل في نفسه، بطريقة كورتاثر المعتادة: غياب الفواصل الطباعية وعلامات الترقيم، إلخ.

طريف أيضاً وشفيف استخدام كورتاثر ضمير المخاطب والتبئير في «لقاء في دائرة حمراء» حيث يكتشف القارئ أن الراوية «شبح» امرأة قتلت في ظروف غامضة بلا مبرر معروف وفي حيز شبحي مقبض، تتحدث إلى رجل، خاكوبو، قتل في المكان نفسه وفي الظروف نفسها وتفسر له الأحداث التي جرت قبل مقتله ولم يفلح هو في فهمها في حينها وكيف أنها حاولت أن تجنبه مصيرها نفسه فباءت محاولاتها بالفشل.

أما بقية قصص هذا المجلد فهي بالغة التنوع وتعكس قدراً من روح الدعابة والمفارقة والباروديا والإلغاز لكاتب هو من كبار مجددي السرد في عصرنا.

محمد ابو العطا

Twitter: @ketab_n

المترجم في سطور

- د. محمد أبو العطا، أستاذ الأدب الإسباني والترجمة بجامعة عين شمس، مصر.

- له نيف وعشرون مجلداً مترجماً إلى العربية والإسبانية.

- وراجع وقدم لعدد مماثل من الترجمات إلى العربية.

- من بين من ترجم لهم: فيديريكو غرسية لوركا وخورخى لويس بورخس وأدولفو بيوي كساريس وخوليو كورتاثر وكاميلو خوسيه ثيلا وغابرييل غرسية ماركث ورامون خوتا سندير وإدوارد مندوثا وخسوس باردو وليوبولدو لوجونس وفرانثيسكو برينيس وخوسيه ماريا ألبارث وديجو باليردي وداريو بييانوبيا وخوسيه بينيا ليستي وأنا ماريا غاروته...

- كما ترجم عدداً من الدراسات الأدبية إلى العربية أهمها مجلد «مسار الرواية الإسبانوأمريكية» و«الرواية الإسبانية المعاصرة».

- له أربعة مجلدات في ترجمة الشعر من الإسبانية وإليها

- له نحو خمسين دراسة بالعربية والإسبانية نشرت بمصر والخارج.

Twitter: @ketab_n

خوليو كورتاثار

الجولة الأخيرة

يغلب على قصص كورتاثار الفضائات المغلقة في حيّز المدينة الرمادي وحضور قوى مجهولة يبدو أن لها يداً تحرك المصائر. كما أنّ الأشياء بما أنها موجودة فإن لها حياة، وقد تقاوم استخدام البشر لها؛ وأبطاله لا يسيطرون على الحدث، ولا يضطلعون بالأحداث، بل ليس لهم إلا ردود فعل إزاء المواقف الشاذة التي تعترض حيواتهم. وهم لذلك أقرب إلى القارئ الذي هو أيضاً ليس عليه إلا أن يتقبّل الأحداث بلا قدرة على التأثير فيها. وتراكب مستويات الخطاب وأزمنة السرد وفضاءاته عن طريق تقنية الانتقال/ بشتى مغايراتها، والحكي في المضارع - الذي يخيل إلينا أنه من أصعب أزمنة السرد وأمتعها معاً - والنهايات المفتوحة.

أزمنة

تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن